سيرة المسيح

عيسى ابن مريم عليهما السلام



تأليف

د. عزت بن عبد الرحمن السلمي

تبصير
للنشر والتوزيع

سيرة المسيح
عيسى ابن مريم
عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

القسم العلمي بمركز تبصير

سيرة المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ / تأليف: أبي عبد الله عزت بن عبد الرحمن السُّلَمي المتطبب / ط١/ ٢٠٢٢م

٣٠٤ ص، ١٧× ٢٤ سم

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٦٣٩٨-٢-٧

رقم الإيداع: ٢٠٢٢/٢٣٧٥٣

دار النشر: مركز تبصير لتقريب التراث والدراسات العلمية والترجمة

عنوان الكتاب: سيرة المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

المؤلف: أبو عبد الله عزت بن عبد الرحمن السُّلَمي المتطبب

رقم الطبعة: الأولى

تاريخ الطبع: ٢٠٢٢م

العنوان: ٣ شارع مسجد الفرقان – القناطر الخيرية – القليوبية جمهورية مصر العربية

التليفون: ٠١٠١٩٧٥٧٠١٠ – ٠١١٠٢٢٦٠٠٢٠

website: http://tbseir.com- twitter: @tabseir- Fb: @tbseir

Email: tabseir@gmail.com

سيرةُ المسيح

عيسى ابن مريم عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ

تأليف

أبي عبد الله عزت بن عبد الرحمن السلمي المتطبب

تبصير
لتقريب التراث والدراسات
العلمية والترجمة

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤

مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ

كُن فَيَكُونُ ٣٥﴾ [مريم: ٣٤- ٣٥].

مقدمة

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه، وأشهد أن عيسىٰ عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه.

❑ **أما بعد:**

فهذه سيرة السيد المسيح عيسىٰ ابن مريم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما كنت أَوَدُّ أن أراها وأقرأها، سيرة أحسبها -مع اختصارها- متكاملة تعطي صورةً واضحةً عن المسيح في بدئه وانتهائه، وفي حياتَيْه الأولىٰ والثانية علىٰ الأرض، فإن المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أعجب البشر في بدايته وفي نهايته وفي حياته، فقد وُلِد من غير أبٍ وعاش أكثر عُمُره في السماء، ثم ينزل ليعيش ما بقي من عُمُره علىٰ الأرض، ثم يموت ويدفن فيها، وفيه شبه كبير من أبيه آدم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في ذلك.

وقد قرأت كثيرًا عن المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولم أرَ فيما قرأت ما يَسُدُّ الثغرة التي أراها، إذْ إن الكتب والرسائل الكثيرة التي اطلعت عليها لا تخرج عن أحد أمرين، إما دراسة سيرة المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ من منظور النصارىٰ، بالاعتماد في تفاصيل حياته علىٰ كتبهم التي مِلْؤها التحريف والتناقض، مع إعوازٍ شديد في جوانب كثيرة من حياته صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإما دراسات جادَّة مفيدة لكنها تتناول ناحية محدودة تتصل بالمسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ.

وأما كتابٌ يشمل سيرة المسيح كاملةً بصورة صحيحة فلم أجد مع كثرة البحث والتفتيش منذ سنوات، فأردت أن أحاول - مع عجزي وتقصيري- أن أسُدَّ

هذه الثغرة في المكتبة الإسلامية، بتصنيف كتاب يتناول سيرة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ من الكتاب والسنة الصحيحة حيث العِلم المفيد والخبر الصادق الذي يزيد القلب إيمانًا، ولا يعارضه عقل صحيح.

ومعرفةُ السيرة الصحيحة للسيد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، أمر لازمٌ لأهل هذا العصر وما بعده، حيث إن موعد نزوله يقترب مع مرور الأيام، لا سيما وقد ظهرت علامات الساعة الصغرىٰ ولم يبق منها إلا القليل، والله المستعان.

وقد شرفني الله عَزَّوَجَلَّ برؤية المسيح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رؤيا واضحةٍ وضوحَ الشمس، تأملتُ فيها قسماتِه، ووازنتُ بينها وبين ما عرفته من كلام سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن صفة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فتيقنت أنه هو، فسألته: أنت المسيح عيسىٰ ابن مريم؟ فابتسم وقال: نعم، وجلست معه، وطعمتُ طعامًا لا أتذكره، ثم ذهب بعد أن كلَّفني باختيار كتب تصلح أن تكون منهجًا علميًّا يسير عليه الناس، فجعلت أفكر في مجموعة كتب وأتردد في بعضها، لكنه حضر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن أتم المهمة التي كلفني بها، ثم استيقظتُ فرحًا مسرورًا، وما أذكر أنني استيقظت يومًا وأنا مسرور كهذا السرور، ولا فرحت برؤيا كهذه الرؤيا، وأسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يجمعني به، وبسيد الخلق محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبسائر الأنبياء والمرسلين والصديقين في جنته ودار كرامته، بمَنِّه وفضله وكرمه إنه جواد كريم.

وأعلمُ أن هذا الكتاب -إن تمَّ- لابد وأن يكون فيه للمتعقب مجال، ولصاحب القول مقال، أَبَىٰ الله العصمة إلا لكتابه، كما قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لاسيما والمتصفح للكتاب أبصر بمواقع الخلل فيه من مُنْشِئه، كما قال إبراهيم الصولي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالكتب عند منشئها كبعض ولده لا يرىٰ كثيرًا من عيوبهم التي يراها غيره، والله المستعان.

اللهم إنك عفو تحب العفو فاعفُ عني، واحشرني مع من أحب، ووفقني لإتمام هذا الكتاب وارزقني الإخلاص في القول والعمل.

وكتب

أبو عبد الله عزت بن عبد الرحمن السُّلَمي المتطبب

في الرابع من شهر رمضان المبارك، عامَ سبعةٍ وثلاثين وأربعمائة بعد الألف

الباب الأول

التعريف بالمسيح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الفصل الأول

الاسمُ والألقاب

اسم المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: لكل إنسان اسمٌ يُعْرف به، ولا يكاد يُخْتَلَفُ فيه لاسيما إن كان من مشاهير الناس، إلا إن عُرِف بلقبٍ أو كنية غلبت عليه حتىٰ نسي الناس اسمه أو اختلفوا فيه، واسم المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خُلِّد في القرآن، فهو عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ، واسمه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قد تكرر في كلام ربنا عَزَّوَجَلَّ، كما في قول الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾[آل عمران: ٥٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾[آل عمران: ٥٥]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾[آل عمران: ٥٩]، وغير ذلك.

وكذلك ذكره النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ باسمه، فقال في حديث المعراج: «... ثم صعد بي إلىٰ السماء الثانية... إذا بيحيىٰ وعيسىٰ وهما ابنا خالة...» (متفق عليه).

وستأتي في الكتاب -إن شاء الله- جملةُ أحاديث في ذكر عيسىٰ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهذا هو اسمه لا اختلاف فيه عندنا نحن المسلمين، وأما قول الله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾[آل عمران: ٤٥]. فهذا اسمه ولقبه وكنيته، كما قال الصاوي في حاشيته علىٰ «تفسير الجلالَيْن»: (قوله: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ ظاهره أن هذه الأشياء كلها جُعلت اسمًا واحدًا له، مع أن المسيح لقبه، وابن مريم كنيته، وإنما

الاسم عيسىٰ فقط، ويجاب بأنه لما كان لا يتميز إلا بهذه الأشياء كلها جُعلت اسمًا واحدًا). اهـ.

وقال سليمان بن عمر المعروف بالجمل في حاشيته علىٰ «تفسير الجلالَيْن»: (فإن قلتَ: لِمَ قيل: ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ وهذه ثلاثة أشياء: الاسم والكنية واللقب؟ قلت: المراد اسمه الذي يتميز به عن غيره، وهو لا يتميز إلا بمجموع الثلاثة، وبهذا تعلم أن الخبر عن اسمه إنما هو مجموع الثلاثة من حيث المعنىٰ، لا كل واحد منها علىٰ حياله) اهـ.

وأما عند النصارىٰ فاسم المسيح عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ عجَبٌ من العجب، ففي كل لغة له اسم، وفي كل ترجمة من ترجمات الإنجيل تجد له اسمًا مختلفًا، بالرغم من أن أسماء الأعلام لا تترجم بمعناها بين اللغات، وإنما تُنْقَل من لغة إلىٰ لغة كما هي من حيث النطق ثم تكتب بالأحرف المناسبة لكل لغة، وإن تغير النطق قليلًا لفقد حرف أو حركة في بعض اللغات، لكن يظل النطق بالاسم متقارب الصوت في كل اللغات، وبهذا أمكن ضبط التاريخ وفك (شِفرة) اللغات عن طريق تتبع أسماء الملوك في العالم القديم.

ففي الأصل اليوناني للأناجيل (الترجمة اليونانية)(١) نجد أن اسم المسيح يُنطَق هكذا (إيسون) مع ملاحظة أن حرف النون ليس من أصل الكلمة، وإنما هو لاحقة إعرابية يونانية، فالاسم هو (إيسو)، وبما أنه ليس في اليونانية حرف العين، فإن (إيسو) ينطَق بالعربية (عيسو)، وفي الآرامية تفتَح السين فيكون الاسم (عيسَىٰ).

---

(١) الأصل اليوناني الحقيقي مفقود.

فاسم المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وَفق الأصول اليونانية هو (عيسىٰ) وهو الاسم الذي جاء في كلام ربنا المُنَزَّل علىٰ النبي الأمي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، الذي لم يكن له علم لا بلغة اليونان ولا باللغة الآرامية، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[النجم: ٤].

ومن العجيب أن اسم ابن يعقوب عَلَيْهِٱلسَّلَامُ (عيسو) ترجَمَه النصارىٰ إلىٰ اللغة العربية (عيسو) مع أنه يكتب في الإنجليزية: (Esau) (عيسُو) بالضم، وهذا وَفق اللسان العبري الجديد، وهي اللغة الحديثة المتداوَلة حاليًا والتي ظهرت طريقة نطقها بعد القرن العاشر الميلادي.

و(عيسىٰ) بفتح السين وَفق اللسان الآرامي الموصوف في العهد القديم بأنه (شَفَةُ كنعان)(١) وهي اللغة العبرية القديمة، وكذلك في اللسان العربي يكون الاسم (عيسَىٰ)، وأما (يسوع) فما ندري من أين جاء به نصارىٰ العرب!

فبعضهم(٢) يقول: إنه الصيغة العربية، للاسم العبري (يشوع)، وليت شِعري ما اسم المسيح عندهم قبل دخول الإسلام بلادهم وانتشار اللغة العربية، وظهور ترجمات الأناجيل العربية؟!

وبعضهم(٣) يقول: إن (يسوع) هو الصيغة اليونانية لـ(يهوشوع)، مع أن نطقه اليوناني أقرب إلىٰ (عيسىٰ) منه إلىٰ (يسوع)، فما ندري مَن اخترع اسم (يسوع)

---

(١) سفر إشعياء (١٩:١٨).

(٢) مثل القس إبراهيم سعيد في (شرح بشارة لوقا) (ص٢١).

(٣) مثل أصحاب (قاموس الكتاب المقدس) (ص١٠٦٥).

العربي، وما هو أصله(١)، مع العلم بأن الاسم (يسوع) العربي لم يكن له وجود قبل القرن العاشر الميلادي(٢).

ألقاب عيسىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

عيسىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له ألقاب متعددة، وتعدد الألقاب يدل علىٰ عظمة المُلَقَّب ومكانته، وكل لقب يفيد معنًىٰ غير الآخر، وألقابه هي:

المسيح: وهو أشهر ألقاب عيسىٰ ابن(٣) مريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتىٰ إنه غلب علىٰ اسمه، واتفق عليه المسلمون والنصارىٰ.

واختلف العلماء في لفظة المسيح هل هي عربية أم لا، فقال بعضهم هي لفظة سريانية وأصلها (مشيحا) بالشين المعجمة فعربتها العرب، وكذا ينطق بها اليهود، وهذا قاله أبو عبيد، واختلف الذين قالوا: إنها عربية في معناها علىٰ أقوال بلغت

(١) باختصار وتصرف من (المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ عيسىٰ أم يسوع؟!) للعميد المهندس جمال شرقاوي (ص١١-٤٥).

(٢) مسحاء كتب العهد الجديد ع.م. جمال الدين شرقاوي، حاشية (ص٤)، ط. دار هادف.

(٣) قال الآلوسي رَحِمَهُ اللَّهُ: (واعلم أن لفظ «ابن» في الآية يكتب بغير همزة بناء علىٰ وقوعه صفة بين علمين، إذ القاعدة أنه متىٰ وقع كذلك لم تكتب همزته، بل تحذف في الخط تبعًا لحذفها في اللفظ لكثرة استعماله كذلك). (روح المعاني، للآلوسي ط. مؤسسة الرسالة (١٤٣١ ٤/ ١٩٧)، قلت: وفي كلام العلامة الآلوسي رَحِمَهُ اللَّهُ، نظر من وجهين: الأول أن رسم المصحف لا تطبق عليه قواعد الإملاء، وهو في المصحف عيسىٰ ابن مريم بإثبات الهمزة، والثاني أن من شرط حذف الهمزة كون لفظة ابن بين علمين ثانيهما أب للأول، ومريم أم عيسىٰ وليست أباه، نعم قد تجعل مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ استثناء فتجعل كالأب لأن عيسىٰ لا أب له، فعلىٰ هذا تدخل كلمة ابن في القاعدة وتحذف همزتها لكن في غير المصحف، والله أعلم.

خمسين قولًا، فقيل: سُمِّي المسيح مسيحًا لأنه كان يسيح في الأرض يدعو إلىٰ الله، وقيل: لأنه مُسح بالبركة، وقيل: مُسح بالزيت المبارك، وقيل: لأنه كان يُتَمَسَّح به رجاء بركته، وقيل: المسيح معناه الحسَنُ الوجه الجميل، وقيل غير ذلك مما لا صلة له بالمسيح إلا بتكلف شديد.

قال الفيروز آبادي رَحِمَهُٱللَّهُ في «القاموس المحيط»: وقد ذكرت في اشتقاقه خمسين قولًا، فقال الزبيدي في «تاج العروس»: قال شيخنا: كلها منقولة مبحوث فيها، أنكرها الجماهير، وقالوا: إنما هي من طرق النظر في الألفاظ، وإلا فهو ليس من ألفاظ العرب ولا وضعته العرب لعيسىٰ، حتىٰ يتخرج علىٰ اشتقاقها ولغاتها اهـ(١).

كلمة الله: وهذا اللقب الشريف لقَّبه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ به في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١]، وفي قوله تعالىٰ: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: ٣٨- ٣٩].

فقوله تعالىٰ عن يحيىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: بعيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، في قول جماهير المفسرين.

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس، باب الحاء، حرف الميم والسين، وانظر بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي (٤/ ٤٩٩ - ٥٠٥)، وتفسير القرطبي (٣/ ١٣٣١) ط. دار الريان، وحياة المسيح في التاريخ وكشوف العصر الحديث للعقاد (ص٣٣، ٣٤) ط. دار الهلال.

وفي الحديث: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة علىٰ ما كان من العمل». (رواه البخاري ومسلم من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ).

قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالىٰ: (قوله تعالىٰ: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾[النساء: ١٧١] أي: مكوَّنٌ بكلمة (كن) فكان بشرًا من غير أب، والعرب تسمي الشيء باسم الشيء الذي كان صادرًا عنه، وقيل: ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾ بشارة الله تعالىٰ مريمَ عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ ورسالته إليها علىٰ لسان جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وذلك قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥]، وقيل: الكلمة هاهنا بمعنىٰ الآية، قال الله تعالىٰ: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾[التحريم: ١٢] و﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧](١)، وكان لعيسىٰ أربعة أسماء: المسيح، وعيسىٰ، وكلمة الله، وروح الله، وقيل غير ذلك مما ليس في القرآن، ومعنىٰ ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ أمر بها مريم) اهـ(٢).

وقال الإمام ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، أي إنما هو عبد من عباد الله وخلقٌ من خلقه قال له: كن فكان، ورسول من رسله وكلمة ألقاها إلىٰ مريم، أي

---

(١) المقصود-هنا- بكلمات الله، كلماته التي هي صفة له، وهي كلماته التامات الدالة علىٰ عظمته وجلاله وصفاته الحسنىٰ، سبحانه يتكلم بما شاء إذا شاء.

(٢) تفسير القرطبي، (٣/ ٢٠١٨)، ط. مؤسسة الريان، وعدّه ألقاب المسيح أسماءً له، من باب التجوّز.

خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ إلىٰ مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عَزَّوَجَلَّ، فكان عيسىٰ بإذن الله عَزَّوَجَلَّ...)(١).

وقال رَحِمَهُٱللَّهُ: (وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ هو قوله كن فكان، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطي قال: سمعت شاذّ بن يحيىٰ يقول في قول الله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ قال: ليس الكلمةُ صارت عيسىٰ، ولكن بالكلمة صار عيسىٰ، قال ابن كثير: وهذا أحسن مما ادعاه ابن جرير في قوله: ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي أعلمها بها)(٢).

وقال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُٱللَّهُ: وتسمية عيسىٰ بكلمة الله في هذه الآية(٣) وفي قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾، لكونه مُوْجَدًا بكن المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقيل: لاهتداء الناس به كاهتدائهم بكلام الله تعالىٰ(٤)، وقيل: سُمّي به لما خَصَّه الله تعالىٰ من صغره حيث قال وهو في مهده: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [مريم: ٣٠] الآية، وقيل: سمي كلمة الله تعالىٰ من حيث صار نبيًّا كما سمي النبي «ذِكرًا رسولًا»(٥). اهـ(٦).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٧٨) ط. دار طيبة.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٧٩) ط. دار طيبة.

(٣) يعني الآية التاسعة والثلاثين من سورة آل عمران.

(٤) قلت: وهذا لا اختصاص له به، بل غيره من المرسلين كذلك.

(٥) يعني قول الله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠-١١].

(٦) المفردات في غريب القرآن (ص٥٥٨) ط. مكتبة فياض.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والمسيح خُلق بالكلمة، فقيل له: كن فكان... وإنما خُصَّ المسيح بتسميته (كلمة الله) دون سائر البشر لأن سائر البشر خُلقوا على الوجه المعتاد في المخلوقات... ولهذا شَبَّهه بآدم في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران: ٥٩]... ولكن لم يُسَمَّ كلمة الله لأن جسده خُلق من التراب والماء وبقي مدة طويلة... وأما المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فَخُلِق جسده خلقًا إبداعيًّا بِنَفْسِ نفخِ روح القدس في أمه، قيل له: كن فكان؛ فكان لَه من الاختصاص بكونه خُلق بكلمة الله ما لم يكن لغيره من البشر) اهـ(١).

روح الله: وهذا لقبٌ آخر شريف من ألقاب عيسىٰ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو مأخوذ من قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝١٧١﴾ [النساء: ١٧١].

وكما ورد في الحديث السابق: «من شهد أن لا إله إلا الله... وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه...» الحديث، وهو متفق عليه.

وقد ظن النصارىٰ أن (مِن) هنا للتبغيض، وهذا من جهلهم بالله، وهو مما يدل علىٰ سخافة عقولهم.

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله تعالىٰ: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ هذا الذي أوقع النصارىٰ في الإضلال فقالوا: عيسىٰ جزء منه، فجهلوا وضلوا، وعنه أجوبة ثمانية:

---

(١) الجواب الصحيح علىٰ من بدل دين المسيح (١/ ٤٤٣) ط. دار العقيدة، باختصار.

الأول: قال أُبَيّ بن كعب: خلق الله أرواحَ بني آدم لَمَّا أخذ عليهم الميثاق ثم رَدَّها إلىٰ صُلب آدم، وأمسك عنده رُوح عيسىٰ عَلَيْهِالسَّلَامُ، فلما أراد خلقَه أرسل ذلك الروح إلىٰ مريم فكان منه عيسىٰ عَلَيْهِالسَّلَامُ، فلهذا قال: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾.

وقيل: هذه الإضافة للتفضيل، وإن كان جميع الأرواح من خلقه، وهذا كقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾[الحج: ٢٦].

وقيل: قد يسمىٰ من تظهر منه الأشياء الغريبة رُوحًا، وتضاف إلىٰ الله تعالىٰ فيقال: هذا روح من الله أي من خلقه، كما يقال في النعمة: إنها من الله، وكان عيسىٰ يبرئ الأكمهَ والأبرصَ ويحيي الموتىٰ فاستحق هذا الاسم.

وقيل: يسمىٰ روحًا بسبب نفخة جبريل عَلَيْهِالسَّلَامُ، ويسمىٰ النفخ روحًا لأنه ريح يخرج من الروح(١)، قال الشاعر:

فقلت لـه ارفعها إليـك وأَحْيِها   بروحـك واقْتَتِـهْ لها قِيتـةً قـدْرًا

وقد ورد أن جبريل نفخ في دِرع مريم فحملت منه بإذن الله، وعلىٰ هذا يكون ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ معطوفًا علىٰ المُضْمَر الذي هو اسم الله في ﴿أَلْقَىٰهَآ﴾، التقدير: ألقىٰ الله وجبريلُ الكلمةَ إلىٰ مريم.

وقيل: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي من خلقه كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[الجاثية: ١٣] أي من خلقه.

وقيل: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي رحمة منه، فكان عيسىٰ رحمة من الله لمن اتبعه(٢) ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[المجادلة: ٢٢] أي برحمة، وقرئ: (ورُوحٌ وريحان).

---

(١) ذكر نحوه ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ (٢/ ٤٨٠).

(٢) كقوله تعالىٰ: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾[مريم: ٢١].

وقيل: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾: وبرهان منه، وكان عيسىٰ برهانًا وحجةً علىٰ قومه، صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. اهـ(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُاللَّهُ: (وكذلك قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، وهو مثل قوله في آدم عَلَيْهِالسَّلَامُ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢])(٢).

وله صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **ألقابٌ أُخر**، لكنها ليست خاصةً به كعبد الله ورسول الله، كما في قول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١]، وقوله تعالىٰ علىٰ لسان الحواريين: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٣]، وكقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦]، وكقوله صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في المهد كما حكاه الله عنه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: ٣٠]، وكما في الحديث: «... وأن عيسىٰ عبد الله ورسوله...».

وأغرب الزَّبيديُّ فذكر من ألقابه (ذو النخلة) فقال: (وذو النخلة هو المسيح عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ لأنه وُلد عند جِذع نخلة)(٣)، ولم أر ذلك لغيره رَحِمَهُاللَّهُ.

---

(١) تفسير القرطبي (٣/ ٢٠١٨-٢٠١٩).

(٢) الجواب الصحيح (١/ ٤٢٤).

(٣) تاج العروس من جواهر القاموس (٣٠/ ٤٧٠) ط. دار الكويت.

الفصل الثاني

صفة المسيح عيسى ابن مريم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

وردت عدةُ أحاديث صحيحة في وصف المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقد رآه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليلة المعراج، ووصفه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصفًا دقيقًا حتىٰ لا يخفىٰ علىٰ مَن يراه، ولذا سيعرفه الإمامُ المهدي عندما يراه بعد نزوله، كما سيأتي إن شاء الله، وقد ذكرتُ في المقدمة أنني رأيت المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في رؤيا واضحة فكان كما وصفه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوىٰ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وقبل ذِكْر حِليته وصفته عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، لابد من التنبيه علىٰ أمر مهم؛ وهو أن هذه الصورة المنتشرة لذلك (اليسوع) المزعوم بملامحه الأوربية ذات البشرة البيضاء والشعر الأشقر والعيون الزُرْق لا تشبه المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، ولا تشبه أهل فلسطين الذين وُلد فيهم وعاش بينهم، وإنما هكذا تخيَّلها ذلك المصوِّر الأوربي، فصوَّرها كما تخيلها.

وليُعلم أن الزنوج يرسمون (يسوعهم) زنجيًّا، ويرسمه الصينيون بملامح تشبههم، ويرسمه كل قوم حسبما تخيلوه، وإن غلبت صور اليسوع الأوربي لغلبة حضارتهم في هذه الأعْصُر البائسة، وهكذا تختلف الأهواء، والحق واحد لا يتعدد.

وجُملةُ ما جاء في كلام المعصوم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في وصف أخيه المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أن المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ رَبْعَةٌ من الرجال فليس بالطويل البائن، ولا بالقصير، أسمر اللون مُشْرَبٌ بحُمْرة، والسُّمرة منزلة بين السواد والبياض، جميلٌ كأجمل ما أنت راءٍ من سُمْر الرجال، سَبِط الشَّعر، وشعره يُجاوز شَحْمَة أذنيه، وقد

دهن شعره ورَجَّله كأنما خرج للتوِّ من حَمَّام، عريض الصدر، وهذه الصفات وردت في عدة أحاديث صحيحة، كما سيأتي إن شاء الله.

قال الإمام ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وثبت في «الصحيحين» عن ابن عمر أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصفَ عيسىٰ فقال: «رَبعةٌ آدمُ كأنما خرج من ديماس» أي حَمَّام، وفي لفظٍ: «سَبِط الشعر» وفي البخاري من حديث ابن عباسٍ رَفَعه: «رأيت ليلةَ أُسري بي...» فذكر الحديث وفيه: «ورأيت عيسىٰ أحمرَ رَبعةً سَبطًا» ومن حديث أبي هريرة مثله)(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قوله في صفة عيسىٰ: «رَبْعة» هو بفتح الراء وسكون المُوَحَّدة ويجوز فتحها، وهو المربوع، والمراد أنه ليس بطويل جدًّا ولا قصير جدًا بل وسط)(٢)، (قوله: «آدم» بالمد أي أسمر، قوله: «تضرب لِمَّته» بكسر اللام أي شعر رأسه، ويقال له إذا جاوزَ شَحْمةَ الأذنين وألَمَّ بالمنكبين: لِمَّة، وإذا جاوزت المنكبين فهي جُمَّة، وإذا قصرت عنهما فهي وَفْرة)، و(قوله: «رَجِل الشعر» بكسر الجيم أي قد سرحه ودهنه)(٣).

وفي «صحيح البخاري» من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «رَأَيْتُ عِيسَىٰ ومُوسَىٰ وإِبْرَاهِيمَ، فأَمَّا عِيسَىٰ فأَحْمَرُ، جَعْدٌ، عَرِيضُ الصَّدْرِ، وَأَمَّا مُوسَىٰ فَآدَمُ، جَسِيمٌ، سَبْطٌ، كَأَنَّهُ مِن رِجَالِ الزُّطِّ»، وبنحوه رواه الإمام أحمد في «مسنده» من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤).

---

(١) الإصابة في معرفة الصحابة (٣/ ٧١) ط. مكتبة مصر.

(٢) فتح الباري (٦/ ٥٥٨) ط. السلفية (الثالثة).

(٣) فتح الباري (٦/ ٥٥٩) ط. السلفية (الثالثة).

(٤) مسند الإمام أحمد، الحديث رقم (٢٦٩٧)، ط. دار المعارف تحقيق الشيخ شاكر.

ورؤية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمسيح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت في ليلة المعراج يقظةً، رآه بعينَيْ رأسه، ورآه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرةً أخرىٰ في المنام يطوف بالبيت.

ففي «صحيح مسلم» في حديث جابر الطويل في خبر الإسراء والمعراج: «عُرِضَ عَلَيَّ الأنْبِياءُ، فإذا مُوسَىٰ ضَرْبٌ مِنَ الرِّجالِ، كَأَنَّهُ مِن رِجالِ شَنُوءَةَ، ورَأَيْتُ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فإذا أقْرَبُ مَن رَأَيْتُ به شَبَهًا عُرْوَةُ بنُ مَسْعُودٍ، ورَأَيْتُ إبْراهِيمَ صَلَواتُ اللهِ عليه، فإذا أقْرَبُ مَن رَأَيْتُ به شَبَهًا صاحِبُكُمْ، يَعْنِي نَفْسَهُ، ورَأَيْتُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فإذا أقْرَبُ مَن رَأَيْتُ به شَبَهًا دَحْيَةُ».

وفي «الصحيحين» من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «أُرانِي اللَّيْلَةَ عِنْدَ الكَعْبَةِ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا آدَمَ، كَأَحْسَنِ ما أنْتَ راءٍ مِن أُدْمِ الرِّجالِ، له لِمَّةٌ كَأَحْسَنِ ما أنْتَ راءٍ مِنَ اللِّمَمِ قدْ رَجَّلَها، فَهي تَقْطُرُ ماءً، مُتَّكِئًا علَىٰ رَجُلَيْنِ، أوْ علَىٰ عَواتِقِ رَجُلَيْنِ، يَطُوفُ بالبَيْتِ، فَسَأَلْتُ: مَن هذا؟ فقِيلَ: المَسِيحُ ابنُ مَرْيَمَ، وإذا أنا برَجُلٍ جَعْدٍ قَطَطٍ، أعْوَرِ العَيْنِ اليُمْنَىٰ، كَأنَّها عِنَبَةٌ طافِيَةٌ، فَسَأَلْتُ: مَن هذا؟ فقِيلَ: المَسِيحُ الدَّجَّالُ»، وفي لفظ للشيخَيْن أيضًا: «أُراني الليلةَ في المنام عند الكعبة...» الحديث، وفي لفظ آخر: «بينما أن نائم رأيتُني أطوف بالكعبة فإذا رجل آدمُ سَبِطُ الشعر بين رجلين...» الحديث.

❁ ❁ ❁

الفصل الثالث

شمائل المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وفضائله

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٦]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [مريم: ٣٠-٣٤].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ٤٥] أي له وَجاهة ومكانة عند الله، في الدنيا بما يوحيه إليه من الشريعة وينزل عليه من الكتاب، وغير ذلك مما منحه، وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه، فيقبل منه أسوةً بإخوانه من أولي العزم صلوات الله عليهم)(١)، وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: (﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٦] أي في قوله وعمله، له علم صحيح وعمل صالح)(٢).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: (﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١] قال مجاهد وعمرو بن قيس والثوري: وجعلني معلِّمًا للخير، وفي رواية عن مجاهد: نَفَّاعًا)(٣) وقال

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٣) ط. دار طيبة.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٣) ط. دار طيبة.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٢٩) ط. دار طيبة.

رَحِمَهُٱللَّهُ: (وقوله: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ [مريم: ٣٢] أي وأمرني ببر والدتي... وقوله: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢﴾ [مريم: ٣٢] أي ولم يجعلني جبارًا مستكبرًا عن عبادته وطاعته وبِرّ والدتي، فأشقىٰ بذلك)(١).

فالمسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ له مكانة عظيمة وجاهٌ عند الله سبحانه في الدنيا والآخرة، وهو عَبدٌ مبارَكٌ معلّم للخير أَمَّارٌ بالمعروف نَهَّاءٌ عن المنكر، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، وهو بارٌّ بأمه، ومن الصالحين المقربين، وفوق ذلك كله فعيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ نبيٌّ رسول من أولي العزم من الرسل، فالله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ فَضَّلَ بعضَ الرسل علىٰ بعض وبعضَ النبيين علىٰ بعض، كما قال تعالىٰ: ﴿۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ٢٥٣﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ٥٥﴾ [الإسراء: ٥٥].

وأفضل الرسلِ والأنبياءِ خمسة، وهم: محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ونوحُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإبراهيمُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وموسىٰ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وعيسىٰ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل الذين قال الله فيهم: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقد ذكرهم الله سبحانه في موضعين من كتابه الكريم:

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٢٩) ط. دار طيبة.

في قوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورىٰ: ١٣].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧].

وقال الإمام ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما أولو العزم من الرسل فقد قيل فيهم أقوالٌ، أَحْسَنُهَا ما نقله البغوي وغيره عن ابن عباس وقتادة أنهم: نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم(١).

ومن خصائص المسيح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه مع كونه نبيًّا رسولًا من أولي العزم من الرسل، فهو أيضًا صحابيٌّ من صحابة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس هذا لأحدٍ غيره من البشر.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ذكره الذهبي في «التجريد» مستدركًا علىٰ مَن قبله(٢)، فقال: عيسىٰ ابن مريم رسول الله، رأىٰ النبي -صلىٰ الله عليه وآله وسلم- ليلةَ الإسراء، وسَلَّمَ عليه فهو نبيٌّ وصحابيٌّ، وهو آخر مَنْ يموت مِن الصحابة، وأَلْغَزَه القاضي تاج الدين السبكي في قصيدته في آخر القواعد له فقال:

مَنْ باتفاقِ جميع الخَلْقِ أفضلُ مِن   خيرِ الصِحاب أبي بكرٍ ومِن عُمَرِ
ومِن عليٍّ ومِن عثمانَ وهو فتًىٰ   من أمة المصطفىٰ المختار من مُضَرِ

وقال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويتجه ذكر عيسىٰ خاصةً لأمورٍ اقتضت ذلك:

---

(١) شرح الطحاوية (٢/ ٤٢٤) ط. مؤسسة الرسالة.

(٢) أي من العلماء الذين لم يذكروه في عداد الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

أولها: أنه رُفع حيًّا وهو على أحد القولَيْن، الثاني: أنه ينزل إلى الأرض كما سيأتي بيانه فيقتل الدجال، ويحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فبهذه الثلاث(١) يدخل في تعريف الصحابي، وهو الذي عَوَّلَ عليه الذهبي(٢).

ومن خصائص المسيح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لما وُلِدَ لم يَمَسّه الشيطان كغيره من بني آدم، حاشا أمه مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، فعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ما من مولود يولد إلا نَخَسَهُ الشيطانُ فيستهل صارخًا من نخسةِ الشيطان إلا ابن مريم وأمه» ثم قال أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: اقرءوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾ [آل عمران: ٣٦]. (رواه البخاري ومسلم).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذه فضيلةٌ ظاهرة، وظاهرُ الحديث اختصاصها بعيسى وأمه، واختار القاضي عياض أن جميع الأنبياء يتشاركون فيها)(٣).

ومن عصمة الله له من الشيطان ما ذكره الإمام البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح السنة» قال: (وروي عن ابن طاوس عن أبيه قال: لقي عيسى ابن مريم إبليس فقال: أمَا علمتَ أنه لا يصيبك إلا ما قُدِّر لك؟ قال: نعم، قال إبليس: فَأَوْفِ بذِروة هذا الجبل -أي اصعد- فَتَرَدَّ فيه، فانظر أتعيش أَمْ لا، فقال: أمَا علمتَ أن الله تعالى قال: لا يُجَرّبني عبدي، فإني أفعل ما شئت)(٤).

---

(١) الأمر الثالث هو المذكور في أنه يحكم بشريعة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والله أعلم.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر (٣/ ٦٩) ط. مكتبة مصر.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/ ١٧٤، ١٧٥) ط. مؤسسة قرطبة.

(٤) شرح السنة، البغوي؛ أبو محمد الحسين بن مسعود، تحقيق شعيب الأرناؤوط، (١/ ١٥٢) ط. المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣، (١/ ١٥٢)، وانظر الإصابة لابن حجر (٣/ ٧١) ط. مكتبة مصر.

وهذا من الإسرائيليات التي لا تُصَدَّق ولا تكذَّب، والقصة يذكرها النصارىٰ في كتبهم بنحو هذا المعنىٰ.

ومن شمائله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان شديدَ التعظيم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ففي «الصحيحين» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «رأىٰ عيسىٰ ابن مريم رجلًا يسرق، فقال له: أسرقت؟ قال: كلا والله الذي لا إله إلا هو، فقال عيسىٰ: آمنتُ بالله وكذَّبتُ عيني»، وهذا لفظ البخاري، ولمسلم: «وكذبت نفسي» وقوله: «آمنت بالله» أي صَدَّقْتُ مَن حلف بالله، (وكذَّبتُ) خرج مخرج المبالغة في تصديق الحالف، وقوله: (أسرقت؟) استفهام تقريري لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جزم بقوله: «إن عيسىٰ رأىٰ رجلًا يسرق».

فالمسيح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -لعظمة وقار الله وجلاله في قلبه- جَوَّز أن يكون بصرُه قد كَذَبه وأراه ما لم ير، وظنَّ صِدْقَ هذا الحالف، وهذا يدل علىٰ سجيةٍ طاهرة حيث قَدَّمَ حلف ذلك الرجل علىٰ ما شاهده بعينه فظنَّ أن أحدًا لا يحلف بالله كاذبًا، فقبل عذره ورجع علىٰ نفسه فقال: «آمنت بالله وكذبت عيني»(١)، وهذا يشبه ما وقع لأبينا آدم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين أقسم له إبليس ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢١- ٢٢]، فما ظنَّ آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أن أحدًا يحلف بالله كاذبًا، واغترَّ بقَسَمِ إبليس لعنه الله، والله أعلم.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفي «الصحيح»: «أن عيسىٰ بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ رأىٰ رجلا يسرق، فقال: سرقت؟ فقال: لا والله الذي لا إله إلا هو، فقال المسيح: آمنت بالله وكذبت بصري»، وقد تأوله بعضهم علىٰ أنه لما حلف له جوز أن يكون

(١) انظر في التعليق علىٰ هذه القصة: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ط. دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، (٦/ ٤٨٩، ٤٩٠).

قد أخذ من ماله، فظنه المسيح سرقة، وهذا تكلف، وإنما كان الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في قلب المسيح عَلَيْهِالسَّلَامُ أجل وأعظم من أن يحلف به أحد كاذبا، فلما حلف له السارق دار الأمر بين تهمته وتهمة بصره، فرد التهمة إلىٰ بصره لما اجتهد له في اليمين بالله، كما ظن آدم عَلَيْهِالسَّلَامُ صدق إبليس لما حلف له بالله عَزَّوَجَلَّ، وقال: ما ظننت أحدًا يحلف بالله تعالىٰ كاذبًا)(١).

ومن شمائل المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: التواضع، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «مَن سرَّه أن ينظر إلىٰ تواضعِ عيسىٰ، فلْينظرْ إلىٰ أبي ذرٍّ»(٢)، والتواضع صفة لا يتصف بها الجَبَّارون، ولذا وصف نفسه بقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢﴾ [مريم: ٣٢].

ومن شمائله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: الصدق والوفاء، ففي الحديث: «ما تُقِلُّ الغبراءُ ولا تظلُّ الخضراءُ من ذي لهجةٍ أصدَقَ ولا أوفىٰ من أبي ذَرٍّ شبيهِ عيسىٰ ابنِ مريمَ»(٣).

ومن شمائله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: اللين والرحمة كما في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط. مكتبة المعارف، الرياض، (١/ ١١٥).

(٢) رواه ابن سعد في الطبقات وابن أبي شيبة في المصنف وأبو نعيم في معرفة الصحابة، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات، وله شواهد يتقوىٰ بها عند الترمذي وابن حبان والحاكم، وانظر الصحيحة للألباني رقم (٢٣٤٣).

إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[المائدة: ١١٦ - ١١٨].

فبالرغم من كفر النصارىٰ بعد رفعه وافترائهم عليه وعلىٰ والدته بل وعلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ فإنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجا لهم المغفرة، وهذا دليل علىٰ كمال حلمه ورحمته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد قد وصفه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به في قوله سبحانه مخاطبًا أمَّ المسيح مريمَ عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾[مريم: ٢١].

الباب الثاني

نسب المسيح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الفصل الأول

آلُ عمران

في كتاب الله سورةٌ طويلة من السبع الطِّوال سُمِّيت باسم هذه الأسرة المباركة، وقد أثنىٰ الله سبحانه علىٰ آل عمران تقدمةً بين يدي قصة المسيح صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٧﴾[آل عمران: ٣٣- ٣٤].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: المراد بعمران هذا هو والدُ مريمَ بنتِ عمران أمِّ عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ. اهـ(١).

والآل هم رهط الرجل وقَرابته ويدخل هو فيهم، قال الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُٱللَّهُ: والأهل والآل يراد به الأقارب والعشيرة والموالي وخاصةُ الإنسان وأتباعه، وقال رَحِمَهُٱللَّهُ: (ولكن الآل هنا متعيّن للحمل علىٰ رهط الرجل وقرابته، وقد اصطفىٰ الله آلَ عمران علىٰ عالَمي زمانهم، وقَرْنِهم فيس الاصطفاء بآدم ونوح وآل إبراهيم، وهو أمر يدل علىٰ مكانتهم وفضلهم، وقد ذكر الله لنا من ذلك

---

(١) البداية والنهاية، ط. دار التقوىٰ (٢/ ٦٨).

إكرامهم بالنبوة فمِن آل عمران عيسىٰ ويحيىٰ عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ، فعمران هو جدهما من جهة الأم، وبَيِّنٌ في الآيات التي ذكرناها آنفًا أن آلَ عمران أهلُ بيتٍ ذي صلاحٍ وتقوىٰ، فامرأة عمران امرأة صالحة نذرت ولدها لله، ليكون وقفًا علىٰ العبادة والخدمة في بيت المقدس، وهذا أمر لا يكون إلا ممن خالطت بشاشةُ الإيمان قَلْبَه.

قد يَنْذِرُ بعضُ الناس أولادَهم لحفظ القرآن وتعليمه لأنه لا يصلح لشيء من عمل الدنيا، كأن يكون ذا عاهة تمنعه من كثير من العمل، لكن أن ينذر ولدًا لم يره بعد فلا يكون إلا من مؤمن صادق الإيمان، لاسيما إن كان ممن لا ولدَ له، وقد قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد ذكر محمد ابن إسحاق وغيره أن أم مريم كانت لا تحبل فرأت يومًا طائرًا يزقّ فَرْخًا له فاشتهت الولد، فنذرت لله إن حملت لتجعلنَّ ولدها محرَّرًا أي حبيسًا في خدمة بيت المقدس، قالوا: فحاضت من فورها، فلما طهرت واقعها بعلُها فحملت بمريم عَلَيْهَاالسَّلَامُ، ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾[آل عمران: ٣٦]، وقرئت بضم التاء(١) ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾[آل عمران: ٣٦] أي في خدمة بيت المقدس، وكانوا في ذلك الزمان ينذِرون لبيت المقدس خُدَّامًا من أولادهم، وقولها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٣٦] استُدِلَّ به علىٰ تسمية المولود يومَ يولَد) اهـ(٢).

وقد اصطفىٰ الله عَزَّوَجَلَّ آل عمران علىٰ العالمين في زمانهم، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[آل عمران: ٣٣]، قال الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومعنىٰ اصطفاء هؤلاء علىٰ العالمين: اصطفاء

---

(١) أي: «والله أعلم بما وَضَعْتُ».

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٢٣١).

المجموع علىٰ غيرهم أو اصطفاء كل فاضل منهم علىٰ أهل زمانه اهـ(١)، وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومعنىٰ قول الله: ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ أي علىٰ عالَمِي زمانهم في قول أهل التفسير(٢)، وقال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والآل في هذه الآية يحتمل الوجهين: فإذا قلنا: أراد بالآل القرابة والبيت(٣)، فالتقدير: إن الله اصطفىٰ هؤلاء علىٰ عالَمِي زمانهم، أو علىٰ العالَمِين عامًّا بعد أن تقرر أن محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من آل إبراهيم، وإن قلنا: أراد بالآلِ الأتباعَ فيستقيم دخولُ أمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الآل لأنهم علىٰ ملة إبراهيم(٤).

وقال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال ابن عباس: وآل عمران: المؤمنون من آلِ إبراهيم وآلِ عمران وآلِ ياسين وآلِ محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٥).

وفي كتاب الله عمرانان كلاهما رجل صالح ومن ذريته أنبياء:

أحدهما: عمران والد موسىٰ وهارون عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، ففي «صحيح مسلم» من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «مررت ليلةَ أسري بي علىٰ موسىٰ بن عمران عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ....» وفي «مستدرك الحاكم»: «موسىٰ بن عمران صَفِيُّ الله».

وعمران هذا هو عمران الأول لأنه الأقدم زمانًا، فقد كان في عهد فرعون لعنه الله، وكان عمران يعيش في مصر، وامرأته امرأة صالحة وهي أم نبيّين كريمين، وعمران والدهما.

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢٣١).

(٢) تفسير القرطبي (٢/ ١٣٠٥).

(٣) هكذا في النسخ الخطية، فلينظر، وربما يكون المراد بالبيتية هنا: الشرف، فقد يقال: فلان بيت قومه أي شريفهم، وبيت العرب شرفها (من الأصل).

(٤) صحيح البخاري -كتاب أحاديث الأنبياء- باب قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦]، وانظر: فتح الباري (١/ ٥٤٠).

(٥) المحرر الوجيز (٢/ ٣٨٨، ٣٨٩).

وأما عمران الثاني: فهو جَدّ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لأمه مريم ابنة عمران، وامرأةُ عمران امرأة صالحة نذرت ولدها لبيت الله محررًا من كل أمور الدنيا، وأوقفته لله، وعمراننا هذا كان بعد الأول بزمنٍ مديد، وكان يعيش في بيت المقدس، بينما كان عمران والد موسىٰ في مصر.

وآل عمران هذا نعرف منهم امرأته ومريم ابنته والمسيح ابن ابنته، ويحيىٰ بن زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ النبيّ ابن النبيّ، علىٰ القول بأن أمه أخت مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، وهو أحد القولين كما سيأتي، ومنهم ابنه هارون علىٰ أظهر الأقوال في تأويل قول الله: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨] فقيل: هو أخوها علىٰ ظاهر اللفظ، وقيل: نسبوها لهارون النبي شقيق موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لاشتهارها بالعبادة والعفة كما يقال للمسلمة العفيفة: يا أخت عائشة، والقول الأول أظهر كما روىٰ مسلم في «صحيحه» عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما قدمت نجران سألوني، فقالوا: إنكم تقرءون: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨] وموسىٰ قبل عيسىٰ بكذا وكذا، فلما قدمت علىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسألته عن ذلك فقال: «إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»، فالتشابه بين أسماء عمران وهارون سببه أنهم كانوا يسمون أولادهم بأسماء الأنبياء والصالحين رجاءَ صلاحهم وتذكيرًا بالأنبياء والصالحين، كما يكون في المسلمين ألوف ممن اسمهم محمد بن عبد الله والحسن بن عليّ وعمر وأبو بكر ونحو ذلك.

يا أخت هارون:

قال الإمام الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: (﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨]، قَدْ وقَعَ الخِلافُ في مَعْنىٰ هَذِهِ الأُخُوَّةِ، وفي هارُونَ المَذْكُورِ مَن هو؟ فَقِيلَ: هو هارُونُ أخُو مُوسىٰ، والمَعْنىٰ: أنَّ مَن كانَتْ نَظُنُّها مِثْلَ هارُونَ في العِبادَةِ كَيْفَ تَأْتِي بِمِثْلِ هَذا؟ وقِيلَ:

كانَتْ مَرْيَمُ مِن ولَدِ هارُونَ أخِي مُوسىٰ، فَقِيلَ لَها: يا أُخْتَ هارُونَ، كَما يُقالُ لِمَن كانَ مِنَ العَرَبِ: يا أخا العَرَبِ، وقِيلَ: كانَ لَها أخٌ مِن أبِيها اسْمُهُ هارُونَ، وقِيلَ: هارُونُ هَذا رَجُلٌ صالِحٌ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ، وقِيلَ: بَلْ كانَ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ رَجُلٌ فاجِرٌ اسْمُهُ هارُونُ، فَنَسَبُوها إلَيْهِ عَلىٰ جِهَةِ التَّعْيِيرِ والتَّوْبِيخِ، حَكاهُ ابْنُ جَرِيرٍ ولَمْ يُسَمِّ قائِلَهُ وهو ضَعِيفٌ ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: ٢٨] هَذا فِيهِ تَكْرِيرٌ لِما تَقَدَّمَ مِنَ التَّعْيِيرِ والتَّوْبِيخِ، وتَنْبِيهٌ عَلىٰ أنْ الفاحِشَةَ مِن ذُرِّيَّةِ الصّالِحِينَ مِمّا لا يَنْبَغِي أنْ تَكُونَ)(١).

وقال الإمامُ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَأَغْرَبُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ مَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الحُسَيْنِ الهِسِنْجَانِي، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي مَرْيَمَ، حَدَّثَنَا المُفَضَّلُ بْنُ فَضَالَة، حَدَّثَنَا أَبُو صَخْرٍ، عَنِ القُرَظِي فِي قَوْلِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨] قَالَ: هِيَ أُخْتُ هَارُونَ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ، وَهِيَ أُخْتُ مُوسَىٰ أَخِي هَارُونَ الَّتِي قَصَّت أَثَر مُوسَىٰ، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ [القصص: ١١]، وَهَذَا الْقَوْلُ خَطَأٌ مَحْضٌ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدْ ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ أَنَّهُ قَفَّىٰ بِعِيسَىٰ بَعْدَ الرُّسُلِ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ بَعْثًا وَلَيْسَ بَعْدَهُ إِلَّا مُحَمَّدٌ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» عِنْدَ البُخَارِيِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «أَنَا أَوْلَىٰ النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ؛ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ».

وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ القُرَظِيُّ، لَمْ يَكُنْ مُتَأَخِّرًا عَنِ الرُّسُلِ سوىٰ محمد، ولَكان قبلَ سليمان وداود؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ ذَكَرَ أَنَّ دَاوُدَ بَعْدَ مُوسَىٰ عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ فِي قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ

(١) فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، ط. دار ابن كثير- دمشق، دار الكلم الطيب - بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٤، (٣/ ٣٩١).

أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] فَذَكَرَ القِصَّةَ إِلَىٰ أَنْ قَالَ: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١] الآيَةَ.

وَالَّذِي جَرَّأَ القُرَظِيَّ عَلَىٰ هَذِهِ المَقَالَةِ مَا فِي التَّوْرَاةِ بَعْدَ خُرُوجِ مُوسَىٰ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ البَحْرِ، وَإِغْرَاقِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، قَالَ: وَكَانَتْ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ أُخْتُ مُوسَىٰ وَهَارُونَ النَّبِيَّيْنِ، تَضْرِبُ بِالدُّفِّ هِيَ وَالنِّسَاءُ مَعَهَا يُسَبِّحْنَ اللهَ وَيَشْكُرْنَهُ عَلَىٰ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَاعْتَقَدَ القُرَظِيُّ أَنَّ هَذِهِ هِيَ أُمُّ عِيسَىٰ، وَهِيَ هَفْوَةٌ وَغَلْطَةٌ شَدِيدَةٌ، بَلْ هِيَ بَاسِمِ هَذِهِ، وَقَدْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَسْمَاءِ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ، كَمَا قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ إِدْرِيسَ، سَمِعْتُ أَبِي يَذْكُرُهُ عَنْ سِمَاكٍ، عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ وَائِلٍ، عَنِ المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إِلَىٰ نَجْرَانَ، فَقَالُوا: أَرَأَيْتَ مَا تَقْرَءُونَ: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨]، وَمُوسَىٰ قَبْلَ عِيسَىٰ بِكَذَا وَكَذَا؟ قَالَ: فَرَجَعْتُ فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَقَالَ: «أَلَا أَخْبَرْتَهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَسَمَّون بِالأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ؟»، انْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ إِدْرِيسَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سَمَّاكٍ، بِهِ، وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ، لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ إِدْرِيسَ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ، حَدَّثَنَا ابْنُ عُلَيَّةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي صَدَقَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ قَالَ نُبِّئْتُ أَنَّ كَعْبًا قَالَ: إِنَّ قَوْلَهُ: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨] لَيْسَ بِهَارُونَ أَخِي مُوسَىٰ، قَالَ: فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: كَذَبْتَ، قَالَ يَا أُمَّ المُؤْمِنِينَ، إِنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَهُ، فَهُوَ أَعْلَمُ وَأَخْبَرُ، وَإِلَّا فَإِنِّي أَجِدُ بَيْنَهُمَا سِتَّمِائَةِ سَنَةٍ. قَالَ: فَسَكَتَتْ وَفِي هَذَا التَّارِيخِ نَظَرٌ، وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ أَيْضًا: حَدَّثَنَا بِشْرٌ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ، حَدَّثَنَا سَعِيدٌ، عَنْ قَتَادَةَ قَوْلُهُ: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: ٢٨] قَالَ: كَانَتْ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ يُعْرَفُونَ بِالصَّلَاحِ، وَلَا يُعْرَفُونَ بِالفَسَادِ،

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْرَفُونَ بِالصَّلَاحِ وَيَتَوَالَدُونَ بِهِ، وَآخَرُونَ يُعْرَفُونَ بِالفَسَادِ وَيَتَوَالَدُونَ بِهِ، وَكَانَ هَارُونُ مُصْلِحًا مُحَبَّبًا فِي عَشِيرَتِهِ، وَلَيْسَ بِهَارُونَ أَخِي مُوسَىٰ، وَلَكِنَّهُ هَارُونُ آخَرُ، قَالَ: وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ شَيَّعَ جِنَازَتَهُ يَوْمَ مَاتَ أَرْبَعُونَ أَلْفًا، كُلُّهُمْ يُسَمَّىٰ هَارُونَ، مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ)(١).

وعمران الثاني هذا جدّ المسيح لأمه هو عمران المقصود بقول الله: ﴿وَءَالَ عِمۡرَٰنَ﴾ [آل عمران: ٣٣] في سورة آل عمران لأن الله جعل ذكره تقدمةً بين يدي قصة ميلاد المسيح عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: المراد بعمران هذا هو والدُ مريم بنت عمران أم عيسىٰ ابن مريم عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ. اهـ.

فالمسيح عيسىٰ ابن مريم عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ من هذه الأسرة المباركة من آل عمران، وعمران هذا كان قد صاهر إلىٰ نفس البيت الذي صاهر إليه نبي الله زكريا عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، فزوجته هي أخت مريم عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ أو خالتها فهي أخت أمها امرأة عمران.

قال الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ: (وكان زكرياء بن برخيا أبو يحيىٰ بن زكرياء، وعمران بن ماثان أبو مريم متزوجين بأختين إحداهما عند زكرياء وهي أم يحيىٰ، والأخرىٰ منهما عند عمران بن ماثان وهي أم مريم، فمات عمران بن ماثان وأم مريم حامل بمريم، فلما ولدت مريم كَفَلها زكرياء بعد موت أمها لأن خالتها أخت أمها كانت عنده، واسم أم مريم حنة بنت فاقود بن قبيل)(٢).

وقال الإمام ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ بعد أن ذكر الاختلاف في نسب مريم عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ: (ولا خلاف أنها من سلالة داود عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، وكان أبوها عمران صاحبَ صلاة بني

---

(١) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية (١٤٢٠)، (٥/ ٢٢٧، ٢٢٨).

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ط. دار المعارف - مصر، الطبعة السادسة (١/ ٥٨٥).

إسرائيل في زمانه، وكانت أمها وهي حنة بنت فاقود بن قبيل من العابدات، وكان زكريا نبي الزمان زوجَ أخت مريم (أشياع) في قول الجمهور، وقيل: زوج خالتها أشياع، والله أعلم)(١).

فعلىٰ القول بأن مريم هي أخت زوجة زكريا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، فيكون عيسىٰ ويحيىٰ عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ من ذرية عمران، والقول بأنها أختها هو قول الجمهور مستدلين بظاهر قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في حديث المعراج: «فلما خَلَصتُ إذا يحيىٰ وعيسىٰ - وهما ابنا الخالة- قال: هذا يحيىٰ وعيسىٰ فسلِّم عليهما فسلمت»(٢)، وعلىٰ القول الثاني بأنهما ابنا خالة لأن خالة الأم بمنزلة الخالة.

فعيسىٰ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من هذه الأسرة الفاضلة التي سمىٰ الله بها إحدىٰ أطول سورتين في كتابه العزيز، ولكن نسبه إلىٰ هذا البيت المبارك إنما هو عن طريق أمه، فإنه لا أبَ له، ولهذا فإنني سأفرد فصلًا كاملًا للحديث عن هذه الصدّيقة عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ.

❁ ❁ ❁

---

(١) البداية والنهاية، ط. دار التقوىٰ (٢/ ٦٨).

(٢) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

الفصل الثاني

مريم الصديقة عَلَيْهَاالسَّلَامُ

اسمها: لا خلاف في أن والدة المسيح عَلَيْهِالسَّلَامُ هي مريم بنت عمران عَلَيْهَاالسَّلَامُ، ولكن اختلفت الأقوال في أصل هذا الاسم ومعناه، فقيل: عبراني، وقيل: آرامي، وقيل: يوناني، وقيل: بل هو عربي قديم، والعرب كانت تسمي الجبل رَيْمًا، وقيل: إن معناه ذات السموّ والرِفعة، وقيل: العابدة، وقيل: المقيمة علىٰ الطاعة، وقيل غير ذلك مما يعوزه الدليل والمعرفة بهذه اللغات وأصل اللفظة فيها، وهو أمر -مع قلة جدواه- لا طاقة لي به.

والصواب -إن شاء الله- أن مريم اسم أعجمي ليس عربيًّا، لكنه مُعَرَّب دخل في كلام العرب من قديم، وهو عَلَمٌ علىٰ الصِّدِّيقة أمِّ المسيح عَلَيْهِالسَّلَامُ، قال الجواليقي في «المُعَرَّب»: مريم اسم أعجمي، وقال الفيومي في «المصباح المنير»: مريم اسم أعجمي، وقال الفيروز آبادي في «بصائر ذوي التمييز»: ومريم اسم أعجمي غير منصرف للعجمة والعلَمية والتأنيث، وقيل: معناه بالعبراني خادمة الله، وقيل: أَمة الله، وقيل: معناه المُحَرَّرة، وشَذَّ بعضهم فقال: عربي.

فائدة بديعة: قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ‌اللَّهُ: (لم يذكر الله عَزَّوَجَلَّ امرأة وسماها باسمها في كتابه إلا مريم ابنة عمران، فإنه ذكر اسمها في نحوٍ من ثلاثين موضعًا لحكمة ذكرها بعض الأشياخ، فإن الملوك والأشراف لا يذكرون حرائرهم في الملأ ولا يبتذلون أسماءهن، بل يَكْنون عن الزوجة بالعِرْس والأهل والعيال ونحو ذلك، فإذا ذكروا الإماء لم يَكْنوا عنهن ولم يصونوا أسماءهن عن الذكر والتصريح بها، فلما قالت النصارىٰ في مريم ما قالت وفي ابنها، صَرَّح باسمها ولم يَكْنِ عنها بالأُمُوَّة

والعبودية التي هي صفة لها، وأجرىٰ الكلام علىٰ عادة العرب في ذكر إمائها)، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (اعتقاد أن عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لا أب له واجب، فإذا تكرر ذكره منسوبًا للأم استشعرتْ القلوب ما يجب عليها اعتقاده من نفي الأب عنه، وتنزيه الأم الطاهرة عن مقالة اليهود لعنهم الله)(١).

قلت: فالله سبحانه صرح باسمها لفائدتين، أولهما نفي كونها (والدة الإله) و(أم النور) و(عروس الرب) و(أم الله) كما يزعم النصارىٰ لعنهم الله، وثانيتهما تقرير أن عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ابنها وحدها وليس له أب كما زعم اليهود لعنهم الله.

فضائلها وشمائلها:

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾[آل عمران: ٤٢].

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ أَيِ اخْتَارَكِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ، ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أَيْ مِنَ الْكُفْرِ، عَنْ مُجَاهِدٍ وَالْحَسَنِ. الزَّجَّاجُ: مِنْ سَائِرِ الْأَدْنَاسِ مِنَ الْحَيْضِ وَالنِّفَاسِ وَغَيْرِهِمَا، وَاصْطَفَاكِ لِوِلَادَةِ عِيسَىٰ ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ يَعْنِي عَالَمِي زَمَانِهَا، عَنِ الْحَسَنِ وَابْنِ جُرَيْجٍ وَغَيْرِهِمَا. وَقِيلَ: ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ أَجْمَعَ إِلَىٰ يَوْمِ الصُّورِ، وَهُوَ الصَّحِيحُ عَلَىٰ مَا نُبَيِّنُهُ، وَهُوَ قَوْلُ الزَّجَّاجِ وَغَيْرِهِ، وَكَرَّرَ الِاصْطِفَاءَ لِأَنَّ مَعْنَىٰ الْأَوَّلِ الِاصْطِفَاءُ لِعِبَادَتِهِ، وَمَعْنَىٰ الثَّانِي لِوِلَادَةِ عِيسَىٰ، وَرَوَىٰ مُسْلِمٌ(٢) عَنْ أَبِي مُوسَىٰ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كمل مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ غَيْرُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ وَآسِيَةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَىٰ النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَىٰ سَائِرِ الطَّعَامِ».

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ (١٤٢٧) ت عبد المحسن التركي (٧/ ٢٣٠-٢٣١).

(٢) ورواه البخاري أيضًا.

قَالَ عُلَمَاؤُنَا رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِمْ: الكَمَالُ هُوَ التَّنَاهِي وَالتَّمَامُ، وَيُقَالُ فِي مَاضِيهِ (كَمُلَ) بِفَتْحِ المِيمِ وَضَمِّهَا، وَيَكْمُلُ فِي مضارعة بالضم، وكمال كل شيء بِحَسْبِهِ، وَالكَمَالُ المُطْلَقُ إِنَّمَا هُوَ لِلَّهِ تَعَالَىٰ خاصَّةً، وَلَا شَكَ أَنَّ أَكْمَلَ نَوْعِ الْإِنْسَانِ الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ يَلِيهِمُ الأَوْلِيَاءُ مِنَ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ. وَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا فَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْكَمَالَ الْمَذْكُورَ فِي الْحَدِيثِ يَعْنِي بِهِ النُّبُوَّةَ فَيَلْزَمُ عَلَيْهِ أَنْ تَكُونَ مَرْيَمُ عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ وَآسِيَةُ نَبِيَّتَيْنِ، وَقَدْ قِيلَ بِذَلِكَ)، ورجح القرطبيّ نبوة مريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ، ثم قال رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَرُوِيَ مِنْ طُرُقٍ صَحِيحَةٍ أَنَّهُ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قَالَ فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ أَبُو هُرَيْرَةَ: «خَيْرُ نِسَاءِ العَالَمِينَ أَرْبَعٌ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ». وَمِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ»، وَفِي طَرِيقٍ آخَرَ عَنْهُ: «سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ بَعْدَ مَرْيَمَ فَاطِمَةُ وَخَدِيجَةُ».

فَظَاهِرُ القُرْآنِ وَالأَحَادِيثِ يَقْتَضِي أَنَّ مَرْيَمَ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ نِسَاءِ العَالَمِ مِنْ حَوَّاءَ إِلَىٰ آخِرِ امْرَأَةٍ تَقُومُ عَلَيْهَا السَّاعَةُ، فَإِنَّ المَلَائِكَةَ قَدْ بَلَّغَتْهَا الوَحْيَ عَنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِالتَّكْلِيفِ وَالإِخْبَارِ وَالبِشَارَةِ كَمَا بَلَّغَتْ سَائِرَ الأَنْبِيَاءِ، فَهِيَ إِذًا نَبِيَّةٌ، وَالنَّبِيُّ أَفْضَلُ مِنَ الوَلِيِّ، فَهِيَ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ النِّسَاءِ: الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ مُطْلَقًا. ثُمَّ بَعْدَهَا فِي الفَضِيلَةِ فَاطِمَةُ ثُمَّ خَدِيجَةُ ثُمَّ آسِيَةُ.

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ مُوسَىٰ بْنُ عُقْبَةَ عَنْ كُرَيْبٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «سَيِّدَةُ نِسَاءِ العَالَمِينَ مَرْيَمُ ثُمَّ فَاطِمَةُ ثُمَّ خَدِيجَةُ ثُمَّ آسِيَةُ» وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ يَرْفَعُ الإِشْكَالَ.

وَقَدْ خَصَّ اللهُ مَرْيَمَ بِمَا لَمْ يُؤْتِهِ أَحَدًا مِنَ النِّسَاءِ، وَذَلِكَ أَنَّ روح القُدُسِ كَلَّمَهَا وَظَهَرَ لَهَا وَنَفَخَ فِي دِرْعِهَا(١) وَدَنَا مِنْهَا لِلنَّفْخَةِ، فَلَيْسَ هَذَا لِأَحَدٍ مِنَ النساء، وصدقت بكلمات ربها، ولم تسأل آية عند ما بُشِّرَتْ كَمَا سَأَلَ زَكَرِيَّا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِنَ الآيَةِ، وَلِذَلِكَ سَمَّاهَا اللهُ فِي تنزيله صِدِّيقة فقال: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]، وَقَالَ: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢]، فَشَهِدَ لَهَا بِالصِّدِّيقِيَّةِ وَشَهِدَ لَهَا بِالتَّصْدِيقِ لِكَلِمَاتِ البُشْرَىٰ وَشَهِدَ لَهَا بِالقُنُوتِ، وَإِنَّمَا بُشِّرَ زَكَرِيَّا بِغُلَامٍ فَلَحَظَ إِلَىٰ كِبَرِ سِنِّهِ وَعَقَامَةِ رَحِمِ امْرَأَتِهِ فَقَالَ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ [مريم: ٨]، فَسَأَلَ آيَةً(٢)، وَبُشِّرَتْ مَرْيَمُ بِالغُلَامِ فَلَحَظَتْ أَنَّهَا بِكْرٌ وَلَمْ يَمْسَسْهَا بَشَرٌ فَقِيلَ لَهَا: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ [مريم: ٢١]، فَاقْتَصَرَتْ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَلَمْ تَسْأَلْ آيَةً مِمَّنْ يَعْلَمُ كُنْهَ هَذَا الأَمْرِ، وَمَنْ لِامْرَأَةٍ فِي جَمِيعِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ مِنْ بَنَاتِ آدَمَ مَا لَهَا مِنْ هَذِهِ المَنَاقِبِ!...

وَمَنْ قَالَ لَمْ تَكُنْ نَبِيَّةً قَالَ: إِنَّ رُؤْيَتَهَا لِلْمَلَكِ كَمَا رُئِيَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ فِي صِفَةِ دَحْيَةَ الكَلْبِيِّ(٣) حِينَ سُؤَالِهِ عَنِ الإِسْلَامِ وَالإِيمَانِ، وَلَمْ تَكُنِ الصَّحَابَةُ بِذَلِكَ أَنْبِيَاءَ، والأول أظهر وعليه الأكثر. والله أعلم)(٤).

---

(١) الدِّرْع: قميصُ المرأة.

(٢) إنما سأل زكريا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ آية ليعرف بها ميعاد هذه البشرىٰ وليطمئن قلبه، ولم يسألها استبعادًا لقدرة الله، قال البغوي: أي علامة أعلم بها وقت حمل امرأتي فأزيد في العبادة شكرًا لك.

(٣) كان جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ يأتي الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في صورة دحية الكلبي أحيانًا كما في «المسند» و«الصحيحين»، وأما عند سؤاله عن الإسلام والإيمان فلم يكن في صورة دحية بل في صورة أعرابي لم يعرفه الصحابة.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ (١٤٢٧) ت عبد المحسن التركي (٤/ ٨٢-٨٤)، وقوله: (وعليه الأكثر) فيه نظر، بل حُكي الإجماع علىٰ خلافه، ولعله قصد مَن بالأندلس حين شاعت المسألة كما سيأتي بيانه، إن شاء الله.

فمريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ قد اصطفاها الله عَزَّوَجَلَّ وطهرها، ووصفها بالصِّدِّيقة، والصِّدِّيقيّةُ درجة عالية تلي درجة النبوة، كما في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾﴾[النساء: ٦٩]، وقال تعالىٰ: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾[المائدة: ٧٥].

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُٱللَّهُ: وَالصِّدِّيقُ فِعِّيلٌ، الْمُبَالِغُ فِي الصِّدْقِ أَوْ فِي التَّصْدِيقِ، وَالصِّدِّيقُ هُوَ الَّذِي يُحَقِّقُ بِفِعْلِهِ مَا يَقُولُ بِلِسَانِهِ. وَقِيلَ: هُمْ فُضَلَاءُ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يَسْبِقُونَهُمْ إِلَىٰ التَّصْدِيقِ كَأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ(١).

وقال رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَالصِّدِّيقُ: الْمُلَازِمُ لِلصِّدْقِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَىٰ الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّىٰ الصِّدْقَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيقًا»(٢)، وقال رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَإِنَّمَا قِيلَ لَهَا: صِدِّيقَةٌ لِكَثْرَةِ تَصْدِيقِهَا بِآيَاتِ رَبِّهَا وَتَصْدِيقِهَا وَلَدَهَا فِيمَا أَخْبَرَهَا بِهِ، عَنِ الْحَسَنِ وَغَيْرِهِ. وَاللهُ أَعْلَمُ)(٣).

قلت: وهذه الصفة الشريفة والخَلَّةُ المَنيفة قد وصف الله بها أنبياءه فقال سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾[مريم: ٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾﴾[مريم: ٥٦].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، (٥/ ٢٧٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، (٢/ ٢٤٤)، والحديث متفق عليه.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ٢٥١).

وكفىٰ بهذا شرفًا لهذه الصّدِّيقة عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ، ومن بديع نظم القرآن، أن الله لم يصف نبيًّا بالصدّيقية إلا في سورة مريم، وأما وصف الصدّيق يوسف عَلَيْهِٱلسَّلَامُ بالصدّيق فجاء في كلام صاحب السجن له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ [يوسف: ٤٦]، وهو حقٌّ ذكره الله وأقرّه، وهو فوق ذلك صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لكنْ المقصد أن وصف الله سبحانه لهذين النبيين الكريمين بالصديقية جاء في سورتها، فكأن درجتها قريبة من درجة النبوة، والله أعلم.

وقد ضرب الله مريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ مع امرأة فرعون مثلًا للمؤمنات، ووصفها بالعفّة والتصديق بكلمات الله والقنوت له سبحانه، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢].

قال القرطبي رَحِمَهُٱللَّهُ: ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أَيْ عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَالَ الْمُفَسِّرُونَ: إِنَّهُ أَرَادَ بِالْفَرْجِ هُنَا الْجَيْبَ لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ وَجِبْرِيلُ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ إِنَّمَا نَفَخَ فِي جَيْبِهَا وَلَمْ يَنْفُخْ فِي فَرْجِهَا، وهي فِي قِرَاءَةِ أُبَيٍّ: (فَنَفَخْنَا فِي جَيْبِهَا مِنْ رُوحِنَا). وَكُلُّ خَرْقٍ فِي الثَّوْبِ يُسَمَّىٰ جَيْبًا(١)، وَمِنْهُ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق: ٦] وَيحْتَملُ أَنْ تَكُونَ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا وَنَفَخَ الرُّوحَ فِي جَيْبِهَا، وَمَعْنَىٰ فَنَفَخْنا أَرْسَلْنَا جِبْرِيلَ فَنَفَخَ فِي جَيْبِهَا مِنْ رُوحِنا أَيْ رُوحًا مِنْ أَرْوَاحِنَا وَهِيَ رُوحُ عِيسَىٰ،... ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢] أَيْ مِنَ

---

(١) لا معنىٰ لكلمة جيب هنا، وصواب العبارة: (وَكُلُّ خَرْقٍ فِي الثَّوْبِ يُسَمَّىٰ فرجًا)، وبه يتسق الكلام، وقد نقل العبارة بتمامها علىٰ الصواب: ابن عادل في تفسيره (اللباب في علوم الكتاب).

الْمُطِيعِينَ... وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ مِنَ الْقَانِتَاتِ، لِأَنَّهُ أَرَادَ وَكَانَتْ مِنَ الْقَوْمِ الْقَانِتِينَ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرْجِعَ هَذَا إِلَىٰ أَهْلِ بَيْتِهَا، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُطِيعِينَ لِلَّهِ(١).

ومما يدلّ علىٰ فضلها ومكانتها أن كفلها نبيّ كريم هو زكريا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، كما قال الله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧]، قال الشيخ الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُٱللَّهُ: (﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧]، عُدَّ هَذَا فِي فَضَائِلِ مَرْيَمَ، لِأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ مَا يَزِيدُ فَضْلَهَا لِأَنَّ أَبَا التَّرْبِيَةِ يُكْسِبُ خُلُقَهُ وَصَلَاحَهُ مُرَبَّاهُ(٢)، ويأتي-إن شاء الله- مزيدُ بيان حول كفالتها.

وأما الأحاديث في فضلها عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ، فكثيرةٌ وقد مضت جملةٌ منها في تفسير الآيات، فمنها:

- عن عليّ بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد» متفق عليه، قال أبو كريب: وأشار وكيعٌ إلىٰ السماء والأرض، قال النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: (أراد وكيع بهذه الإشارة تفسيرَ الضمير في (نسائها) وأن المراد به جميع نساء الأرض أي كل مَن بين السماء والأرض من النساء، والأظهر في معناه أن كل واحدة منهما خير نساء الأرض في عصرها)(٣).

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، (١٨/ ٢٠٣، ٢٠٤).

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ط. الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤، (٣/ ٢٣٥).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ط. مؤسسة قرطبة (١٥/ ٢٨٤).

- عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سيدات نساء أهل الجنة بعد مريم بنت عمران: فاطمة وخديجة وآسية امرأة فرعون»(١)، وفي لفظ آخر عن ابن عباس أيضًا: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مُزَاحم امرأة فرعون»(٢)، ولفظ أحمد: خطَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأرض أربعةَ خطوط، قال: تدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة...» الحديث، وعزاه بهذا اللفظ الهيثميُّ إلىٰ أحمد وأبي يعلىٰ والطبراني وقال: ورجالهم رجال الصحيح، وعزاه الحافظ ابن حجر إلىٰ النسائي وصححه، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: وعند النسائي بإسناد صحيح عن ابن عباس: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة وفاطمة ومريم وآسية»، وعند الترمذي بإسناد صحيح عن أنس: «حَسْبُك من نساء العالمين...» فذكرهن(٣).

قلت: وظواهر هذه النصوص دالة علىٰ أن مريم أفضل النساء علىٰ الإطلاق، حتىٰ إن راويةَ الإسلام أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «نساء قريش خيرُ نساء ركبن الإبل أحناه علىٰ طفلٍ وأرعاه علىٰ زوج في ذات يده»(٤)، قال أبو هريرة علىٰ إثر ذلك: ولم تركب مريم بنت

---

(١) رواه الطبراني بإسناد صحيح علىٰ شرط مسلم. (سلسلة الأحاديث الصحيحة) للألباني رقم (١٤٢٤).

(٢) حديث صحيح بشواهده، رواه أحمد والحاكم والضياء والطبراني، (سلسلة الأحاديث الصحيحة) للألباني رقم (١٥٠٨).

(٣) فتح الباري، ابن حجر، ط. السلفية (٦/ ٤٧١).

(٤) رواه البخاري.

عمران بعيرًا قط، فكأنه يشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أفضلية مريم متقررة، ولا شأن لها بالمفاضلة بين بقية النساء، والله أعلم.

هل كانت مريم عَلَيْهَاالسَّلَامُ نبيَّة؟

بلغ من شأن مريم عَلَيْهَاالسَّلَامُ وفضلها أن اختلف أهل العلم في نبوَّتها وإن كان الجمهور علىٰ أن النبوة خاصة بالرجال، لقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: ٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾[يوسف: ١٠٩]، ولكنّ طائفةً من أهل العلم قالوا: إن هذا خاصّ بالرسالة، وأما النبوة ففي النساء نبيَّات، وقولُ الجمهور أصحّ إن شاء الله، ولا أرىٰ فائدة في دَرْس المسألة وتحقيق القول فيها، فإنها طويلة الذيول، ولكن ذكرتها اختصارًا للتدليل علىٰ عِظَم مكانة مريم عَلَيْهَاالسَّلَامُ عند المسلمين.

فعند شرح حديث: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون»، قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال القاضي: هذا الحديث يَستدل به مَن يقول بنبوة النساء ونبوة آسية ومريم، والجمهور علىٰ أنهما ليستا نبيتين بل هما صِدّيقتان ووليتان من أولياء الله تعالىٰ، ولفظة الكمال تطلق علىٰ تمام الشيء وتناهيه في بابه، والمراد هنا التناهي في جميع الفضائل وخصال البر والتقوىٰ(١).

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ: (قوله: «كَمُلَ» بضم الميم وبفتحها. قوله: «ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران» استُدِلَّ بهذا الحصر علىٰ أنهما نبيتان؛ لأن أكمل النوع الإنساني الأنبياء ثم الأولياء

(١) شرح مسلم. قرطبة (١٥/ ٢٨٥).

والصديقون والشهداء، فلو كانتا غير نبيتين لَلَزِم ألا يكون في النساء ولية ولا صديقة ولا شهيدة، والواقع أن هذه الصفات في كثير منهن موجودة فكأنه قال: ولم يُنَبَّأ من النساء إلا فلانة وفلانة، ولو قال: لم تثبت صفة الصديقية أو الولاية أو الشهادة إلا لفلانة وفلانة لم يصح لوجود ذلك في غيرهن، إلا أن يكون المراد في الحديث كمال غير الأنبياء فلا يَتِمُّ الدليل علىٰ ذلك لأجل ذلك والله أعلم(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقال الكرماني: لا يلزم من لفظ الكمال ثبوت نبوتها لأنه يطلق لتمام الشيء وتناهيه في بابه، فالمراد بلوغها النهايةَ في جميع الفضائل التي للنساء، قال: وقد نُقِل الإجماعُ علىٰ عدم نبوة النساء، كذا قال وقد نُقل عن الأشعري أن من النساء من نُبِّئ)(٢).

قلت: وممن انتصر للقول بنبوتها: الإمام القرطبي المفسر، وزعم أن القول بنبوتها هو قول الأكثر، وقد مضىٰ بعضُ كلامه، فقد قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والصحيح أن مريم نبية، لأن الله تعالىٰ أوحىٰ إليها بواسطة المَلَك كما أوحىٰ إلىٰ سائر النبيين)(٣)، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أن مريم أفضل من جميع نساء العالم من حواء إلىٰ آخر امرأة تقوم عليها الساعة، فإن الملائكة بَلَّغتها الوحي عن الله عَزَّوَجَلَّ بالتكليف والإخبار والبشارة كما بلغت سائر الأنبياء، فهي إذًا نبية، والنبي أفضل من الولي فهي أفضل من كل النساء الأولين والآخرين مطلقًا، ثم بعدها في الفضيلة فاطمة ثم خديجة ثم آسية، وكذلك رواه موسىٰ بن عُقبة بن

---

(١) فتح الباري، ط. السلفية (٦/ ٤٤٧).

(٢) السابق (٦/ ٤٧٠)، ونحوه (ص٤٧١). قلت: وهو قول ابن حزم والقرطبي.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ط. مؤسسة الرسالة تحقيق التركي الطبعة الأولىٰ (١٤٢٧)، (٥/ ١٢٧).

كريب عن ابن عباس قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «سيدة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية» وهذا حديث حسن يرفع الإشكال)(١).

وقال رَحِمَهُٱللَّهُ: (ومَن قال: لم تكن نبية قال: إن رؤيتها للملَك كما رؤي جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في صفة دِحية الكلبي حين سأله عن الإسلام والإيمان، ولم يكن الصحابة بذلك أنبياء، والأول أظهر وعليه الأكثر، والله أعلم)(٢).

وقال رَحِمَهُٱللَّهُ في تفسير سورة مريم: (واختلف الناس في نبوة مريم فقيل كانت نبية بهذا الإرسال والمحاورة للملك، وقيل: لم تكن نبية وإنما كلمها مثالُ بشر، ورؤيتها للملَك كما رؤي جبريل في صفة دحية حين سؤاله عن الإيمان والإسلام، والأول أظهر)(٣).

ومنهم: الإمام أبو محمد ابن حزم الأندلسي رَحِمَهُٱللَّهُ، فعندما ذكر الأقوال في المسألة عقَّبَ علىٰ ذلك بقوله: (قَالَ أَبُو مُحَمَّد مَا نعلم للمانعين من ذَلِك حجَّة أصلًا إِلَّا أَن بَعضهم نَازع فِي ذَلِك بقول الله تَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾[يوسف: ١٠٩]، قَالَ أَبُو مُحَمَّد: وَهَذَا أَمرٌ لَا ينازَعون فِيهِ وَلم يدّعِ أحدٌ أَن الله تَعَالَىٰ أرسل امْرَأَة، وَإِنَّمَا الكَلَام فِي النُّبُوَّة دون الرسَالَة، فَوَجَبَ طلب الحق فِي ذَلِك بِأَن يُنْظَرَ فِي معنىٰ لَفْظَة النُّبُوَّة فِي اللُّغَة الَّتِي خاطبنا الله بهَا عَزَّوَجَلَّ، فَوَجدنَا هَذِه

(١) الجامع لأحكام القرآن، ط. مؤسسة الرسالة تحقيق التركي الطبعة الأولىٰ (١٤٢٧)، (٤/ ٨٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ط. مؤسسة الرسالة تحقيق التركي الطبعة الأولىٰ (١٤٢٧)، (٤/ ٨٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ط. مؤسسة الرسالة تحقيق التركي الطبعة الأولىٰ (١٤٢٧)، (١١/ ٩٠).

اللَّفْظَة مَأْخُوذَة من الإنباء وَهُوَ الإِعْلَام، فَمن أعلمهُ الله عَزَّوَجَلَّ بِمَا يكون قبل أَن يكون أَوْ أُوحِي إِلَيْهِ منبئًا لَهُ بِأَمْر مَا فَهُوَ نَبِيّ بِلَا شكّ، وَلَيْسَ هَذَا من بَاب الإلهام الَّذِي هُوَ طبيعة كَقَوْل الله تَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾[النحل: ٦٨]...)(١) (ووجدناه تَعَالَىٰ قد أرسل جِبْرِيل إِلَىٰ مَرْيَم أم عِيسَىٰ عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ يخاطبها وَقَالَ لَهَا: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ١٩﴾[مريم: ١٩] فَهَذِهِ نبوة صَحِيحَة بِوَحْي صَحِيح ورسالة من الله تَعَالَىٰ إِلَيْهَا)(٢).

وأما قول الإمام القرطبي رَحِمَهُٱللَّهُ: إن القول بنبوتها هو قول الأكثر، فلعله عنىٰ -والله أعلم- الأكثر من علماء بلده، لأن المسألة كانت مشتهرة عندهم وكثر فيها التنازع، ولذلك قال بلديُّه الإمام أبو محمد ابن حزم الأندلسيّ رَحِمَهُٱللَّهُ: (قَالَ أَبُو مُحَمَّد: هَذَا فصلٌ لَا نعلمهُ حدث التَّنَازُع العَظِيم فِيهِ إِلَّا عندنَا بقرطبة وَفِي زَمَاننَا، فَإِن طَائِفَة ذهبت إِلَىٰ إبطَال كَون النُّبُوَّة فِي النِّسَاء جملَة وبدّعتْ مَن قَالَ ذَلِك، وَذهب طَائِفَة إِلَىٰ القَوْل بِأَنَّهُ قد كَانَت فِي النِّسَاء نبوة، وَذَهَبت طَائِفَة إِلَىٰ التَّوَقُّف فِي ذَلِك)(٣).

نسب مريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ:

تقدم الكلام عن آل عمران ذلك البيت المبارك الذي تنتمي إليه مريم بنت عمران عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ، ولا نعرف عن عمران إلا ما ورد عن آلِه في كتاب ربنا، ولأهمية

---

(١) الفِصَل في المِلَل والأهواءِ والنِحَل، أبو محمد علي ابن حزم الأندلسي القرطبي، ط. مكتبة الخانجي - القاهرة، (٥/ ١٢).

(٢) الفِصَل في المِلَل والأهواءِ والنِحَل، أبو محمد علي ابن حزم الأندلسي القرطبي، ط. مكتبة الخانجي - القاهرة، (٥/ ١٣).

(٣) الفِصَل في المِلَل والأهواءِ والنِحَل، (٥/ ١٢).

نسبها فقد كُتبت دراسات في ذلك، لأن نسبها هو نفسه نسب المسيح عيسىٰ ابن مريم بنت عمران، وقد اختلف علماء النصارىٰ في نسب مريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ، وأكثرهم يقول: إن نسبها ينتهي إلىٰ نبي الله داود عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وقليلٌ منهم اعترف بجهله بنسبها، وأما كتابهم فيدل علىٰ أنها تنتمي إلىٰ نبي الله هارون عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، لأنهم يقولون: إنها تتصل بصلة قرابة بزوجة زكريا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وهذا أمر صحيح عندنا؛ لأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصف عيسىٰ ابن مريم ويحيىٰ بن زكريا بأنهما (ابنا الخالة) كما في «الصحيحين».

وعندهم أن زوجة زكريا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ من نسل هارون عَلَيْهِٱلسَّلَامُ كما في إنجيل لوقا ١:٥ (كان في زمن هيردوس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيا وزوجته من نسل هارون واسمها أليصابات)، ووصفها في لوقا ١:٣٦ بأنها قريبة مريم كما في نسخة الكاثوليك ١٩٩٣، وفي النسخ الإنجليزية، ومما يدل علىٰ القرابة بينهما كفالة زكريا لها كما سيأتي إن شاء الله، ولعل في قولهم لها كما في كتاب ربنا: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ [مريم: ٢٨] إشارة إلىٰ ذلك، فلعله من أجدادها، وهذا أمر يعنينا فيه ما ثبت عندنا من قرابتها لزوجة زكريا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ (١).

قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَأَمَّا آلُ عِمْرَانَ: فَهُمْ مَرْيَمُ، وَعِيسَىٰ، فَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ بْنِ مَاتَانَ كَذَا سَمَّاهُ الْمُفَسِّرُونَ، وَكَانَ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ، وَصَالِحِيهِمْ، وَأَصْلُهُ بِالعِبْرَانِيَّةِ عِمْرَامُ بِمِيمٍ فِي آخِرِهِ فَهُوَ أَبُو مَرْيَمَ، قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: هُوَ مِنْ نَسْلِ

(١) انظر للمزيد حول نسبها عند النصارىٰ دراسة (المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ هاروني أم داودي؟) للعميد المهندس جمال الدين شرقاوي، (ص١٥-٣٩) ط. خاصة بالمؤلف. وانظر أيضًا المسيح الرّبي والمسيح الملكي للمؤلف نفسه (ص٨٩-١٠١).

سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ، وَهُوَ خَطَأٌ، وَالْحَقُّ أَنَّهُ مِنْ نَسْلِ هَارُونَ أَخِي مُوسَىٰ)(١)، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٣٦] الظَّاهِرُ أَنَّهَا أَرَادَتْ تَسْمِيَتَهَا بِاسْمِ أَفْضَلِ نَبِيئَةٍ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهِيَ مَرْيَمُ أُخْتُ مُوسَىٰ وَهَارُونَ، وَخَوَّلَهَا أَنَّ أَبَاهَا سَمِيُّ أَبِي مَرْيَمَ أُخْتِ مُوسَىٰ)(٢).

فمريم ابنة عمران عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ من نسل هارون عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لظواهر الأدلة عندنا وعندهم، وإنما حمل النصارىٰ علىٰ التعصب للقول بأنها من نسل داود هو بعض الإشارات التي أرادوا إسقاطها علىٰ المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، والمسألة عندنا لا قيمة لها، ويكفينا أن نعرف أنها من بيتٍ صالحٍ مبارك، والداها صالحان، وابنها من أولي العزم من الرسل، وجدها الأعلىٰ نبيّ كريم سواء أكان داود أمْ هارون عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ.

مولدها عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ:

ذكر الله عَزَّوَجَلَّ ولادة مريم ونذرها لخدمة بيت الله وتقبُّل الله سبحانه لهذا النذر وإنباته لها نباتًا حسنًا فقال تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٥- ٣٧].

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ط. الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤، (٣/ ٢٣١).

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ط. الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤، (٣/ ٢٣٤).

قال الإمام البغوي رَحِمَهُاللَّهُ: (قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ ﴾ وَهِيَ حَنَّةُ بِنْتُ فاقوذا(١) أُمُّ مَرْيَمَ، وَعِمْرَانُ هُوَ عِمْرَانُ بْنُ مَاثَانَ وَلَيْسَ بِعِمْرَانَ أَبِي مُوسَىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وَبَيْنَهُمَا أَلْفٌ وَثَمَانُونَ سَنَةً، وَكَانَ بنو ماثان رءوس بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَحْبَارَهُمْ وَمُلُوكَهُمْ، وَقِيلَ: عِمْرَانُ بْنُ أَشْهَم، قوله تعالىٰ: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ أَيْ جَعَلْتُ الَّذِي فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا نَذْرًا مِنِّي لَكَ ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ وَالنَّذْرُ: مَا يُوجِبُهُ الإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴿مُحَرَّرًا﴾ أَيْ عَتِيقًا خَالِصًا لِلَّهِ مُفْرَغًا لِعِبَادَةِ اللهِ وَلِخِدْمَةِ الكَنِيسَةِ لَا أَشْغَلُهُ بِشَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَكُلُّ مَا أُخْلِصَ فَهُوَ مُحَرَّرٌ يُقَالُ: حَرَّرْتُ العَبْدَ إِذَا أَعْتَقْتُهُ وَخَلَّصْتُهُ مِنَ الرِّقِّ.

قَالَ الكَلْبِيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَغَيْرُهُمَا: كَانَ المُحَرَّرُ إِذَا حُرِّرَ جُعِلَ فِي الكَنِيسَةِ يَقُومُ عَلَيْهَا وَيَكْنُسُهَا وَيَخْدِمُهَا وَلَا يَبْرَحُهَا حَتَّىٰ يَبْلُغَ الحُلُمَ، ثُمَّ يُخَيَّرُ إِنْ أَحَبَّ أَقَامَ وَإِنْ أَحَبَّ ذَهَبَ حَيْثُ شَاءَ وَإِنْ أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ بَعْدَ التَّخْيِيرِ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ وَالعُلَمَاءِ إِلَّا وَمِنْ نَسْلِهِ مُحَرَّرٌ لِبَيْتِ المَقْدِسِ، وَلَمْ يَكُنْ مُحَرَّرًا إِلَّا الغِلْمَانُ، وَلَا تَصْلُحُ لَهُ الجَارِيَةُ لِمَا يُصِيبُهَا مِنَ الحَيْضِ وَالأَذَىٰ، فَحَرَّرَتْ أَمُّ مَرْيَمَ مَا فِي بَطْنِهَا، وَكَانَتِ القِصَّةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ زَكَرِيَّا وَعِمْرَانَ تَزَوَّجَا أُخْتَيْنِ، وَكَانَتْ أَشْيَاعُ بِنْتُ فاقوذا أُمُّ يَحْيَىٰ عِنْدَ زَكَرِيَّا، وَكَانَتْ حَنَّةُ بِنْتُ فاقوذا أُمَّ مَرْيَمَ عِنْدَ عِمْرَانَ، وَكَانَ قَدْ أُمْسِكَ عَنْ حَنَّةَ الْوَلَدُ حَتَّىٰ أَسَنَّتْ وَكَانُوا أَهْلَ بَيْتٍ مِنَ اللهِ بِمَكَانٍ، فَبَيْنَمَا هِيَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ بَصُرَتْ بِطَائِرٍ يُطْعِمُ فَرْخًا فَتَحَرَّكَتْ بِذَلِكَ نَفْسُهَا لِلْوَلَدِ فَدَعَتِ اللهَ أَنْ يَهَبَ لَهَا وَلَدًا وَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَكَ عَلَيَّ إِنْ رَزَقْتَنِي وَلَدًا أَنْ

(١) ستلحظ اختلافًا بين العلماء في أسماء والد امرأة عمران وزوجة زكريا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وغيرهما، وهذا لأنها منقولة عن كتب أهل الكتاب، وكتبهم مترجمة من لغاتها الأصلية عبر لغات وسيطة، ثم عُرّبت الأسماء فقد يدخلها تصحيف أو تحريف أو خطأ في النطق.

أَتَصَدَّقَ بِهِ عَلَىٰ بَيْتِ المَقْدِسِ فَيَكُونُ مِنْ سَدَنَتِهِ وَخَدَمَتِهِ، فَحَمَلَتْ بِمَرْيَمَ فَحَرَّرَتْ مَا فِي بَطْنِهَا، وَلَمْ تَعْلَمْ مَا هُوَ، فَقَالَ لَهَا زَوْجُهَا: وَيْحَكِ مَا صَنَعْتِ، أَرَأَيْتِ إِنْ كَانَ مَا فِي بَطْنِكِ أُنْثَىٰ لَا تَصْلُحُ لِذَلِكَ؟ فَوَقَعَا جَمِيعًا فِي هَمٍّ مِنْ ذَلِكَ، فَهَلَكَ عِمْرَانُ وَحَنَّةُ حَامِلٌ بِمَرْيَمَ.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: ٣٦].

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ أَيْ وَلَدَتْهَا إِذَا هِيَ جَارِيَةٌ، وَالهَاءُ فِي قوله: ﴿وَضَعَتْهَا﴾ رَاجِعَةٌ إِلَىٰ النَّذِيرِ لَا إِلَىٰ مَا وُلِدَ لِذَلِكَ أُنِّثَ ﴿قَالَتْ﴾ حَنَّةُ وَكَانَتْ تَرْجُو أَنْ يَكُونَ غُلَامًا: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ اعْتِذَارًا إِلَىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ بِجَزْمِ التَّاءِ إِخْبَارًا عَنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَهِيَ قِرَاءَةُ العَامَّةِ، وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَأَبُو بَكْرٍ وَيَعْقُوبُ: (وَضَعْتُ) بِرَفْعِ التَّاءِ جَعَلُوهَا مِنْ كَلَامِ أُمِّ مَرْيَمَ ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ فِي خِدْمَةِ الْكَنِيسَةِ وَالعِبَادِ الَّذِينَ فِيهَا لِعَوْرَتِهَا وَضَعْفِهَا وَمَا يَعْتَرِيهَا مِنَ الحَيْضِ وَالنِّفَاسِ ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ وَمَرْيَمُ بِلُغَتِهِمُ العَابِدَةُ وَالخَادِمَةُ، وَكَانَتْ مَرْيَمُ أَجْمَلَ النِّسَاءِ فِي وَقْتِهَا وَأَفْضَلَهُنَّ ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا﴾ أَمْنَعُهَا وَأُجِيرُهَا ﴿بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾ أَوْلَادَهَا ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ فَالشَّيْطَانُ الطَّرِيدُ اللَّعِينُ، وَالرَّجِيمُ المَرْمِيُّ بِالشُّهُبِ.

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الوَاحِدِ المُلَيْحِيُّ، أَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ النُّعَيْمِيُّ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، أَنَا أَبُو اليَمَانِ، أَنَا شُعَيْبٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ، حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ المُسَيَّبِ، قَالَ: قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا مِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إِلَّا يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ الصَّبِيُّ صَارِخًا

مِنَ الشَّيْطَانِ غَيْرَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا» ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ (١).

أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَاحِدِ الْمُلَيْحِيُّ، أَنَا أَحْمَدُ ابْنُ عَبْدِ اللهِ النُّعَيْمِيُّ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، أَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَنَا شُعَيْبٌ، عَنْ أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الأَعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ يَطْعَنُ الشَّيْطَانُ فِي جَنْبِهِ بِأُصْبُعِهِ حِينَ يُولَدُ غَيْرَ عِيسَىٰ بن مَرْيَمَ ذَهَبَ يَطْعَنُ فَطَعَنَ فِي الحِجَابِ»(٢).

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾[آل عمران: ٣٧].

قَوْلُهُ: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أَيْ تَقَبَّلَ اللهُ مَرْيَمَ مِنْ حَنَّةَ مَكَانَ الْمُحَرَّرِ، وَتَقَبَّلَ بِمَعْنَىٰ قَبِلَ وَرَضِيَ، وَالقَبُولُ مَصْدَرُ قَبِلَ يَقْبَلُ قَبُولًا مِثْلَ الوَلُوعِ وَالوَزُوعَ، وَلَمْ يَأْتِ غَيْرُ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ. وَقِيلَ: مَعْنَىٰ التَّقَبُّلِ التَّكَفُّلُ فِي التَّرْبِيَةِ وَالقِيَامِ بِشَأْنِهَا ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ مَعْنَاهُ: وَأَنْبَتَهَا فَنَبَتَتْ نَبَاتًا حَسَنًا وَقِيلَ هَذَا مَصْدَرٌ عَلَىٰ غَيْرِ اللَّفْظِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، وَمِثْلُهُ شَائِعٌ كَقَوْلِكَ: تَكَلَّمْتُ كَلَامًا.

وَقَالَ جُوَيْبِرٌ عَنِ الضَّحَّاكِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أَيْ سَلَكَ بِهَا طَرِيقَ السُّعَدَاءِ ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي سَوَّىٰ خَلْقَهَا مِنْ غَيْرِ

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» عن أبي هريرة، وقال الإمام ابن كثير في البداية والنهاية: وهذا علىٰ شرط الصحيحين ولم يخرجوه من هذا الوجه.

زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ، فَكَانَتْ تَنْبُتُ فِي اليَوْمِ مَا يَنْبُتُ المَوْلُودُ فِي العَامِ ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ قَالَ أَهْلُ الأَخْبَارِ: أَخَذَتْ حَنَّةُ مَرْيَمَ حِينَ وَلَدَتْهَا فَلَفَّتْهَا فِي خِرْقَةٍ وَحَمَلَتْهَا إِلَىٰ المَسْجِدِ فَوَضَعَتْهَا عِنْدَ الأحبار، أبناء هارون، وَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَلُونَ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ مَا يَلِي الحَجَبَةُ مِنَ الكَعْبَةِ، فَقَالَتْ لَهُمْ: دُونَكُمْ هَذِهِ النَّذِيرَةَ، فَتَنَافَسَ فِيهَا الأَحْبَارُ لِأَنَّهَا كَانَتْ بِنْتَ إِمَامِهِمْ وَصَاحِبِ قُرْبَانِهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ زَكَرِيَّا: أَنَا أَحَقُّكُمْ بِهَا، عِنْدِي خَالَتُهَا، فَقَالَتْ لَهُ الأَحْبَارُ: لَا نَفْعَلُ ذَلِكَ، فَإِنَّهَا لَوْ تُرِكَتْ لِأَحَقِّ النَّاسِ لَهَا لَتُرِكَتْ لِأُمِّهَا الَّتِي وَلَدَتْهَا، لَكِنَّا نَقْتَرِعُ عَلَيْهَا فَتَكُونُ عِنْدَ مَنْ خَرَجَ سَهْمُهُ، فَانْطَلَقُوا وَكَانُوا تِسْعَةً وَعِشْرِينَ رَجُلًا إِلَىٰ نَهْرٍ جَارٍ، قَالَ السُّدِّيُّ: هُوَ نَهْرُ الْأُرْدُنِّ. فَأَلْقَوْا أَقْلَامَهُمْ فِي المَاءِ عَلَىٰ أَنَّ مَنْ ثَبَتَ قَلَمُهُ فِي المَاءِ فَصَعِدَ فَهُوَ أَوْلَىٰ بِهَا، وَقِيلَ: كَانَ عَلَىٰ كُلِّ قَلَمٍ اسْمُ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَقِيلَ: كَانُوا يَكْتُبُونَ التَّوْرَاةَ، فَأَلْقَوْا أَقْلَامَهُمُ الَّتِي كَانَتْ بِأَيْدِيهِمْ فِي المَاءِ، فَارْتَزَّ قَلَمُ زَكَرِيَّا فَارْتَفَعَ فَوْقَ المَاءِ وَانْحَدَرَتْ أَقْلَامُهُمْ وَرَسَبَتْ فِي النَّهْرِ، قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَجَمَاعَةٌ.

وَقِيلَ: جَرَىٰ قَلَمُ زَكَرِيَّا مُصْعِدًا إِلَىٰ أَعْلَىٰ المَاءِ، وَجَرَتْ أَقْلَامُهُمْ بِجَرْيِ المَاءِ، وَقَالَ السُّدِّيُّ وَجَمَاعَةٌ: بَلْ ثَبَتَ قَلَمُ زَكَرِيَّا وَقَامَ فَوْقَ المَاءِ كَأَنَّهُ فِي طِينٍ، وَجَرَتْ أَقْلَامُهُمْ مَعَ جَرْيَةِ المَاءِ، فَذَهَبَ بِهَا المَاءُ فَسَهَمَهُمْ وَقَرَعَهُمْ زَكَرِيَّا، وَكَانَ زَكَرِيَّا رَأْسَ الأَحْبَارِ وَنَبِيَّهُمْ، فَذَلِكَ قوله تعالىٰ: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، قَرَأَ حَمْزَةُ وَالكِسَائِيُّ وَعَاصِمٌ بِتَشْدِيدِ الفَاءِ، فَيَكُونُ زَكَرِيَّا فِي مَحَلِّ النَّصْبِ، أَيْ ضَمِنَهَا اللهُ زَكَرِيَّا وَضَمَّهَا إِلَيْهِ بِالقُرْعَةِ، وَقَرَأَ الآخَرُونَ بِالتَّخْفِيفِ، فَيَكُونُ زَكَرِيَّا فِي مَحَلِّ الرَّفْعِ، أَيْ ضَمَّهَا زَكَرِيَّا إِلَىٰ نَفْسِهِ وَقَامَ بِأَمْرِهَا.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ وَأَرَادَ بِالمِحْرَابِ الغُرْفَةَ، وَالمِحْرَابُ أَشْرَفُ المَجَالِسِ وَمُقَدَّمُهَا، وَكَذَلِكَ هُوَ مِنَ المَسْجِدِ، وَيُقَالُ لِلْمَسْجِدِ أَيْضًا: مِحْرَابٌ، قَالَ

الْمُبَرِّدُ: لَا يَكُونُ الْمِحْرَابُ إِلَّا أَنْ يُرْتَقَىٰ إِلَيْهِ بِدَرَجَةٍ، وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: كَانَ زَكَرِيَّا إِذَا خَرَجَ يُغْلِقُ عَلَيْهَا سَبْعَةَ أَبْوَابٍ، فَإِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا غُرْفَتَهَا ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ أَيْ فَاكِهَةً فِي غَيْرِ حِينِهَا، فَاكِهَةَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ وَفَاكِهَةَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾...)(١).

وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥]، فإنّ معناه: إني جعلت لك يا رب نَذْرًا أنّ لك الذي في بطني محرّرًا لعبادتك، يعني بذلك: حبستُه علىٰ خدمتك وخدمة قُدْسك في الكنيسة، عتيقةً من خدمة كلّ شيء سواك، مفرّغةً لك خاصة)(٢).

وروىٰ بسنده عن سعيد بن جبير قال: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥]، قال: محرّرًا للعبادة، وعن عن قتادة قال: كانت امرأة عمران حَرّرت لله ما في بطنها، وكانوا إنما يحرّرُون الذكور، وكان المحرَّر إذا حُرِّر جعل في الكنيسة لا يبرَحها، يقوم عليها ويكنُسها.

وعن السُدّيّ قال: وذلك أن امرأة عمران حملت، فظنت أن ما في بطنها غلام، فوهبته لله محرّرًا لا يعمل في الدنيا، وعن الربيع قال: كانت امرأة عمران حرّرَت لله ما في بطنها. قال: وكانوا إنما يحرّرون الذكور، فكان المحرَّر إذا حُرِّر جعل في الكنيسة لا يبرحها، يقوم عليها ويكنسها.

---

(١) معالم التنزيل في تفسير القرآن، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: عثمان جمعة ضميرية وأخويه، ط. دار طيبة -الرياض، الطبعة الرابعة، ١٤١٧، (٢/ ٢٩-٣٢).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠، (٦/ ٣٢٩).

وعن الضحاك قال: قال: جعلت ولدها لله، وللذين يدرُسون الكِتاب ويتعلَّمونه(١).

قال أبو جعفر: (يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾، فلما وضعت حَنَّة النذيرةَ، ولذلك أنث. ولو كانت «الهاء» عائدة على (ما) التي في قوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥]، لكان الكلام: «فلما وضعته قالتْ رب إني وضعته أنثى»، ومعنى قوله: ﴿وَضَعَتْهَا﴾ ولدتُها. يقال منه: «وضعت المرأة تَضَع وضْعًا»)(٢).

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ملخِّصًا الأقوال في معنى تحريرها: (المُحَرَّرُ الَّذِي يُجْعَلُ حُرًّا خَالِصًا، يُقَالُ: حَرَّرْتُ العَبْدَ إِذَا خَلَّصْتَهُ عَنِ الرِّقِّ، وَحَرَّرْتُ الكِتَابَ إِذَا أَصْلَحْتَهُ، وَخَلَّصْتَهُ فَلَمْ تُبْقِ فِيهِ شَيْئًا مِنْ وُجُوهِ الغَلَطِ، وَرَجُلٌ حُرٌّ إِذَا كَانَ خَالِصًا لِنَفْسِهِ لَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ تَعَلُّقٌ، وَالطِّينُ الحُرُّ الخَالِصُ عَنِ الرَّمْلِ وَالحِجَارَةِ وَالحَمْأَةِ وَالعُيُوبِ، أَمَّا التَّفْسِيرُ فَقِيلَ: مُخْلَصًا لِلْعِبَادَةِ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، وَقِيلَ: خَادِمًا لِلْبِيعَةِ، وَقِيلَ: عَتِيقًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا لِطَاعَةِ اللهِ، وَقِيلَ: خَادِمًا لِمَنْ يُدَرِّسُ الكِتَابَ، وَيُعَلِّمُ فِي البِيَعِ، وَالمَعْنَى أَنَّهَا نَذَرَتْ أَنْ تَجْعَلَ ذَلِكَ الوَلَدَ وَقْفًا عَلَى طَاعَةِ اللهِ)(٣).

وقال الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وامرأة عمران هي حنة بنت فاقوذا، قيل: مات زوجها وتركها حبلى، فنذرت حَبَلها ذلك محررًا أي مُخَلَّصًا لخدمة بيت

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠، (٦/ ٣٣٢).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠، (٦/ ٣٣٣).

(٣) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، فخر الدين الرازي، ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠، (٨/ ٢٠٣).

المقدس، وكانوا ينذرون ذلك إذا كان المولود ذَكَرًا، وإطلاق المحرر علىٰ هذا المعنىٰ إطلاق تشريف؛ لأنه لما خَلُص لخدمة بيت المقدس فكأنه حُرّر من أسر الدنيا وقيودها إلىٰ حرية عبادة الله تعالىٰ، قيل: إنها كانت تظنه ذكرًا فصدر منها النذر مطلقًا من وصف الذكورة، وإنما كانوا يقولون: إذا جاء ذكرًا فهو محرر، وَأَنَّثَ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ وَهُوَ عَائِدٌ إِلَىٰ ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ بِاعْتِبَارِ كَوْنِهِ انْكَشَفَ مَا صَدَّقَهُ عَلَىٰ أُنْثَىٰ)(١).

نشأتها:

لقد بَيَّن الله تعالىٰ أن آل عمران ممن اصطفاهم واختارهم علىٰ العالمين، كما قال الله تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[آل عمران: ٣٣- ٣٤]، ومرّ الكلام عن آل عمران، هذه السلالة الطيبة التي اختارها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ من آل عمران، من عائلةٍ كريمةٍ في النسب والدين، عظيمةٍ في الخُلُق، ومما يدلّ علىٰ مكانة هذه الأسرة الكريمة وشهرتها بالعفة والطهارة، قول الناس لها: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾[مريم: ٢٨].

نشأت مريم ابنة عمران في هذه الأسرة نشأةً طاهرة، حيث نذرتها أمها للعبادة والخدمة في بيت المقدس، وكانت تحت رعاية نبي الله زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وكفالته، منقطعة للعبادة، وقد استدل الفخر الرازي بتسمية الأم لها علىٰ أن ذلك إشارة إلىٰ موت عمران والدها، وأن مريم وُلِدتْ يتيمة، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قَوْلُهَا: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾[آل عمران: ٣٦]... ظَاهِر هَذَا الكَلَامِ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ عِمْرَانَ كَانَ قَدْ مَاتَ فِي حَالِ

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ط. الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤، (٢/ ٢٣٢).

حَمْلِ حَنَّةَ بِمَرْيَمَ، فَلِذَلِكَ تَوَلَّتِ الْأُمُّ تَسْمِيَتَهَا، لِأَنَّ العَادَةَ أَنَّ ذَلِكَ يَتَوَلَّاهُ الآبَاءُ)(١).

وامرأة عمران تلك الأم الصالحة طلبت من الله أن يعيذَ مريم وذريتها من الشيطان الرجيم بعدما نذرتها، ووفت بعهدها مع الله وسلمت مريم إلىٰ علماء بني إسرائيل لتقوم بالانقطاع للعبادة في بيت الله، ولفضل مريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ وكرامتها وعلوّ قدرها عندهم تنافسوا في الفوز بكفالتها، وأراد الله أن يكفلها النبي الكريم زكريا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، ليربيها علىٰ عينه نبيٌّ كريم، يعلّمها ويؤدبها ويعتني بشأنها.

قال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: (يُخْبِرُ رَبُّنَا أَنَّهُ تَقَبَّلَهَا مِنْ أُمِّهَا نَذِيرَةً، وَأَنَّهُ أَنْبَتَها نَباتًا حَسَنًا، أَيْ جَعَلَهَا شَكْلًا مَلِيحًا وَمَنْظَرًا بَهِيجًا، وَيَسَّرَ لَهَا أَسْبَابَ القَبُولِ، وَقَرَنَهَا بالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ تَتَعَلَّمُ مِنْهُمُ العلم والخير والدين، فلهذا قَالَ وَكَفَلَها زَكَرِيَّا وَفِي قِرَاءَةٍ: وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا بِتَشْدِيدِ الفَاءِ، وَنَصْبِ زَكَرِيَّا عَلَىٰ المَفْعُولِيَّةِ، أَيْ جَعَلَهُ كَافِلًا لَهَا، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَمَا ذلك إِلَّا أَنَّهَا كَانَتْ يَتِيمَةً).

وهذا من آثار رحمة الله وإجابته لدعاء أمها، قال الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُٱللَّهُ: (﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴿٣٧﴾ ﴾[آل عمران: ٣٧]، تَفْرِيعٌ عَلَىٰ الدُّعَاءِ مُؤْذِنٌ بِسُرْعَةِ الإِجَابَةِ،... وَقَوْلُهُ: بِقَبُولٍ حَسَنٍ البَاءُ فِيهِ لِلتَّأْكِيدِ، وَأَصْلُ نَظْمِ الكَلَامِ: فَتَقَبَّلَهَا قَبُولًا حَسَنًا، فَأُدْخِلَتِ البَاءُ عَلَىٰ المَفْعُولِ المُطْلَقِ لِيَصِيرَ كَالآلَةِ لِلتَّقَبُّلِ فَكَأَنَّهُ شَيْءٌ ثَانٍ، وَهَذَا إِظْهَارٌ لِلْعِنَايَةِ بِهَا فِي هَذَا القَبُولِ، وَقَدْ عُرِفَ هَذَا القَبُولُ بِوَحْيٍ مِنَ اللهِ إِلَىٰ زَكَرِيَّاءَ بِذَلِكَ، وَأَمَرَهُ بِأَنْ يَكْفُلَهَا زَكَرِيَّاءُ أَعْظَمُ أَحْبَارِهِمْ، وَأَنْ يُوحَىٰ إِلَيْهِ بِإِقَامَتِهَا بَعْدَ ذَلِكَ لِخِدْمَةِ المَسْجِدِ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِلنِّسَاءِ قَبْلَهَا، وَكُلُّ هَذَا إِرْهَاصٌ

(١) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، فخر الدين الرازي، (٨/ ٢٠٤)، باختصار.

بِأَنَّهُ سَيَكُونُ مِنْهَا رَسُولٌ نَاسِخٌ لِأَحْكَامٍ كَثِيرَةٍ مِنَ التَّوْرَاةِ؛ لِأَنَّ خِدْمَةَ النِّسَاءِ لِلْمَسْجِدِ الْمُقَدَّسِ لَمْ تَكُنْ مَشْرُوعَةً، وَمَعْنَىٰ: وَأَنْبَتَها نَباتًا حَسَنًا: أَنْشَأَهَا إِنْشَاءً صَالِحًا، وَذَلِكَ فِي الخُلُقِ وَنَزَاهَةِ البَاطِنِ، فَشُبِّهَ إِنْشَاؤُهَا وَشَبَابُهَا بِإِنْبَاتِ النَّبَاتِ الغَضِّ عَلَىٰ طَرِيقِ الِاسْتِعَارَةِ، (وَنَبَاتٌ) مفعول مُطلق لِأنبتَ وَهُوَ مَصْدَرُ نَبَتَ وَإِنَّمَا أُجْرِيَ عَلَىٰ أَنْبَتَ لِلتَّخْفِيفِ)(١).

وكانت عَلَيْهَاالسَّلَامُ محفوظةً من كيد الشيطان منذ ولادتها، كما مرَّ في ذكر خصائص المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وفي فضائل أمه عَلَيْهَاالسَّلَامُ قولُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما من مولود يولد إلا نَخَسه الشيطان فيستهل صارخًا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه» ثم قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اقرءوا إن شئتم: «وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» (متفق عليه).

فمريم عَلَيْهَاالسَّلَامُ وابنها قد عصمهما الله من نخس الشيطان عند ولادتهما وجعل بينه وبينهما حجابًا كما في لفظٍ عند البخاري: «غير عيسىٰ ابن مريم ذهب يطعُن فطعن في الحجاب»، قال الحافظ: (قال القرطبي: هذا الطعن من الشيطان هو ابتداء التسليط فحفظ الله مريم وابنها منه ببركة دعوة أمها حيث قالت: إني ﴿أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾[آل عمران: ٣٦]، ولم يكن لمريم ذرية غير عيسىٰ).

وكفلها زكريا:

قال الله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾[آل عمران: ٤٤].

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ط. الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤، (٣/ ٢٥٣).

فزكريا عَلَيْهِالسَّلَامُ كفل مريم عَلَيْهَاالسَّلَامُ بعد أن اقترع مع غيره من عُبّاد بني إسرائيل وصالحيهم، وقد اختصموا كلهم يريد كفالتها، وهذا مما يدلّ على فضلها ومكانتها أن كفلها نبيّ كريم هو زكريا عَلَيْهِالسَّلَامُ، كما قال الله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، قال الشيخ الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُاللَّهُ: (﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، عُدَّ هَذَا فِي فَضَائِلِ مَرْيَمَ، لِأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ مَا يَزِيدُ فَضْلَهَا؛ لِأَنَّ أَبَا التَّرْبِيَةِ يُكْسِبُ خُلُقَهُ وَصَلَاحَهُ مُرَبَّاهُ(١).

قال ابن كثير رَحِمَهُاللَّهُ: (وَإِنَّمَا قَدَّرَ اللهُ كَوْنَ زَكَرِيَّا كَافِلَهَا لِسَعَادَتِهَا، لِتَقْتَبِسَ مِنْهُ عِلْمًا جَمًّا نَافِعًا وَعَمَلًا صَالِحًا)، وهذا من الأمور التي لم يكن يعلمها العرب والحوادث التي لا يعرفها أهل الكتاب، ولكنها وحي من عند الله لنبيه صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، كما قال الله: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾[آل عمران: ٤٤].

كراماتها:

قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾[آل عمران: ٣٧].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُاللَّهُ: (ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَىٰ عَنْ سِيَادَتِهَا وَجَلَالَتِهَا فِي مَحَلِّ عِبَادَتِهَا، فَقَالَ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧] قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَأَبُو الشَّعْثَاءِ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَعَطِيَّةُ العوفي والسدي: يَعْنِي وَجَدَ عِنْدَهَا فَاكِهَةَ الصَّيْفِ فِي

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ط. الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤، (٣/ ٢٣٥).

الشِّتَاءِ، وَفَاكِهَةَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، وَعَنْ مُجَاهِدٍ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقًا أَيْ عِلْمًا، أَوْ قَالَ: صُحُفًا فِيهَا عِلْمٌ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَالأَوَّلُ أَصَحُّ، وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ، وَفِي السُّنَّةِ لِهَذَا نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ، فَإِذَا رَأَى زَكَرِيَّا هَذَا عِنْدَهَا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا أَيْ يَقُولُ مِنْ أَيْنَ لَكِ هَذَا؟ قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ).

قلت: وظاهرٌ أن هذه الكرامة تكررت ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ [آل عمران: ٣٧] مما أطمعَ زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في طلب الولد بالرغم من كبر سنه وعقامة زوجته وكبر زوجها ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الذاريات: ٢٩] كما قال الله: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: ٣٨].

هذه أول كراماتها التي أخبرنا الله بها، ولما وضعت المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أكرمها الله بتيسير الطعام والشراب حيث اعتزلت الناس فلم يكن ثَمّ من يعينها، وهي نُفَساء ضعيفة، فأجرى تحتها نَهَرًا تشرب منه، وجعل الرُّطَبَ تتساقط عليها بهزّ الجِذْع، وهو أمرٌ لا يطيقه الجماعة من الرِجال الأقوياء، ولكنه أمرها بمجرد الأخذ بهذا السبب اليسير، وهو أن تهز الجذع بيدها وهي الضعيفة المريضة، ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ﴾ [مريم: ٢٤- ٢٦] ويأتي -إن شاء الله- مزيدُ بيان لهذا عند ذكر محنتها وولادة المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

محنة مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ:

قلما تخلو حياة نبي أوْ وليّ من محنة يمتحن الله بها عبده أو أَمته ليرفع درجته، وقد كانت محنة مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ محنةً قاسيةً شديدةً على قلب امرأةٍ عفيفة لا تعرف للفُحش والخَنا سبيلًا، وهي من بيت يشهد العارفون به أنه بيت العِفّة

والطهارة: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: ٢٨]، هذه العفيفةُ المُطَهَّرةُ سليلةُ العفةِ والطهارةِ، المنقطعةُ للعبادةِ ولخدمةِ بيت الله، والتي لم يمسها بشرٌ لا في حلال ولا حرام، فلم تتزوج ولم تفجر وحاشاها، تُفَاجَأ بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قضىٰ أمرًا لا رجعةَ فيه أن تحمل وليدًا من غير أب! ما أَشَدَّها من محنة لا يُتَصوَّر أن يتحملها بشر إلا بحول الله وقوته.

قال تعالىٰ: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٤٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ١٦].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أَي: اعْتَزَلَتْهُمْ وَتَنَحَّتْ عَنْهُمْ، وَذَهَبَتْ إِلَىٰ شَرْقِ المَسْجِدِ المُقَدَّسِ، قَالَ السُّدِّيُّ: لِحَيْضٍ أَصابَهَا. وَقِيلَ لِغَيْرِ ذَلِكَ... وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: ذَهَبَتْ بِقُلَّتِهَا تَسْتَقِي مِنَ المَاءِ...وَقَالَ نَوْف البِكَالي: اتَّخَذَتْ لَهَا مَنْزِلًا تَتَعَبَّدُ فِيهِ، فَاللهُ أَعْلَمُ...

وَقَوْلُهُ: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أَي: اسْتَتَرَتْ مِنْهُمْ وَتَوَارَتْ، فَأَرْسَلَ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهَا جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ أَيْ: عَلَىٰ صُورَةِ إِنْسَانٍ تَامٍّ كَامِلٍ... قَالَ مُجَاهِدٌ، وَالضَّحَّاكُ، وقَتَادَةُ، وَابْنُ جُرَيْج وَوَهْبُ بْنُ

مُنَبِّه، والسُّدِّي، فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يعني: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ... ﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ أَيْ: لَمَّا تَبَدىٰ لَهَا المَلَكُ فِي صُورَةِ بَشَرٍ، وَهِيَ فِي مَكَانٍ مُنْفَرِدٍ وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ قَوْمِهَا حِجَابٌ، خَافَتْهُ وَظَنَّتْ أَنَّهُ يُرِيدُهَا عَلَىٰ نَفْسِهَا، فَقَالَتْ: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ أَيْ: إِنْ كُنْتَ تَخَافُ اللهَ(١)، تَذْكِيرٌ لَهُ بِاللهِ، وَهَذَا هُوَ المَشْرُوعُ فِي الدَّفْعِ أَنْ يَكُونَ بِالأَسْهَلِ فَالأَسْهَلِ، فَخَوَّفَتْهُ أَوَّلًا بِاللهِ عَزَّوَجَلَّ...

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ، عَنْ عَاصِمٍ قَالَ: قَالَ أَبُو وَائِلٍ -وَذَكَرَ قِصَّةَ مَرْيَمَ- فَقَالَ: قَدْ عَلِمَتْ أَنَّ التَّقِيَّ ذُو نُهْيَة حِينَ قَالَتْ: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أَيْ: فَقَالَ لَهَا المَلَكُ مُجِيبًا لَهَا وَمُزِيلًا مَا حَصَلَ عِنْدَهَا مِنَ الخَوْفِ عَلَىٰ نَفْسِهَا: لَسْتُ مِمَّا تَظُنِّينَ، وَلَكِنِّي رَسُولُ رَبِّكِ، أَيْ: بَعَثَنِي إِلَيْكِ... وَقَالَ: (إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِيَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) هكَذَا قَرَأَ أَبُو عَمْرِو بْنُ العَلَاءِ أَحَدُ مَشْهُورِي القُرَّاءِ(٢)، وَقَرَأَ الآخَرُونَ: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ وَكِلَا القِرَاءَتَيْنِ لَهُ وَجْهٌ حَسَنٌ، وَمَعْنًىٰ صَحِيحٌ، وَكُلٌّ تَسْتَلْزِمُ الأُخْرَىٰ...

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾ أَيْ: فَتَعَجَّبَتْ مَرْيَمُ مِنْ هَذَا وَقَالَتْ: كَيْفَ يَكُونُ لِي غُلَامٌ؟ أَيْ: عَلَىٰ أَيِّ صِفَةٍ يُوجَدُ هَذَا الْغُلَامُ مِنِّي، وَلَسْتُ

---

(١) قال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ أرادت: إن كان يُرْجَىٰ منك أن تتقي الله، ويحصل ذلك بالاستعاذة به، فإني عائذة به منك، وهذا في نهاية الحُسْن لأنها علمت أنه لا تؤثر الاستعاذة إلا في التقي وهذا كقوله: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨] أي إن شرط الإيمان يوجب هذا لا أن الله تعالىٰ يُخشىٰ في حال دون حال. (مفاتيح الغيب (٢١/ ١٩٨) وأورد وجهًا آخر وهو (أن معناه ما كنت تقيًّا حيث استحللت النظر إليّ وخلوت بي) (مفاتيح الغيب) (٢١/ ١٩٩).

(٢) هذه قراءة أبي عمرو ابن العلاء وورش عن نافع ويعقوب، وقرأ الباقون: ﴿لِأَهَبَ﴾.

بِذَاتِ زَوْجٍ، وَلَا يُتَصَوَّرُ مِنِّي الْفُجُورُ... ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أَيْ: فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ مُجِيبًا لَهَا عَمَّا سَأَلَتْ: إِنَّ اللهَ قَدْ قَالَ: إِنَّهُ سَيُوجَدُ مِنْكِ غُلَامًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَكِ بَعْلٌ وَلَا تُوجَدُ مِنْكِ فَاحِشَةٌ، فَإِنَّهُ عَلَىٰ مَا يَشَاءُ قَادِرٌ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ أَيْ: دَلَالَةً وَعَلَامَةً لِلنَّاسِ عَلَىٰ قُدْرَةِ بَارِئِهِمْ وَخَالِقِهِمْ، الَّذِي نَوَّعَ فِي خَلْقِهِمْ، فَخَلَقَ أَبَاهُمْ آدَمَ مِنْ غَيْرِ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَىٰ، وَخَلَقَ حَوَّاءَ مِنْ ذَكَرٍ بِلَا أُنْثَىٰ، وَخَلَقَ بَقِيَّةَ الذُّرِّيَّةِ مَنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ، إِلَّا عِيسَىٰ فَإِنَّهُ أَوْجَدَهُ مِنْ أُنْثَىٰ بِلَا ذَكَرٍ، فَتَمَّتِ الْقِسْمَةُ الرُّبَاعِيَّةُ الدَّالَّةُ عَلَىٰ كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ فَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أَيْ وَنَجْعَلُ هَذَا الْغُلَامَ رَحْمَةً مِنَ اللهِ نَبِيًّا من الأنبياء يدعو إلىٰ عبادة اللهِ تَعَالَىٰ وَتَوْحِيدِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ فِي الآيَةِ الأُخْرَىٰ: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥- ٤٦] أَيْ: يَدْعُو إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ رَبِّهِ فِي مَهْدِهِ وَكُهُولَتِهِ... وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ٢١] يُحْتَمَلُ أَنَّ هَذَا مِنْ كَلَامِ جِبْرِيلَ لِمَرْيَمَ، يُخْبِرُهَا أَنَّ هَذَا أَمْرٌ مُقَدَّرٌ فِي عِلْمِ اللهِ تَعَالَىٰ وَقَدَرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ خَبَرِ اللهُ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّهُ كَنَّىٰ بِهَذَا عَنِ النَّفْخِ فِي فَرْجِهَا، كما قال تَعَالَىٰ: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، وَقَالَ: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ٢١] أَيْ: أَنَّ اللهَ قَدْ عَزَمَ عَلَىٰ هَذَا، فَلَيْسَ مِنْهُ بُدٌّ، وَاخْتَارَ هَذَا أَيْضًا ابْنُ جَرِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ»، وَلَمْ يَحْكِ غَيْرَهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ)(١).

---

(١) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠، (٥/ ٢١٩-٢٢٠).

مدةُ حملها بالمسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ:

قال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: (ثُمَّ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي مُدَّةِ حَمْلِ عِيسَىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، فَالمَشْهُورُ عَنِ الْجُمْهُورِ أَنَّهَا حَمَلَتْ بِهِ تِسْعَةَ أَشْهُرٍ، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: ثَمَانِيَةُ أَشْهُرٍ - قَالَ: وَلِهَذَا لَا يَعِيشُ وَلَدٌ لِثَمَانِيَةِ أَشْهُرٍ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: أَخْبَرَنِي الْمُغِيرَةُ بْنُ عُثْمَانَ ابْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيُّ، سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ وَسُئِلَ عَنْ حَبَلِ مَرْيَمَ، قَالَ: لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ حَمَلَتْ فَوَضَعَتْ، وَهَذَا غَرِيبٌ، وَكَأَنَّهُ أَخَذَهُ مِنْ ظَاهِرِ قوله تعالىٰ: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾[مريم: ٢٢- ٢٣] فَالفَاءُ وَإِنْ كَانَتْ لِلتَّعْقِيبِ، وَلَكِنَّ تَعْقِيبَ كُلِّ شَيْءٍ بِحَسْبِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾[المؤمنون: ١٢- ١٤]، فَهَذِهِ الْفَاءُ لِلتَّعْقِيبِ بِحَسْبِهَا، وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصحيحين»: أَنَّ بَيْنَ كُلِّ صِفَتَيْنِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾[الحج: ٦٣]، فَالمَشْهُورُ الظَّاهِرُ -وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ- أَنَّهَا حَمَلَتْ بِهِ كَمَا تَحْمِلُ النِّسَاءُ بِأَوْلَادِهِنَّ)(١).

وَضْعُها للمسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ:

لما حملت مريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ بالمسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وحانت وِلادتها له انتبذت به مكانًا قَصِيًّا بعيدًا عن الناس وقِيلِهم وقالِهم، تخلو بنفسها وربِّها تنتظر قضاءه وتدبيرَه، وتعرف ما تؤمَر به.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠، (٥/ ٢٢٢).

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم: ٢٢- ٢٣].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَلَمَّا اسْتَشْعَرَتْ مَرْيَمُ مِنْ قَوْمِهَا اتِّهَامَهَا بِالرِّيبَةِ، انْتَبَذَتْ مِنْهُمْ مَكَانًا قَصِيًّا، أَيْ: قَاصِيًا مِنْهُمْ بَعِيدًا عَنْهُمْ؛ لِئَلَّا تَرَاهُمْ وَلَا يَرَوْهَا)(١).

(وَقَوْلُهُ: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾، أَيْ: فَاضْطَرَّهَا وَأَلْجَأَهَا الطَّلْقُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ وَهِيَ نَخْلَةٌ فِي المَكَانِ الَّذِي تَنَحَّتْ إِلَيْهِ، وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِيهِ، فَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ شَرْقِيَّ مِحْرَابِهَا الَّذِي تُصَلِّي فِيهِ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ، وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّه: ذَهَبَتْ هَارِبَةً، فَلَمَّا كَانَتْ بَيْنَ الشَّامِ وَبِلَادِ مِصْرَ، ضَرَبَهَا الطَّلْقُ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ وَهْبٍ: كَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ، فِي قَرْيَةٍ هُنَاكَ يُقَالُ لَهَا: «بَيْتُ لَحْمٍ»، قُلْتُ: وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ الإِسْرَاءِ، مِنْ رِوَايَةِ النَّسَائِيِّ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وَالبَيْهَقِيِّ عَنْ شَدَّاد بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ ذَلِكَ بِبَيْتِ لَحْمٍ، فَاللهُ أَعْلَمُ، وَهَذَا هُوَ المَشْهُورُ الَّذِي تَلَقَّاهُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، وَلَا يَشُكُّ فِيهِ النَّصَارَىٰ أَنَّهُ بِبَيْتِ لَحْمٍ، وَقَدْ تَلَقَّاهُ النَّاسُ. وَقَدْ وَرَدَ بِهِ الحَدِيثُ إِنْ صَحَّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ إِخْبَارًا عَنْهَا: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَىٰ جَوَازِ تَمَنِّي الْمَوْتِ عِنْدَ الْفِتْنَةِ، فَإِنَّهَا عَرَفَتْ أَنَّهَا سَتُبْتَلَىٰ وَتُمْتَحَنُ بِهَذَا الْمَوْلُودِ الَّذِي لَا يَحْمِلُ النَّاسُ أَمْرَهَا فِيهِ عَلَىٰ السَّدَادِ، وَلَا يُصَدِّقُونَهَا فِي خَبَرِهَا، وَبَعْدَمَا كَانَتْ عِنْدَهُمْ عَابِدَةً نَاسِكَةً، تُصْبِحُ عِنْدَهُمْ فِيمَا يَظُنُّونَ عَاهِرَةً زَانِيَةً، فَقَالَتْ: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ أَي قَبْلَ هَذَا الْحَالِ، ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ أَي لَمْ أُخْلَقْ وَلَمْ أَكُ شَيْئًا، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: قَالَتْ وَهِيَ تَطْلُقُ مِنَ الحَبَلِ -اسْتِحْيَاءً

(١) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠، (٥/ ٢٢٢).

مِنَ النَّاسِ-: يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا الكَرْبِ الَّذِي أَنَا فِيهِ، وَالحُزْنِ بِوِلَادَتِي المَوْلُودَ مِنْ غَيْرِ بَعْلٍ ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ نُسِيَ فتُرِك طَلَبُهُ، كخِرَق الحَيْضِ إِذَا أُلْقِيَتْ وَطُرِحَتْ لَمْ تُطْلَبْ وَلَمْ تُذْكَرْ، وَكَذَلِكَ كُلُّ شَيْءٍ نُسِيَ وَتُرِكَ فَهُوَ نَسِيٌّ، وَقَالَ قَتَادَةُ: وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا» أَيْ: شَيْئًا لَا يُعْرَفُ، وَلَا يُذْكَرُ، وَلَا يُدْرَىٰ مَنْ أَنَا، وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ وَهُوَ السَّقْطُ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: لَمْ أَكُنْ شَيْئًا قَطُّ، وَقَدْ قَدَّمْنَا الأَحَادِيثَ الدَّالَّةَ عَلَىٰ النَّهْيِ عَنْ تَمَنِّي المَوْتِ إِلَّا عِنْدَ الفِتْنَةِ، عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾[يوسف: ١٠١])(١).

قلت: فانظر -عافاك الله- إلىٰ وقع هذه المصيبة عليها، وشدة كُربتها كيف أنساها ذلك بشارة الملائكة لها بعيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وأنه هبة من الله لها! أَوْ غلب الهَمّ عليها فجعلها تتمنىٰ أنْ لو كانت ماتت من قبل أوْ لم تُخلَق أصلًا، ولكن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ رَحِم ضعفها وخَفَّف عنها وقعَ المحنة.

فإن مع العسر يسرًا:

في الوقت الذي بلغت المحنة أَوْجَها، وبلغ الابتلاءُ غايتَه، وضاقت نفسُ البتولِ عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ حتىٰ تمنَّتْ الموتَ، تتابعت قطراتٌ من غيث اليسر، لتخفّف عنها وقْعَ المصيبةَ وليربط الله علىٰ قلبها، رحمةً من الرحيم ولُطفًا من اللطيف سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾[مريم: ٢٤- ٢٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠، (٥/ ٢٢٣).

(قَرَأَ بَعْضُهُمْ: (مَنْ تَحْتَهَا) بِمَعْنَىٰ الَّذِي تَحْتَهَا، وَقَرَأَ آخَرُونَ: (مِنْ تَحْتِهَا)، عَلَىٰ أَنَّهُ حَرْفُ جَرٍّ، وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي الْمُرَادِ بِذَلِكَ مَنْ هُوَ؟ فَقَالَ الْعَوْفِيُّ وَغَيْرُهُ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ جِبْرِيلُ، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ عِيسَىٰ حَتَّىٰ أَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا، وَكَذَا قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَعَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ، وَالسُّدِّيُّ، وقَتَادَةُ: إِنَّهُ الْمَلَكُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أَيْ: نَادَاهَا مِنْ أَسْفَلِ الْوَادِي.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ قَالَ: عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ، وَكَذَا قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ الْحَسَنُ: هُوَ ابْنُهَا. وَهُوَ إِحْدَىٰ الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: أَنَّهُ ابْنُهَا، قَالَ: أَوَلَمْ تَسْمَعِ اللهَ يَقُولُ: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾؟ وَاخْتَارَهُ ابْنُ زَيْدٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ».

وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ أَيْ: نَادَاهَا قَائِلًا: لَا تَحْزَنِي، ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَشُعْبَةُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ قَالَ: الْجَدْوَلُ. وَكَذَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: السَّرِيُّ: النَّهْرُ، وَبِهِ قَالَ عَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ: نَهْرٌ تَشْرَبُ مِنْهُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ النَّهْرُ بِالسُّرْيَانِيَّةِ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: السَّرِيُّ: النَّهْرُ الصَّغِيرُ بِالنَّبَطِيَّةِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: هُوَ النَّهْرُ الصَّغِيرُ بِالسُّرْيَانِيَّةِ، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِي: هُوَ النَّهْرُ الصَّغِيرُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ الْجَدْوَلُ بِلُغَةِ أَهْلِ الْحِجَازِ، وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: السَّرِيُّ: هُوَ رَبِيعُ الْمَاءِ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: هُوَ النَّهْرُ، وَاخْتَارَ هَذَا الْقَوْلَ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ، فَقَالَ الطَّبَرَانِيُّ: حَدَّثَنَا أَبُو شُعَيْبٍ الْحَرَّانِي: حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ عَبْدِ اللهِ الْبَابْلُتِّي حَدَّثَنَا أَيُّوبُ بْنُ نَهِيك، سَمِعْتُ عِكْرِمَةَ مَوْلَىٰ ابْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ السَّرِيَّ الَّذِي قَالَ اللهُ لِمَرْيَمَ: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ نَهْرٌ أَخْرَجَهُ اللهُ لِتَشْرَبَ

مِنْهُ» وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ جِدًّا مِنْ هَذَا الوَجْهِ. وَأَيُّوبُ بْنُ نَهِيكٍ هَذَا هُوَ الحُبُلِيُّ قَالَ فِيهِ أَبُو حَاتِمٍ الرَّازِيُّ: ضَعِيفٌ. وَقَالَ أَبُو زُرْعَةَ: مُنْكَرُ الحَدِيثِ. وَقَالَ أبو الفتح الأزدي: متروك الحديث.

وَقَالَ آخَرُونَ: المُرَادُ بِالسَّرِيِّ: عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبِهِ قَالَ الحَسَنُ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبَّاد بْنِ جَعْفَرٍ، وَهُوَ إِحْدَىٰ الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ قَتَادَةَ، وَقَوْلُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ ابْنِ أَسْلَمَ.

وَالقَوْلُ الأَوَّلُ أَظْهَرُ؛ وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهُ: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ أَيْ: وَخُذِي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ. قِيلَ: كَانَتْ يَابِسَةً، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ. وَقِيلَ: مُثْمِرَةً. قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَتْ عَجْوَةً. وَقَالَ الثَّوْرِيُّ، عَنْ أَبِي دَاوُدَ نُفَيْعٍ الأَعْمَىٰ: كَانَتْ صَرَفَانة، وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا كَانَتْ شَجَرَةً، وَلَكِنْ لَمْ تَكُنْ فِي إِبَّانِ ثَمَرِهَا، قَالَهُ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ؛ وَلِهَذَا امْتَنَّ عَلَيْهَا بِذَلِكَ، أَنْ جَعَلَ عِنْدَهَا طَعَامًا وَشَرَابًا، فَقَالَ: ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾ أَيْ: طِيبِي نَفْسًا؛ وَلِهَذَا قَالَ عَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ: مَا مِنْ شَيْءٍ خَيْرٌ لِلنُّفَسَاءِ مِنَ التَّمْرِ وَالرُّطَبِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ الكَرِيمَةَ...

وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ قَوْلَهُ: (تَسَّاقَطْ) بِتَشْدِيدِ السِّينِ، وَآخَرُونَ بِتَخْفِيفِهَا، وَقَرَأَ أَبُو نَهِيك: ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ وَرَوَىٰ أَبُو إِسْحَاقَ عَنِ البَرَاءِ: أَنَّهُ قَرَأَهَا: (تُسَاقِطُ) أَيِ: الجِذْعُ. وَالكُلُّ مُتَقَارِبٌ)(١).

وقال العلامة الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (العلماء مختلفون في هذا المنادِي الذي ناداها المعبَّر عنه في إحدىٰ القراءتين بالضمير، وفي الثانية بالاسم الموصول، مَن هو؟ فقال بعض العلماء: هو عيسىٰ، وقال بعض العلماء: هو جبريل...فإذا

---

(١) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠، (٥/ ٢٢٤، ٢٢٥).

علمت ذلك فاعلم أن مَن قال: إنه الملك يقول: فناداها جبريل من مكان تحتها، لأنها علىٰ ربوة مرتفعة، وقد ناداها مِن مكان منخفض عنها، وبعض أهل هذا القول يقول: كان جبريل تحتها يقبل الولد كما تقبله القابلة، والظاهر الأول علىٰ هذا القول... وممن اختار أن الذي ناداها هو عيسىٰ: ابن جرير الطبري في «تفسيره»، واستظهره أبو حيان في «البحر»، واستظهر القرطبي أنه جبريل.

قال مقيِّده عفا الله عنه وغفر له: أظهر القولين عندي أن الذي ناداها هو ابنها عيسىٰ، وتدل علىٰ ذلك قرينتان:

الأولىٰ: أن الضمير يرجع إلىٰ أقرب مذكور إلا بدليلٍ صارف عن ذلك يجب الرجوع إليه، وأقرب مذكور في الآية هو عيسىٰ لا جبريل، لأن الله قال: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ يعني عيسىٰ ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾ أي بعيسىٰ، ثم قال بعده: ﴿فَنَادَىٰهَا﴾ فالذي يظهر ويتبارد من السياق أنه عيسىٰ.

والقرينة الثانية: أنها لما جاءت به قومها تحمله، وقالوا لها ما قالوا أشارت إلىٰ عيسىٰ ليكلموه، كما قال تعالىٰ عنها: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾، وإشارتها إليه ليكلموه قرينة علىٰ أنها عرفت قبلَ ذلك أنه يتكلم علىٰ سبيل خرق العادة لندائه لها عندما وضعته، وبهذه القرينة الأخيرة استدل سعيد بن جبير في إحدىٰ الروايتين عنه علىٰ أنه عيسىٰ، كما نقله عنه غير واحد)(١).

قلت: وهذا ترجيح الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن المنادي لها هو ابنها عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأولىٰ القولين في ذلك عندنا قول مَن قال: الذي ناداها: ابنها عيسىٰ، وذلك أنه من كناية ذِكره أقرب منه مِن ذكر جبرائيل، فَرَدُّه علىٰ الذي هو أقرب إليه أولىٰ من رَدِّه علىٰ الذي هو أبعد منه. ألا ترىٰ في

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، ط. دار الفكر - بيروت، ١٤١٥، (٣/ ٣٩٣).

سياق قوله: ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ يعني به: فحملت عيسىٰ فانتبذت به، ثم قيل: ﴿فَنَادَىٰهَا﴾ نسقًا علىٰ ذلك مِن ذِكر عيسىٰ والخبر عنه، ولعلةٍ أخرىٰ وهي قوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ ولم تشر إليه -إن شاء الله- إلا وقد علمت أنه ناطقٌ في حاله تلك، وللذي كانت قد عرفت ووثقت به منه بمخاطبته إياها بقوله لها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾، وما أخبر الله عنه أنه قال لها: أشيري للقوم إليه، ولو كان ذلك قولًا من جبرائيل لكان خليقًا أن يكون في ظاهر الخبر مبينًا أن عيسىٰ سينطق ويحتَجُّ عنها للقوم، وأمرٌ منه لها بأن تشير إليه للقوم إذا سألوها عن حالها وحاله)(١).

وبعد أن كلمها عيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وهو مازال في المهد وهَدَّأ من روعها أمرها ألا تشغل نفسها بالرد علىٰ الناس إذا كلموها، بل يكفيها أن تشير إلىٰ هذا المولود العجيب ليكلمهم ويخرسهم ويعلن براءة أمه عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ، قال الله: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٤- ٢٦]، قال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: (﴿فَقُولِيٓ﴾ أي بلسان الحال والإشارة ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي صَمْتًا، وكان من صومهم في شَريعتهم ترك الكلام والطعام، قاله قتادة والسدي وابن أسلم، ويدل علىٰ ذلك قوله: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾، فأما في شريعتنا فيكره للصائم صمتُ يوم إلىٰ الليل)(٢).

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠، (١٨/ ١٧٥، ١٧٤).

(٢) البداية والنهاية (٢/ ٦٧). قلت: يشير رَحِمَهُٱللَّهُ إلىٰ ما رواه أبو داود في سننه بسند حسنه النووي وصححه الألباني عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: حفظت من رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يُتْمَ بعد احتلام ولا صُمات يوم إلىٰ الليل.

قد جعل ربكِ تحتك سريًّا:

من كلام المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾، قال الأمينُ الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: (واختلف العلماء في المراد بالسريّ هنا، فقال بعض العلماء: هو الجدول وهو النهر الصغير، لأن الله أجرىٰ لها تحتها نهرًا، وعليه فقوله تعالىٰ: ﴿فَكُلِي﴾ أي من الرُّطَب المذكور في قوله: ﴿تُسَـٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ ﴿وَٱشْرَبِي﴾ أي من النهر المذكور في قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾، وإطلاق السريّ علىٰ الجدول مشهور في كلام العرب، ومنه قول لَبيد في معلقته:

فتوسَّطا عَرْضَ السريّ وصدّعا مسجورة متجاورًا قلّامُها

وقول لبيد أيضًا يصف نخلًا نابتًا علىٰ ماء النهر:

سُحُقٌ يمتّعها الصفا وسَريُّه عَمٌّ نواعمُ بينهن كُرومُ

وقول الآخر:

سَهْلُ الخليقةِ ماجدٌ ذو نائل مثلُ السَّريِّ تَمُدُّه الأنهارُ

فقوله: سَرِيُّه، وقولهما: السريّ بمعنىٰ الجدول، وكذلك قول الراجز:

سَلْمٌ ترىٰ الداليَ منه أَزْوَرا إذا يَعُبُّ في السريِّ هَرْهَرَا

وقال بعض أهل العلم: السريُّ هو عيسىٰ، والسري هو الرجل الذي له شرفٌ ومروءة، يقال في فعله: سَرُوَ بالضم، وسَرَا بالفتح يسرو سَرْوًا فيهما، وسَرِيَ بالكسر يسري سَرْيًا وسَرَاءً وسَرْوًا إذا شَرُفَ، ويُجمَع السريّ هذا علىٰ أسرياء علىٰ القياس، وسرواء وسَراة بالفتح، وعن سيبويه أن السَّراة - بالفتح - اسمُ جمعٍ لا جمع، ومنه قولُ الأَفْوَهِ الأَوْدِيّ:

لا يَصلُحُ الناسُ فوضىٰ لا سَراةَ لهم ولا سَراةَ إذا جُهَّالُهم سَادوا

ويُجمَعُ السَّراةُ علىٰ سَرَوَات، ومنه قول قيس بن الحطين:

وَعَمْـــرَةٌ مـــن ســـرواتِ النســـاءِ تَـــنْفَحُ بالمســـك أرْدانُهـــا

ومِن إطلاق السريّ بمعنىٰ الشريف قول الشاعر:

تلقــىٰ الســريَّ مــن الرجــالِ بنفســه وابــنُ الســريِّ إذا ســرىٰ أســراهما

وقوله: أسراهما أي أشرفهما، قاله في «اللسان».

قال مقيِّدة عفا الله عنه وغفر له: أظهر القولين عندي أن السريَّ في الآية النهر الصغير، والدليل علىٰ ذلك أمران:

أحدهما: القرينة من القرآن، فقوله تعالىٰ: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي﴾ قرينة علىٰ أن ذلك المأكول والمشروب هو ما تقدم الامتنان به في قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾، وقوله: ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون: ٥٠] لأن المعين: الماء الجاري، والظاهر أنه الجدول المعبر عنه بالسريّ في هذه الآية، والله تعالىٰ أعلم.

الأمر الثاني: حديثٌ جاء بذلك عن النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: وقد جاء بذلك حديث مرفوع، قال الطبراني: حدثنا أبو شعيب الحراني، حدثنا يحيىٰ بن عبد الله البابلي، حدثنا أيوب بن نهيك، سمعت عكرمة مولىٰ ابن عباس، سمعت ابن عمر يقول: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «إن السري الذي قال الله لمريم: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ [مريم: ٢٤]، نهرٌ أخرجه الله لها لتشرب منه» وهذا حديث غريب جدًّا من هذا الوجه، وأيوب بن نهيك هذا هو الحبلي، قال فيه أبو حاتم الرازي: ضعيف، وقال أبو زرعة: منكر الحديث، وقال أبو الفتح الأزدي: متروك الحديث - انتهىٰ كلام ابن كثير.

وقال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف» في الحديث المذكور: أخرجه الطبراني في «الصغير»، وابن عدي من رواية أبي سنان سعيد بن سنان، عن أبي إسحاق، عن البراء عن النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ قال: السريُّ النهر، قال الطبراني: لم يرفعه عن أبي إسحاق إلا أبو سنان، رواه عنه يحيىٰ بن معاوية وهو ضعيف، وأخرجه عبد الرزاق، عن الثوري، عن أبي إسحاق عن البراء موقوفًا، وكذا ذكره البخاري تعليقًا عن وكيع، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، ورواه ابن مردويه من طريق آدم، عن إسرائيل كذلك وأخرجه الحاكم من وجه آخر عن أبي إسحاق موقوفًا، وفي الباب عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: إن السريّ الذي قاله لمريم نهر أخرجه الله لتشرب منه، أخرجه الطبراني وأبو نعيم في «الحلية» في ترجمة عكرمة عن ابن عمر، وراويه عن عكرمة أيوب بن نهيك ضعفه أبو حاتم وأبو زرعة. انتهىٰ.

فهذا الحديث المرفوع إلىٰ النَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وإن كانت طرقه لا يخلو شيء منها من ضعف - أقرب إلىٰ الصواب من دعوىٰ أن السريّ عيسىٰ بغير دليل يجب الرجوع إليه، وممن اختار أن السري المذكور في الآية النهر: ابن جرير في «تفسيره»، وبه قال البراء بن عازب، وعلي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وعَمرو بن ميمون، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والضحاك، وإبراهيم النخعي، وقتادة، والسدي، ووهب بن منبه وغيرهم، وممن قال إنه عيسىٰ: الحسن، والربيع بن أنس، ومحمد بن عباد بن جعفر، وهو إحدىٰ الروايتين عن قتادة، وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قاله ابن كثير وغيره). «أضواء البيان».

قلت: والحديث له طرق موقوفةٌ علىٰ البراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وبعضها مرفوع، والوقف أصحّ كما قال رجحه الطبرانيّ والحاكم وغيرهما، لكن هذا الموقوف له

حكم الرفع، كما قال العلامة الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ: (السريُّ: النهر). أخرجه محمد بن العباس البزار في «حديثه» (١/ ١١٦) حدثنا عبيد بن عبد الواحد قال: حدثنا سليمان بن عبد الرحمن قال: حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن عن الأعمش عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب مرفوعًا. قلت: وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات رجال الصحيح غير عبيد بن عبد الواحد وهو ابن شريك البزار وكان ثقة صدوقًا كما في «اللسان»، لكن أخرجه ابن جرير في «التفسير» (١٦/ ٥٣) من طريق شعبة والحاكم (٢/ ٣٧٣) من طريق سفيان كلاهما عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: فذكره موقوفًا.

قلت: وهو أصح، لكن تفسير الصحابي للقرآن له حكم الرفع كما قرره الحاكم في «مستدركه»، لاسيما وقد روي عن ترجمان القرآن ابن عباس من قوله، رواه ابن جرير وغيره. والحديث أخرجه الطبراني في «الصغير» (ص١٤٢ - هندية) من طريق بقية بن الوليد عن معاوية بن يحيىٰ الصدفي عن أبي سنان عن أبي إسحاق به مرفوعًا، وقال: «لم يرفع هذا الحديث عن أبي إسحاق إلا أبو سنان سعيد بن سنان»، قلت: وهو صدوق له أوهام احتج به مسلم لكن الصدفي ضعيف وبقية مدلس، وقوله: «لم يرفعه إلا أبو سنان» فبحسب ما وصل إليه، وإلا فحديث الترجمة يردّه، وله شاهد من حديث ابن عمر قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «إن السري الذي قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ نهر أخرجه الله لتشرب منه»، أخرجه الطبراني في «الكبير» (٣/ ١٦٧/ ١) عن يحيىٰ بن عبد الله: أخبرنا أيوب بن نهيك قال: سمعت عكرمة مولىٰ ابن عباس يقول: سمعت ابن عمر... وهذا إسناد ضعيف لضعف يحيىٰ بن عبد الله وهو البابلتي. وشر منه شيخه

أيوب بن نهيك، ولعل لذلك اقتصر ابن كثير عليه في إعلال الحديث هذا، وفيما قبله غُنية عنه، والله أعلم)(١).

تهيئةُ مريمَ الصِّدِّيقةِ عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ لمواجهة الناس:

قال تعالىٰ: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ [مريم: ٢٤- ٢٧].

فبعد أن أكرمها الله بإجراء النهر وتيسير سقوط الرطب، ونداء عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أوْ جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لها بأنْ لا تحزن وأنْ تأكل وتشرب وهي قريرة العين قال لها المنادي: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أَيْ: مَهْمَا رَأَيْتِ مِنْ أَحَدٍ، ﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ الْمُرَادُ بِهَذَا الْقَوْلِ: الإِشَارَةُ إِلَيْهِ بِذَلِكَ، لَا أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْقَوْلُ اللَّفْظِيُّ؛ لِئَلَّا يُنَافِيَ: ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أَيْ: صَمْتًا وَكَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ أَنَسٍ: «صَوْمًا وَصَمْتًا»، وَكَذَا قَالَ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا، وَالْمُرَادُ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا صَامُوا فِي شَرِيعَتِهِمْ يَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الطَّعَامُ وَالْكَلَامُ، نَصَّ عَلَىٰ ذَلِكَ السُّدِّي، وقَتَادَةُ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ، عَنْ حَارِثَةَ

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين، ط. مكتبة المعارف - الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٥، (٣/ ١٨٩، ١٨٨)، الحديث رقم: (١١٩١).

قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ مَسْعُودٍ، فَجَاءَ رَجُلَانِ فَسَلَّمَ أَحَدُهُمَا وَلَمْ يُسَلِّمِ الآخَرُ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكَ؟ قَالَ أَصْحَابُهُ: حَلَفَ أَلَّا يُكَلِّمَ النَّاسَ اليَوْمَ. فَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: كلِّم النَّاسَ وَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّمَا تِلْكَ امْرَأَةٌ عَلِمَتْ أَنَّ أَحَدًا لَا يُصَدِّقُهَا أَنَّهَا حَمَلَتْ مِنْ غَيْرِ زَوْجٍ، يَعْنِي بِذَلِكَ مَرْيَمَ عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ؛ لِيَكُونَ عُذْرًا لَهَا إِذَا سُئِلَتْ، وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ رَحِمَهُمَاٱللَّهُ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ: لَمَّا قَالَ عِيسَىٰ لِمَرْيَمَ: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ قَالَتْ: وَكَيْفَ لَا أَحْزَنُ وَأَنْتَ مَعِي؟! لَا ذاتُ زَوْجٍ وَلَا مَمْلُوكَةٌ، أَيُّ شَيْءٍ عُذْرِي عِنْدَ النَّاسِ؟ ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم: ٢٣]، قَالَ لَهَا عِيسَىٰ: أَنَا أَكْفِيكِ الكَلَامَ: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٦] قَالَ: هَذَا كُلُّهُ مِنْ كَلَامِ عِيسَىٰ لِأُمِّهِ، وَكَذَا قَالَ وَهْبٌ)(١).

المواجهة:

قال تعالىٰ: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٢٧- ٣٣].

ذهبت مريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ إلىٰ (قومها) الذين يعرفونها ويعرفون مكانتها ومكانة آل عمران فكان ما توجَّست منه البتولُ عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ، كما ذكر الله ذلك: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا

(١) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠، (٥/ ٢٢٥، ٢٢٦).

كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ وهكذا اتهموا العفيفة المطهرة برغم معرفتهم بحالها وأصلها، وقد سبق أن ذكرنا أن هارون هذا إما أنه أخوها كما هو ظاهر النص، وإما أن يكون من صالحي آل عمران، واللغة تحتمل ذلك، وأنه قطعًا ليس هارون النبي أخا موسىٰ عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ، ولكنهم كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحيهم، قال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: وقد ورد في الحديث الصحيح الدال علىٰ أنه قد كان لها أخ اسمه هارون، وليس في قصة ولادتها وتحرير أمها لها ما يدل علىٰ أنها ليس لها أخ سواها، والله أعلم.

وقال رَحِمَهُٱللَّهُ: والمقصود أنهم قالوا: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ ودل الحديث علىٰ أنها كان لها أخ نَسَبيّ اسمه هارون، وكان مشهورًا بالدين والصلاح والخير، ولهذا قالوا: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ أي لستِ من بيتٍ هذه شيمتهم ولا سجيتهم، لا أخوك ولا أمك ولا أبوك، فاتهموها بالفاحشة العظمىٰ ورموها بالداهية الدهياء.

وهنا أظهرَ الله براءتها وأعلىٰ مكانتها وجعلها وابنها آية للعالمين، آية علىٰ قدرة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي يخلق ولدًا من غير أب، ويُنطِق الصبيّ في المهد، قال الله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٢٩- ٣١] الآيات، وهكذا فرَّج الله كربها وأعلىٰ ذكرها ومكانتها عليها وعلىٰ ابنها السلام.

قال الإمام الشوكاني رَحِمَهُٱللَّهُ: (لَمّا اطْمَأَنَّتْ مَرْيَمُ عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ بما رَأَتْ مِنَ الآياتِ وفَرَغَتْ مِن نِفاسِها أتَتْ بِهِ أيْ: بِعِيسىٰ، وجُمْلَةُ تَحْمِلُهُ في مَحَلِّ نَصْبٍ عَلىٰ الحالِ، وكانَ إتْيانُها إلَيْهِمْ مِنَ المَكانِ القَصِيِّ الَّذِي انْتَبَذَتْ فِيهِ، فَلَمّا رَأوُا الوَلَدَ مَعَها حَزِنُوا، وكانُوا أهْلَ بَيْتٍ صالِحِينَ قالُوا مُنْكِرِينَ لِذَلِكَ: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ﴾

أيْ: فَعَلْتِ ﴿شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ قالَ أبُو عُبَيْدَةَ: الفَرِيُّ العَجِيبُ النّادِرُ، وكَذا قالَ الأخْفَشُ، والفَرْيُ القَطْعُ، كَأنَّهُ مِمّا يَخرِقُ العادَةَ، أوْ يُقْطَعُ بِكَوْنِهِ عَجِيبًا نادِرًا، وقالَ قُطْرُبُ: الفَرِيُّ الجَدِيدُ مِنَ الأسْقِيَةِ أيْ: جِئْتِ بِأمْرٍ بَدِيعٍ جَدِيدٍ لَمْ تُسْبَقِي إلَيْهِ وقالَ سَعِيدُ بْنُ مَسْعَدَةَ: الفَرِيُّ المُخْتَلَقُ المُفْتَعَلُ، يُقالُ: فَرَيْتُ وأفْرَيْتُ بِمَعْنًى واحِدٍ، والوَلَدُ مِنَ الزِّنا كالشَّيْءِ المُفْتَرى، قالَ تَعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾[الممتحنة: ١٢]، وقالَ مُجاهِدٌ: الفَرِيُّ العَظِيمُ)(١).

وقال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يَقُولُ تَعالَى مُخْبِرًا عَنْ مَرْيَمَ حِينَ أُمِرَتْ أَنْ تَصُومَ يَوْمَهَا ذَلِكَ، وَأَلَّا تُكَلِّمَ أَحَدًا مِنَ البَشَرِ فَإِنَّهَا سَتُكْفَى أَمْرَهَا وَيُقَامُ بِحُجَّتِهَا فَسَلَّمَتْ لِأَمْرِ اللهِ، عَزَّوَجَلَّ، وَاسْتَسْلَمَتْ لِقَضَائِهِ، وَأَخَذَتْ وَلَدَهَا ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾، فَلَمَّا رَأَوْهَا كَذَلِكَ، أَعْظَمُوا أَمْرَهَا وَاسْتَنْكَرُوهُ جِدًّا، وَقَالُوا: ﴿يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ أَيْ: أَمْرًا عَظِيمًا، قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ... ﴿يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ﴾ أَيْ: يَا شَبِيهَةَ هَارُونَ فِي العِبَادَةِ ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ أَيْ: أَنْتِ مِنْ بيت طيب طاهر، معروف بالصلاح)(٢).

فأشارت إليه:

(وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ أَيْ: إِنَّهُمْ لَمَّا اسْتَرَابُوا فِي أَمْرِهَا وَاسْتَنْكَرُوا قَضِيَّتَهَا، وَقَالُوا لَهَا مَا قَالُوا مُعَرِّضِينَ بِقَذْفِهَا وَرَمْيِهَا بالفرْية، وَقَدْ كَانَتْ يَوْمَهَا ذَلِكَ صَائِمَةً، صَامِتَةً فَأَحَالَتِ الكَلَامَ عَلَيْهِ، وَأَشَارَتْ لَهُمْ

---

(١) فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، ط. دار ابن كثير- دمشق، دار الكلم الطيب - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤، (٣/ ٣٩١).

(٢) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠، (٥/ ٢٢٦).

إِلَىٰ خِطَابِهِ وَكَلَامِهِ، فَقَالُوا مُتَهَكِّمِينَ بِهَا، ظَانِّينَ أَنَّهَا تَزْدَرِي بِهِمْ وَتَلْعَبُ بِهِمْ: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾؟! قَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَان: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾، قَالَتْ: كَلِّمُوهُ، فَقَالُوا: عَلَىٰ مَا جَاءَتْ بِهِ مِنَ الدَّاهِيَةِ تَأْمُرُنَا أَنْ نُكَلِّمَ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا! وَقَالَ السُّدِّيُّ: لَمَّا أَشَارَتْ إِلَيْهِ غَضِبُوا، وَقَالُوا: لَسُخْرِيَتُهَا بِنَا حِينَ تَأْمُرُنَا أَنْ نُكَلِّمَ هَذَا الصَّبِيَّ أَشَدُّ عَلَيْنَا مِنْ زِنَاهَا، ﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ أَيْ: مَنْ هُوَ مَوْجُودٌ فِي مَهْدِهِ فِي حَالِ صِبَاهُ وَصِغَرِهِ، كَيْفَ يَتَكَلَّمُ؟ ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ أَوَّلُ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ أَنْ نَزَّهَ جَنَابَ رَبِّهِ تَعَالَىٰ وَبَرَّأَ اللهَ عَنِ الْوَلَدِ، وَأَثْبَتَ لِنَفْسِهِ الْعُبُودِيَّةَ لِرَبِّهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ تَبْرِئَةٌ لِأُمِّهِ مِمَّا نُسِبَتْ إِلَيْهِ مِنَ الْفَاحِشَةِ)(١).

هل تزوجت مريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ؟

ظاهر كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن مريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ كما أخبرت عن نفسها: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧] وأن أمها نذرتها لبيت الله ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] فلم تتزوج، وليست ممن يتزوج، فقد وقفت حياتها علىٰ عبادة الله وخدمة بيته، وقد مرّ قول الإمام ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ عند كلامه عن المحنة: (لأنها لا زوج لها ولا هي ممن يتزوج)، ولو كانت ذات زوج لكان زوجها أولىٰ بكفالتها من نبي الله زكريا، ولَما كان في ولادتها للمسيح ما يُسْتَغْرَب عند الناس، ولا ما يدعو كفرةَ اليهود إلىٰ اتهامها، كما قال الله: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: ١٥٦]، ولا نعلم دليلًا علىٰ أنها تزوجت بعد ذلك بل ظواهر الأدلة علىٰ أنها بقيت بلا زوج، هذا معتقد المسلمين.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠، (٥/ ٢٢٨).

وقد يبدو أن هذه معلومة بَدَهية متفقٌ عليها بين المسلمين والنصارىٰ، وهذا ليس بصحيح، فإن النصارىٰ وإن لقبوا مريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ بالعذراء، فإنهم مختلفون في هذا الأمر، وظواهر كتابهم تدل علىٰ أنها كانت ذات زوج وكان للمسيح منها إخوة، ولذا فقد صرح كثير منهم أن معتقد (عذراوية) مريم معتقد غير كتابي.

وقد اخترع النصارىٰ شخصية (يوسف النجار) وجعلوه خطيبًا لمريم ونسبوا إليه المسيح في مفتتح أناجيلهم عند ذكر نسبه، وصرحوا بأنها تزوجت بيوسف، ولكنه لم يَبْنِ بها إلا بعد ميلاد المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، كما في إنجيل (متىٰ ١: ٢٥): «ولم يعرفها يوسف حتىٰ ولدت ابنها البكر ودعا اسمه يسوع»، وظاهر هذا أنه عرفها بعد ولادتها للمسيح، وأن المسيح ليس ابنها الوحيد بل هو البكر وأن يوسف هو الذي سَمّاه، وما كان ليسميه ولا صلة له به بل لابد من وجود صلة، ولفظة (عرف) في كتابهم بمعنىٰ (أتىٰ امرأته) كما في سفر التكوين ٤: ١ «وعرف آدمُ حواءَ امرأته وولدت قايين» وفي سفر التكوين ٤: ١٧: «وعرف قايين امرأته فحبلت وولدت حَنُوك»، وأما قولهم بوجود إخوة له، فكما في (متىٰ ٣: ٥٥): «أليس هذا ابن النجار أليست أمه تدعىٰ مريم وإخوته يعقوب ويوسي وسمعان ويهوذا» ونحوه في (مرقس ٦: ٣) و(متىٰ ١٣: ٥٦) وكذا في قول بولس: «ولكنني لم أر غيره من الرسل إلا يعقوب أخا الرب» (رسالة غلاطية ١: ١٩).

ولظهور هذا الأمر وللتناقضات الواضحة قال بعضهم: إنهم أولاد يوسف من زواج سابق لأن يوسف كان في التسعين من عمره وكان لديه أولاد(١)، وقال

(١) في دائرة المعارف الكتابية (٧/ ١٢٥) وفي كتاب تاريخ يوسف النجار (من القرن الرابع): يقال: إنها كانت بنت اثني عشرة سنة عندما خطبت ليوسف الذي كان أرمل في التسعين من العمر وصاحب عائلة كبيرة، أما القصة الكتابية فتفترض أنه كان شابًّا يشرع في الزواج لأول مرة...).

بعضهم بل كانوا أولاد عمه! وقال غيرهم: هم أقاربه، ولما ذكروا قصة صلبه وأنه عند صلبه المزعوم «كانت هناك نساء كثيرات ينظرن من بعيد وهُنّ قد تبعن السيد المسيح من الجليل يَخْدِمْنَه وبينهن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب ويوسي وأم ابني زبدي» (متىٰ ٢٧: ٥٥- ٥٦) زادوا في النص ما يحرف معناه فقالوا: «وكانت واقفات عند صلب السيد المسيح أمه وأخت أمه مريم: زوجة كلوبا ومريم المجدلية» (يوحنا ١٩: ٢٥)، ومع أن النصين معناهما لا يختلف فهنا ذكر أمه وهي نفسها أم يعقوب كما في بقية نصوصهم، ولأنه لا يعقل أن تشهده النساء وتغيب أمه، فحرفوا النص بإضافة فاصلة بعد كلمة (أمه) الثانية وجعلوا المعنىٰ: أمه وأخت أمه التي اسمها مريم وهي زوجة كلوبا، وزعموا أنه كان له خالة اسمها مريم أيضًا ويبدو أن الأسماء كانت مرتفعة الأثمان فسمياهما مريم ومريم!!! ليخلصوا إلىٰ أن هؤلاء الإخوة هم أولاد خالته والخالة أم، وهو كلام ركيك وجمع نصوصهم في المسألة يدل علىٰ أنه تحريف ويبدو أنهم اخترعوا خرافة النجار هذا وأنه كان خطيبها وأنه أخذها إلىٰ بيته، قاتلهم الله!! ثم زعموا أنه لم يعرفها حتىٰ ولد واخترعوا له أولادًا ليقولوا: إنه كان كبير السن!!

وقد وقع في نفسي الآن شيء لم أره لأحد من أهل العلم، وهو ما رواه مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «كان زكريا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ نجارًا»، فلعل تحريفهم المتتابع مع ضياع أصل كتابهم جعل زكريا يوسف وجعل كفالته لمريم زواجًا، والله أعلم.

وتأملْ ما نصت عليه التوراة أو ما يسمونه بالعهد القديم من مَنع المرأة من الزواج من غير سبطها كما في (سفر العدد ٣٦: ٨- ٩): «وكل بنت ورثت نصيبًا من بني إسرائيل تكون امرأة لواحد من عشيرة سبط أبيها لكي يرث بنو إسرائيل كل

واحد نصيب آبائه، فلا يتحول نصيب من سبط إلىٰ سبط آخر بل يلازم أسباط بني إسرائيل كل واحد نصيبه»، ثم تذكّر أن مريم من سبط لاوي، لأن امرأة زكريا عَلَيْهِٱلسَّلَامُ -وهي قريبة مريم باتفاق، سواء أكانت أختها أم خالتها- كانت من بنات هارون كما في (لوقا ١ : ٥)، وهارون من سبط لاوي ابن يعقوب عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، فحسب شريعتهم فإن مريم لا تتزوج إلا من سبط لاوي، وهم يزعمون ان يوسف النجار من نسل داود عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وداود من سبط يهوذا بن يعقوب عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، فكيف يخطبها؟!!

ولم يكتفِ النصارىٰ بذلك حتىٰ جعلوه أبًا له، كما في إنجيل لوقا (٢: ٣٣): «وكان أبوه وأمه يتعجبان من هذا الكلام الذي قيل فيه»، وفي لوقا (٢: ٤٣): «وكان أبواه لم يعلما...» وفي لوقا (٢: ٤٨): «وقالت له أمه: يا بني لماذا فعلت بنا هكذا؟ هو ذا أبوك وأنا كنا نبحث عنك...»، ولما تنبهوا حذفوا لفظة «أبوه» و«أبواه» من الطبعات الحديثة، وما زال التحريف مستمرًا، ثم يأتي جهلتهم ليسألوا: متىٰ حُرّف؟!!

ومِن عجبٍ أن أقدم أناجيلهم وهو إنجيل مرقس لم يُشِر إلىٰ هذا النجار الذي ظهر فجأة فيما أُلّف من أناجيل بعد مرقس، فماذا أبقوا لليهود!!

وابتكارهم شخصية النجار واختراع نسب له ينتهي بداود عَلَيْهِٱلسَّلَامُ إنما فعلوه ليلووا أعناق نصوص تدل علىٰ آتٍ من ذرية داود ليجعلوه هو المسيح، مع أن المسيح عندهم قد رفض هذا القول كما في متىٰ (٢٢: ٤١- ٤٦) ووضح لهم أن هذا المُبشَّر به الآتي إلىٰ العالم لن يكون من ذرية داود كما يتمنون هم، وهو المدعو بالمسيا وهو علىٰ التحقيق محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ونص ما ورد: «كان الفريسيون مجتمعين سألهم يسوع: ما تظنون في المسيح ابن مَنْ هو؟ قالوا له: ابن داود قال

لهم: فكيف يدعوه داود بالروح ربًا، قال: قال الرب لربي: اجلس عن يميني حتىٰ أجعل أعداءك موطئًا لقدميك، فإن كان داود يدعوه ربًّا فكيف يكون ابنه؟ فلم يستطع أحد أن يجيب بكلمة». وفي (مرقس ١٢: ٣٧): «فداود نفسه يدعوه ربًا فَمِن أين هو ابنه».

وهكذا تستمر التناقضات، ويستمر التحريف للألفاظ والمعاني ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[المائدة: ١٣]، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾[المائدة: ٤١]، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[النساء: ٨٢] وصدق ربنا سبحانه، والنص أوضح من هذا في إنجيل برنابا (٤٣: ٢٧- ٣١) الذي ينكرونه: «لا تَغُشُّوا أنفسكم لأن داود يدعوه في الروح ربًّا (سيدًا) قائلًا: قال الرب لربي (لسيدي): اجلس عن يميني صدقوني لأني أقول لكم الحق، إن العهد صُنع بإسماعيل لا بإسحاق)، ولعل من أسباب اختراع هذا الزواج أن عندهم في سفر التثنية (٢٢: ٢٣- ٢٤): «وإذا كانت فتاة بكر مخطوبة لرجل فصادفها رجل في المدينة فَضَاجَعَهَا. فأخرِجوهما من باب تلك المدينة وارجموهما...» وعلىٰ قولهم: إن مريم المطهرة كانت مخطوبة فحبلت وولدت فَلِمَ لم تُرْجم؟! فاخترعوا هذا الزواج ليخرجوا من هذا المأزق، والجواب أنها لمْ تُرجَمْ ولم يدعُ أحد لرجمها، لأنها- وبكل بساطة ويسر- لم تكن مخطوبة، بل كانت في المسجد تتعبد تحت نظر وكفالة زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأما ادعاءات النصارىٰ فلن تنتهي، ولما ظَنَّ الناس بها سوءًا برأها الله بمعجزةٍ مُخْرِسة لهم وهي كلام رضيعها عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وليس عند النصارىٰ من ذلك شيء، فمريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ مُتَّهمة عند اليهود والنصارىٰ عليهم

لعائن الله وما برأها إلا المسلمون بما جاءهم عن ربهم، والحمد لله علىٰ نعمة الإسلام(١).

هل مريم الصديقة عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ ستكون من زوجات النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الجنة؟

نقطع بأن مريم عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ لم تُخْطَب ولم تتزوج، ولا ندري كيف ماتت عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ ولا متىٰ ماتت.

وقد وردت روايات بأنها ستكون زوجة لخاتم المرسلين محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الجنة، ولكن لا يصح منها شيء، فقد روىٰ أبو الشيخ في «التاريخ» والعقيلي في «الضعفاء» والطبراني في «الكبير» عن أبي أمامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «يا عائشةَ، أما تعلمين أن الله زَوَّجني في الجنة مريمَ بنتَ عمران، وكلثم أختَ موسىٰ، وامرأةَ فرعون» وهو حديث منكر، وسنده تالف فيه يونس بن شعيب، قال البخاري: منكر الحديث، وقال ابن عدي: هذا الحديث هو الذي أنكره عليه البخاري، والراوي عن يونس هو عبد النور بن عبد الله بن سنان وهو كذاب متهم بالوضع، وله إسناد عند الطبراني فيه محمد بن حسن بن زبالة وهو كذاب وله إسناد آخر مسلسل بالعوفيين وكلهم ضعفاء، وبالجملة فالحديث ليس له إسناد يُحْتَجّ به، والله أعلم(٢).

❁ ❁ ❁

(١) انظر لمزيد فائدة : كتاب المسيح الربي والمسيح الملكي، للعقيد المهندس جمال الدين شرقاوي ص (٨٩- ١٠١).

(٢) انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، محمد ناصر الدين، ط. دار المعارف، الرياض، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٢، (٢/ ٢٢٠) الحديث رقم: (٨١٢).

الباب الثالث

حياة المسيح الأولى على الأرض

الفصل الأول

ميلاد المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

كيف ولد المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ؟

مر بنا في الفصل الثاني من الباب الثاني عند ذِكر محنة الصدِّيقة مريم ابنة عمران عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ، أنها حملت بالمسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من غير زواج ولا مسيسِ رجل من البشر، وأنها حملت بقول الله: ﴿كُن﴾ وبنفخ جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في جَيْب دِرعها بأمر الله سبحانه له، وأن الحكمة في ذلك هي إظهار قدرة الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، فقدرته سبحانه مُطْلَقة ولا يُعجزه شيء، فكما خلق أول البشر آدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ من غير أب ولا أم وخلق زوجَه حواء من أب بلا أم، كذلك خلق سبحانه المسيحَ عيسىٰ ابنَ مريم من أبٍ بلا أم وهو أمرٌ يسيرٌ علىٰ الله، كما قال سبحانه: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٢١]، وكما قال سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩]، ولعلّ في ذلك -أيضًا- إشارة إلىٰ انقطاع النبوة من بني إسرائيل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وانتقالها إلىٰ بني إسماعيل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ.

أين وُلد المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ؟

ظاهر كلام الله عَزَّوَجَلَّ أن المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وُلد في الأرض المقدسة بالقرب من بيت المقدس حيث كانت أمُّه عَلَيْهَاٱلسَّلَامُ تتعبد، وأما تحديد مكان ولادته فإن اليهود والنصارىٰ لا يختلفون في أنه وُلد في «بيت لحم» من أرض فلسطين، وقد

ورد في ذلك حديثان عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكنهما ضعيفان لا يُحتج بهما(١)، فنحن نوقن أنه ولد بأرض الشام في مكان قريب من المسجد الأقصىٰ وأما كونه ولد تحديدًا في قرية بيت لحم فمما لا نصدقه لعدم الدليل عليه، ولا نكذّبه لأنه أمر محتَمل وليس عندنا ما يدفعه، والأمر ليس ذا بال ولا يفيدنا في شيء.

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٣]، أَيْ: فَاضْطَرَّهَا وَأَلْجَأَهَا الطَّلْقُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ وَهِيَ نَخْلَةٌ فِي الْمَكَانِ الَّذِي تَنَحَّتْ إِلَيْهِ، وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِيهِ، فَقَالَ السُّدِّيُّ: كَانَ شَرْقِيَّ مِحْرَابِهَا الَّذِي تُصَلِّي فِيهِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّه: ذَهَبَتْ هَارِبَةً، فَلَمَّا كَانَتْ بَيْنَ الشَّامِ وَبِلَادِ مِصْرَ، ضَرَبَهَا الطَّلْقُ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ وَهْبٍ: كَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فِي قَرْيَةٍ هُنَاكَ يُقَالُ لَهَا: «بَيْتُ لَحْمٍ»، قُلْتُ: وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ، مِنْ رِوَايَةِ النَّسَائِيِّ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالْبَيْهَقِيِّ عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ ذَلِكَ بِبَيْتِ لَحْمٍ، فَاللهُ أَعْلَمُ، وَهَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ الَّذِي تَلَقَّاهُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، وَلَا يَشُكُّ فِيهِ النَّصَارَىٰ أَنَّهُ بِبَيْتِ لَحْمٍ، وَقَدْ تَلَقَّاهُ النَّاسُ. وَقَدْ وَرَدَ بِهِ الْحَدِيثُ إِنْ صَحَّ)(٢).

---

(١) وهما حديثا أنس بن مالك وشداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رحلة الإسراء صلىٰ في بيت لحم حيث ولد عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحديث أنس رواه النسائي وضعفه ابن كثير وقال: فيه غرابة ونكارة جدًّا، وقال الألباني منكر، (في سنده سعيد التنوخي اختلط، ويزيد بن عبد الرحمن صدوق ربما وهم)، وحديث شداد رواه البزار والطبراني وضعفه ابن كثير والهيثمي، وفي سنده عمرو بن الحارث الحمصي مجهول العدالة، وروي نحوه من حديث أبي هريرة وحكم ابن حبان وابن الجوزي بوضعه.

(٢) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠، (٥/ ٢٢٣).

قلت: قول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ الإِسْرَاءِ...) إشارة إلىٰ قوله في تفسير سورة الإسراء: (طَرِيقٌ أُخْرَىٰ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَفِيهَا غَرَابَةٌ وَنَكَارَةٌ جَدًّا، وَهِيَ فِي سُنَنِ النَّسَائِيِّ الْمُجْتَبَىٰ، وَلَمْ أَرَهَا فِي الكَبِيرِ قَالَ: أَخْبَرَنَا عَمْرُو بْنُ هِشَامٍ، حَدَّثَنَا مَخْلَد -هُوَ ابْنُ الحُسَيْنِ- عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ أَبِي مَالِكٍ، حَدَّثَنَا أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أُتِيتُ بِدَابَّةٍ فَوْقَ الحِمَارِ وَدُونَ البَغْلِ، خَطْوُهَا عِنْدَ مُنْتَهَىٰ طَرْفِهَا، فَرَكِبْتُ وَمَعِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسِرْتُ فَقَالَ: انْزِلْ فَصَلِّ، فَصَلَّيْتُ، فَقَالَ: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ؟ صَلَّيْتَ بِطَيْبَةَ وَإِلَيْهَا المُهَاجَرُ، ثُمَّ قَالَ: انْزِلْ فَصَلِّ، فَصَلَّيْتُ، فَقَالَ: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ؟ صَلَّيْتَ بِطُورِ سَيْنَاءَ، حَيْثُ كَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ، ثُمَّ قَالَ: انْزِلْ فَصَلِّ، فَصَلَّيْتُ، فَقَالَ: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ. صَلَّيْتَ بِبَيْتِ لَحْمٍ، حَيْثُ وُلِدَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ دَخَلْتُ بَيْتَ المَقْدِسِ فَجُمِعَ لِيَ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ»...)(١).

وإلىٰ ما ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ من رِوَايَةُ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ أُسْرِيَ بِكَ؟ قَالَ: «صَلَّيْتُ لِأَصْحَابِي صَلَاةَ الْعَتَمَةِ بِمَكَّةَ مُعْتِمًا». قَالَ: «فَأَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بِدَابَّةٍ أَبْيَض -أَوْ قَالَ: بَيْضَاءَ- فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ، فَقَالَ: ارْكَبْ. فَاسْتُصْعِبَتْ عَلَيَّ، فَرَازَهَا بِأُذُنِهَا، ثُمَّ حَمَلَنِي عَلَيْهَا، فَانْطَلَقَتْ تَهْوِي بِنَا يَقَعُ حَافِرُهَا حَيْثُ أَدْرَكَ طَرْفُهَا، حَتَّىٰ بَلَغْنَا أَرْضًا ذَاتَ نَخْلٍ فَأَنْزَلَنِي فَقَالَ: صَلِّ. فَصَلَّيْتُ، ثُمَّ رَكِبْنَا فَقَالَ: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ؟ قُلْتُ: اللهُ أَعْلَمُ، قَالَ: صَلَّيْتَ بِيَثْرِبَ صَلَّيْتَ بِطِيبَةَ، فَانْطَلَقَتْ تَهْوِي بِنَا يَقَعُ حَافِرُهَا حَيْثُ أَدْرَكَ طَرْفُهَا.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠، (٥/ ١٢).

ثُمَّ بَلَغْنَا أَرْضًا فَقَالَ: انْزِلْ، فَنَزَلْتُ، ثُمَّ قَالَ: صَلِّ، فَصَلَّيْتُ ثُمَّ رَكِبْنَا، فَقَالَ: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ؟ قُلْتُ: اللهُ أَعْلَمُ. قَالَ: صَلَّيْتَ بِمَدْيَنَ، صَلَّيْتَ عِنْدَ شَجَرَةِ مُوسَىٰ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ تَهْوِي بِنَا يَقَعُ حَافِرُهَا حَيْثُ أَدْرَكَ طَرْفُهَا، ثُمَّ بَلَغْنَا أَرْضًا، بَدَتْ لَنَا قُصُورٌ، فَقَالَ: انْزِلْ، فَنَزَلْتُ، فَقَالَ: صَلِّ، فَصَلَّيْتُ ثُمَّ رَكِبْنَا فَقَالَ: أَتَدْرِي أَيْنَ صَلَّيْتَ؟ قُلْتُ: اللهُ أَعْلَمُ. قَالَ: صَلَّيْتَ بِبَيْتِ لَحْمٍ حَيْثُ وُلِدَ عِيسَىٰ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّىٰ دَخَلْنَا الْمَدِينَةَ...».

وَقَدْ رَوَىٰ هَذَا الحَدِيثَ عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ بِطُولِهِ الْإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْعَلَاءِ الزُّبَيْدِيِّ، بِهِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الحَدِيثَ -أَعْنِي الحَدِيثَ الْمَرْوِيَّ عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ- مُشْتَمِلٌ عَلَىٰ أَشْيَاءَ مِنْهَا مَا هُوَ صَحِيحٌ كَمَا ذَكَرَهُ الْبَيْهَقِيُّ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مُنْكَرٌ، كَالصَّلَاةِ فِي بَيْتِ لَحْمٍ، وَسُؤَالِ الصِّدِّيقِ عَنْ نَعْتِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَاللهُ أَعْلَمُ)(١).

وكانت ولادة المسيح عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ على ربوة هناك قرب بيت المقدس، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾ [المؤمنون: ٥٠].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ: (واختلف أهلُ التأويل في المكان الذي وصفه الله بهذه الصفة، وآوىٰ إليه مريم وابنها، فقال بعضهم: هو الرَّمْلة من فلسطين)، وروىٰ الطبريُّ هذا القولَ عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، وقال آخرون: هي دمشق، وروىٰ هذا القولَ عن سعيد بن المسيب أنه قال: زعموا أنها دمشق، وروىٰ عنه قولًا آخر أنه

(١) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠، (٥/ ٢٦، ٢٧).

قال: ربوة من رُبا مصر، وقال آخرون: هي بيت المقدس، وهذا مرويّ عن قتادة، ثم قال الإمام الطبريّ رَحِمَهُٱللَّهُ: (وأولىٰ هذه الأقوال بتأويل ذلك: أنها مكان مرتفع ذو استواء، وماء ظاهر، وليس كذلك صفة الرملة؛ لأن الرملة لا ماء بها مَعِين، والله تعالىٰ ذِكْره وصف هذه الربوة بأنها ذات قرار ومَعِين)(١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَأَقْرَبُ الأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْعَوْفِيّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ٥٠﴾، قَالَ: المَعِينُ المَاءُ الجَارِي، وَهُوَ النَّهْرُ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤﴾ [مريم: ٢٤]، وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ، وقَتَادَةُ: ﴿إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ٥٠﴾: هُوَ بَيْتُ المَقْدِسِ. فَهَذَا وَاللهُ أَعْلَمُ هُوَ الأَظْهَرُ؛ لِأَنَّهُ المَذْكُورُ فِي الآيَةِ الأُخْرَىٰ. وَالقُرْآنُ يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضًا. وَهُوَ أَوْلَىٰ مَا يُفَسَّرُ بِهِ، ثُمَّ الأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ، ثُمَّ الآثَارُ)(٢).

قال الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ﴾ فَهُوَ تَنْوِيهٌ بِهِمَا إِذْ جَعَلَهُمَا اللهُ مَحَلَّ عِنَايَتِهِ وَمَظْهَرَ قُدْرَتِهِ وَلُطْفِهِ... وَالمُرَادُ بِهَذَا الإِيوَاءِ وَحْيُ اللهِ لِمَرْيَمَ أَنْ تَنْفَرِدَ بِرَبْوَةٍ حِينَ اقْتَرَبَ مَخَاضُهَا لِتَلِدَ عِيسَىٰ فِي مُنْعَزَلٍ مِنَ النَّاسِ حِفْظًا لِعِيسَىٰ مِنْ أَذَاهُمْ، وَالقَرَارُ: المكْثُ فِي المَكَانِ، أَيْ هِيَ صَالِحَةٌ لِأَنْ تَكُونَ قَرَارًا، فَأُضِيفَتِ الرَّبْوَةُ إِلَىٰ المَعْنَىٰ الحَاصِلِ فِيهَا لِأَدْنَىٰ مُلَابَسَةٍ وَذَلِكَ بِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ النَّخِيلِ المُثْمِرِ فَتَكُونُ فِي ظِلِّهِ وَلَا تَحْتَاجُ إِلَىٰ طَلَبِ قُوتِهَا، وَالمَعِينُ: المَاءُ الظَّاهِرُ الجَارِي عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ، وَهُوَ وَصْفٌ جَرَىٰ عَلَىٰ مَوْصُوفٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ مَاءٌ مَعِينٌ، لِدَلَالَةِ الوَصْفِ عَلَيْهِ كَقَوْلِهِ: ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١﴾ [الحاقة: ١١]، وَهَذَا فِي

---

(١) جامع البيان، (١٩/ ٣٧، ٣٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠، (٥/ ٤٧٧).

مَعْنَىٰ قَوْلِهِ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٤-٢٦])(١).

زمان المسيح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

نحن نقطع بأن زمان المسيح عيسىٰ ابن مريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قبل زمان النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مباشرة، ولم يكن بينهما نبيّ، لقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦].

فالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بَشَّر بني إسرائيل بخاتم المرسلين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا يشير إلىٰ أنه ليس بينهما نبي، وأصرحُ من هذه الإشارة: قولُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أنا أولىٰ الناس بعيسىٰ، الأنبياء أبناءُ عَلّات، وليس بيني وبين عيسىٰ نبي» (متفق عليه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، وفي لفظ آخر: «أنا أولىٰ الناس بعيسىٰ ابن مريم في الدنيا والآخرة» قالوا: كيف؟ قال: «الأنبياء إخوة من عَلّات، وأمهاتهم شتىٰ ودينهم واحد، فليس بيننا نبي» (متفق عليه).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: (قَوْلُهُ: «أَنَا أَوْلَىٰ النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ»، فِي رِوَايَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عَمْرَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «بِعِيسَىٰ ابن مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ» أَيْ أَخَصُّ النَّاسِ بِهِ وَأَقْرَبُهُمْ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ بَشَّرَ بِأَنَّهُ يَأْتِي مِنْ بَعْدِهِ، قَالَ الْكِرْمَانِيُّ: التَّوْفِيقُ بَيْنَ هَذَا الْحَدِيثِ وَبَيْنَ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [آل عمران: ٦٨] أَنَّ الْحَدِيثَ وَارِدٌ فِي كَوْنِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَتْبُوعًا وَالْآيَةُ وَارِدَةٌ فِي كَوْنِهِ تَابِعًا كَذَا قَالَ، وَمَسَاقُ الْحَدِيثِ كَمَسَاقِ الآيَةِ فَلَا دَلِيلَ عَلَىٰ هَذِهِ التَّفْرِقَةِ وَالْحَقُّ أَنَّهُ

---

(١) التحرير والتنوير، (١٨/ ٦٧).

لَا مُنَافَاةَ لِيُحْتَاجَ إِلَىٰ الجَمْعِ، فَكَمَا أَنَّهُ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ هُوَ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِعِيسَىٰ ذَاكَ من جِهَةِ قُوَّةِ الاقتداء بِهِ وَهَذَا مِنْ جِهَةِ قُوَّةِ قُرْبِ العَهْدِ بِهِ.

قَوْلُهُ: «وَالْأَنْبِيَاءُ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ» فِي رِوَايَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ المَذْكُورَةِ: «وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ»، وَالعَلَّاتُ بِفَتْحِ المُهْمَلَةِ: الضَّرَائِرُ، وَأَصْلُهُ أَنَّ مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً ثُمَّ تَزَوَّجَ أُخْرَىٰ كَأَنَّهُ عَلَّ مِنْهَا، وَالعَلَلُ الشُّرْبُ بَعْدَ الشُّرْبِ، وَأَوْلَادُ العَلَّاتِ الإِخْوَةُ مِنَ الأَبِ وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّىٰ، وَقَدْ بَيَّنَهُ فِي رِوَايَة عبد الرَّحْمَن فَقَالَ: «وأمهاتهم شَتَّىٰ وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ» وَهُوَ مِنْ بَابِ التَّفْسِيرِ كَقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ١٩- ٢١].

وَمَعْنَىٰ الحَدِيثِ: أَنَّ أَصْلَ دِينِهِمْ وَاحِدٌ وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ فُرُوعُ الشَّرَائِعِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ أَنَّ أَزْمِنَتَهُمْ مُخْتَلِفَةٌ، قَوْلُهُ: «لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ» هَذَا أَوْرَدَهُ كَالشَّاهِدِ لِقَوْلِهِ إِنَّهُ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهِ وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ آدَمَ: «وَأَنَا أَوْلَىٰ النَّاسِ بِعِيسَىٰ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ»، وَاسْتُدِلَّ بِهِ عَلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يُبْعَثْ بَعْدَ عِيسَىٰ أَحَدٌ إِلَّا نَبِيُّنَا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وَفِيهِ نَظَرٌ، لِأَنَّهُ وَرَدَ أَنَّ الرُّسُلَ الثَّلَاثَةَ الَّذِينَ أُرْسِلُوا إِلَىٰ أَصْحَابِ القَرْيَةِ المَذْكُورَةِ قِصَّتُهُمْ فِي سُورَةِ يس كَانُوا مِنْ أَتْبَاعِ عِيسَىٰ، وَأَنَّ جرجيس وَخَالِدَ بْنَ سِنَانٍ كَانَا نَبِيَّيْنِ وَكَانَا بَعْدَ عِيسَىٰ.

وَالجَوَابُ: أَنَّ هَذَا الحَدِيثَ يُضَعِّفُ مَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ صَحِيحٌ بِلَا تَرَدُّدٍ وَفِي غَيْرِهِ مَقَالٌ، أَوِ المُرَادُ أَنَّهُ لَمْ يُبْعَثْ بَعْدَ عِيسَىٰ نَبِيٌّ بِشَرِيعَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ، وَإِنَّمَا بُعِثَ بَعْدَهُ مَنْ بُعِثَ بِتَقْرِيرِ شَرِيعَةِ عِيسَىٰ، وَقِصَّةُ خَالِدِ بْنِ سِنَانٍ أَخْرَجَهَا الحَاكِمُ فِي «المُسْتَدْرك» من حَدِيث ابن عَبَّاسٍ، وَلَهَا طُرُقٌ جَمَعْتُهَا فِي تَرْجَمَتِهِ فِي كتابي فِي الصَّحَابَة)(١).

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط. دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، (٦/ ٤٨٩).

قلت: نعم جمع الحافظ رَحِمَهُٱللَّهُ في كتابه «الإصابة في تمييز الصحابة» طرق قصة خالد بن سنان، وأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال عنه: «ذاك نبيّ ضيعه قومه»، وبين أن طرقه كلها معلولة، ومع ضعفه فهو مردود بحديث البخاري السابق، كما أشار الحافظ رَحِمَهُٱللَّهُ، وقد ضعفه أيضًا ابن كثير والهيثمي، وجمع الكلامَ عنه العلامةُ الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ فقال: «ذاك نبي ضيعه قومه، يعنىٰ خالد بن سنان»، لا يصح، أخرجه الحاكم (٢/ ٥٩٨ - ٥٩٩)، وكذا أبو يعلىٰ من طريق المعلىٰ بن مهدي حدثنا أبو عوانة عن أبي يونس قال سماك بن حرب: سئل عنه يعني خالد بن سنان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: فذكره، وهذا إسناد ضعيف لإرساله، والمعلىٰ بن مهدي ضعفه أبو حاتم قال: يأتي أحيانًا بالمناكير، وقال الهيثمي (٨/ ٢١٤): هذا منها.

قلت: ورواه الطبراني (٣/ ١٥٤/ ١) وكذا البزار (٢٣٦١ - زوائده) وابن عدي (٢٧١/ ٢) وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ١٨٧) من طريق قيس بن الربيع عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعا، قال البزار: لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه، وكان قيس بن الربيع ثقة في نفسه إلا أنه كان رديء الحفظ، وكان له ابن يُدْخِلُ في حديثه ما ليس منه، قال: وقد رواه الثوري عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير مرسلًا، ذكره ابن كثير في «البداية» (٢/ ٢١١)، وقال ابن عدي: لم يوصله فقال فيه عن ابن عباس غير ابن الربيع، ثم قال ابن كثير: وهذه المرسلات لا يحتج بها ها هنا، وقال في موضع آخر (٢/ ٢٧١) : لا يصح.

قلت: وقد وجدته موصولًا أخرجه الخطيب في «تلخيص المتشابه» (١٣/ ١٤٨ - ١٤٩) عن محمد بن عمير حدثني عمرو بن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدي حدثني جدي إبراهيم بن العلاء، أخبرنا أبو محمد القرشي

الهاشمي، أخبرنا هشام بن عروة عن أبيه عن أبي عمارة بن حزن بن شيطان مرفوعًا به، وقال الخطيب: في إسناده نظر. قلت: ولعل وجهه أن فيه جماعة لم أعرفهم، منهم القرشي هذا، وانظر: «الإصابة» (٢/ ٥٠٧).

وروي من حديث عائشة أخرجه المخلص في «الفوائد المنتقاة» (٤/ ١٧٦) عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن عائشة مرفوعًا به، لكن الكلبي كذاب، قلت: ومع ضعف الحديث فإنه معارِض -كما قال الهيثمي (٨/ ٢١٤)- للحديث الصحيح: «أنا أولىٰ الناس بعيسىٰ بن مريم، الأنبياء إخوة لعلات، وليس بيني وبينه نبي» رواه البخاري في «صحيحه» (٦/ ٣٨٠) ومسلم (٧/ ٩٦)(١).

وفي «الصحيحين» من حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا أَدَّبَ الرجلُ أَمَته فأحسن تأديبها وعلّمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها فتزوجها كان له أجران، وإذا آمن بعيسىٰ ثم آمن بي فله أجران، والعبد إذا اتقىٰ ربه وأطاع مواليه فله أجران»، قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ عِيسَىٰ وَبَيْنَ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَبِيٌّ)(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾[المائدة:١٩].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخَاطِبًا أَهْلَ الكِتَابِ مِنَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ: إِنَّهُ قَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، الَّذِي لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ وَلَا رَسُولَ بَلْ هُوَ المُعقبُ لِجَمِيعِهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أَيْ: بَعْدَ مُدَّةٍ

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة، (١/ ٤٤٩)، الحديث رقم: (٢٨).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط. دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، (٦/ ٤٩٠).

مُتطَاوِلَةٍ مَا بَيْنَ إِرْسَالِهِ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ، وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي مِقْدَارِ هَذِهِ الْفَتْرَةِ، كَمْ هِيَ؟ فَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ النَّهْدِيّ وَقَتَادَةُ -فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ-: كَانَتْ سِتَّمِائَةِ سَنَةً، وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ(١)، وَعَنْ قَتَادَةَ: خَمْسُمِائَةٍ وَسِتُّونَ سَنَةً، وَقَالَ مَعْمَر، عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ: خَمْسُمِائَةٍ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً، وَقَالَ: الضَّحَّاكُ: أَرْبَعُمِائَةٍ وَبِضْعٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً، وَذَكَرَ ابْنُ عَسَاكِرَ فِي تَرْجَمَةِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ قَالَ: ومِنْ رَفْعِ المَسِيحِ إِلَىٰ هِجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِسْعُمِائَةٍ وَثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً.

وَالمَشْهُورُ هُوَ الْأَوَّلُ، وَهُوَ أَنَّهُ سِتُّمِائَةِ سَنَةٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: سِتُّمِائَةٍ وَعِشْرُونَ سَنَةً، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ القَائِلَ الْأَوَّلَ أَرَادَ سِتَّمِائَةِ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ، وَالآخَرَ أَرَادَ قَمَرِيَّةً، وَبَيْنَ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ وَبَيْنَ القَمَرِيَّةِ نَحْوٌ مَنْ ثَلَاثِ سِنِينَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الكَهْفِ: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف: ٢٥] أَيْ: قَمَرِيَّةً، لِتَكْمِيلِ الثَّلَاثِمِائَةِ الشَّمْسِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ مَعْلُومَةً لِأَهْلِ الكِتَابِ، وَكَانَتِ الفَتْرَةُ بَيْنَ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ، آخرِ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ، كَمَا ثَبَتَ فِي «صحيح البخاري» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ لَأَنا؛ لِأَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ» هَذَا فِيهِ رَدٌّ عَلَىٰ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ بُعِثَ بَعْدَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيٌّ، يُقَالُ لَهُ: خَالِدُ بْنُ سِنَانٍ، كَمَا حَكَاهُ القُضَاعِيُّ وَغَيْرُهُ)(٢).

---

(١) عن سلمان قال: فترةٌ بين عيسىٰ ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ستمائة سنة، (صحيح البخاري- آخر باب فضائل أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الحديث رقم: ٣٧٣٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠، (٣/ ٧٠).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَقَدِ اتَّفَقَ أَهْلُ النَّقْلِ عَلَىٰ أَنَّ مُدَّةَ الْيَهُودِ إِلَىٰ بَعْثَةِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفَيْ سَنَةٍ وَمُدَّةَ النَّصَارَىٰ مِنْ ذَلِكَ سِتُّمِائَةٍ، وَقِيلَ: أَقَلّ)(١).

هل وُلد المسيح عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ **في الشتاء؟**

ظاهر كلام الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وُلِد في فصل الصيف، فإن الله قال: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ [مريم: ٢٣] ولو كان الجو شتاءً لأوشكتْ أن تلجأ إلىٰ مكان غيرِ مكشوف ليحميها من البرد الذي يكون معه جليد في بلاد الشام، وقول الله: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم: ٢٥] يدل علىٰ أن ذلك في فصل الصيف حيث الرُطَب، وقول الله: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤﴾ [مريم: ٢٤] والسريّ هو الجدول الصغير من الماء، يوحي بأن الجو صائف والماء يسري في جدوله، وهي في حاجة إليه مع الرطب، فإن الحاجة إلىٰ الماء تقِلّ في فصل الشتاء لا سيما مع برودته الشديدة التي قد تصل إلىٰ حدّ التجمّد في بلاد الشام.

وأما الزعم بأن النخلة أخرجت ثمرها وأرطبت في نفس الوقت ولم يكن الوقتُ وقتَ رطب، وأن ذلك من كرامات مريم عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ، فإنه كلام يفتقر إلىٰ الدليل، ولو وقع ذلك علىٰ جهة الكرامة لأوشك أن يذكره الله في تَعداد نعمه علىٰ مريم عَلَيۡهَاٱلسَّلَامُ، وآياته في ميلاد المسيح عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، مع أن سقوط الرطب بسبب هزّ جذع النخلة من امرأة نُفساء من الكرامات وخوارق العادات لِمن تدبره، فإن جذع النخلة لا يقوىٰ علىٰ هزّه الرجل القويّ فضلًا عن أن يهزه هزًا يسقط بسببه الرطب!

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط. دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، (٤/ ٤٤٩).

وفي كتب النصارىٰ- أيضًا - ما يدل علىٰ أن مولد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ كان شتاءً، ففي إنجيل لوقا (٢: ٦-٩): «وبينما كانا هناك تَمَّ زمانها لتلد ابنها البكر... وكان في تلك المنطقة رعاة يبيتون في العراء يتناوبون حراسة قطيعهم في الليل...» وهذا أمر غير معقول أن يكون في برد الشتاء حين يأوي الرعاة بأغنامهم إلىٰ البيوت لِتُكِنَّهُم وأغنامَهم من البرد القارس، ولا يبيتون بأغنامهم في العراء، وقد أشار إلىٰ هذا الأمر كاتبو دائرة المعارف الكتابية في مادة (أزمنة العهد الجديد) بل ذكروا أن الكنيسة الغربية اختارت يوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر للاحتفال بميلاد المسيح لأن هذا اليوم كان الرومان يحتفلون فيه بعيد إله الشمس، وأن الكنيسة أرادت تحويل العادات الوثنية إلىٰ يوم لعبادة المسيح، ونحو ذلك في دائرة المعارف البريطانية، ودائرة المعارف الكاثوليكية، ودائرة المعارف العالمية ودائرة المعارف الدينية والأدبية لـ(جيمس هاستينغ)(١).

طفولة المسيح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

الأصل أن المسيح عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ كان في طفولته كغيره من الأطفال غيرَ أنه اختص بكلامه في المهد ليبرئ أمه عَلَيْهَا السَّلَامُ، وأما قوله في المهد: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: ٣٠] فالمعنىٰ أن الله قضىٰ بذلك، وليس المعنىٰ أنه صار نبيًّا وهو في المهد، كما رجح ذلك الطبري والقرطبي وابن كثير والشنقيطي، وهو قول عكرمة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي قضىٰ أن يؤتيني الكتاب فيما قضىٰ.

---

(١) انظر حول هذا الأمر: (بيان خطأ التاريخ الميلادي وإثبات أن عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ ولد صيفًا لا شتاءً)، عادل بن عبدالعزيز الجليفي، ط. دار ابن الجوزي- الطبعة الأولىٰ، ١٤٣١). وانظر لمزيدٍ من المعلومات: النصرانية والإسلام، محمد عزت الطهطاوي، ط. مكتبة النور، الطبعة الثانية، ١٤٠٦، ص (٢٤١-٢٤٤)، ودوائر المعارف الكاثوليكية، والبريطانية، والأمريكية، وكتاب (الحقيقة المجردة عن عيد الميلاد) لـ«هربرت أرمسترونج».

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقوله: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يقول القائل: أَوَ آتاه الكتابَ والوحيَ قبل أن يُخلَق في بطن أمه؟! فإن معنىٰ ذلك بخلاف ما يظنّ، وإنما معناه: وقضىٰ يوم قضىٰ أمورَ خلقه إليّ(١) أن يؤتيني الكتاب، كما حدثني بشر بن آدم، قال: ثنا الضحاك، يعني ابن مخلد، عن سفيان، عن سماك، عن عكرمة ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ قال: قضىٰ أن يؤتيني الكتاب فيما مضىٰ، حدثنا محمد ابن بشار، قال: ثنا أبو عاصم، قال: أخبرنا سفيان، عن سماك، عن عكرمة، في قوله: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [مريم: ٣٠] قال: القضاء، حدثنا الحسن، قال: أخبرنا عبد الرزّاق، عن إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، في قوله: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [مريم: ٣٠]، قال: قضىٰ أن يؤتيني الكتاب)(٢).

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَالكِتَابُ الإِنْجِيلُ، قِيلَ: آتَاهُ فِي تِلْكَ الحَالَةِ الكِتَابَ، وَفَهَّمَهُ وَعَلَّمَهُ، وَآتَاهُ النُّبُوَّةَ كَمَا علم آدم الأَسْمَاءَ كُلَّهَا، وَكَانَ يَصُومُ وَيُصَلِّي، وَهَذَا فِي غَايَةِ الضَّعْفِ... وَقِيلَ: أَيْ حَكَمَ لِي بِإِيتَاءِ الكِتَابِ وَالنُّبُوَّةِ فِي الأَزَلِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الكِتَابُ مُنَزَّلًا فِي الحَالِ، وَهَذَا أَصَحُّ)(٣).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَرُوِيَ أَنَّ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا تَكَلَّمَ فِي طُفُولَتِهِ بِهَذِهِ الْآيَةِ، ثُمَّ عَادَ إِلَىٰ حَالَةِ الأَطْفَالِ، حَتَّىٰ مَشَىٰ عَلَىٰ عَادَةِ البَشَرِ إِلَىٰ أَنْ بَلَغَ مَبْلَغَ الصِّبْيَانِ فَكَانَ نُطْقُهُ إِظْهَارَ بَرَاءَةِ أُمِّهِ لَا أَنَّهُ كَانَ مِمَّنْ يَعْقِلُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ، وَهُوَ كَمَا يُنْطِقُ اللهُ تَعَالَىٰ الْجَوَارِحَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَلَمْ يُنْقَلْ أَنَّهُ دَامَ نُطْقُهُ، وَلَا أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي وَهُوَ ابْنُ يَوْمٍ أَوْ شَهْرٍ، وَلَوْ كَانَ يَدُومُ نُطْقُهُ وَتَسْبِيحُهُ وَوَعْظُهُ وَصَلَاتُهُ فِي صِغَرِهِ مِنْ وقت الولاد لَكَانَ مِثْلُهُ مِمَّا

(١) أي قضىٰ عليّ، كقول الله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[الإسراء: ٤].

(٢) جامع البيان، (١٨/ ١٩٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، (١١/ ١٠٣).

لَا يَنْكَتِمُ، وَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ فَسَادِ الْقَوْلِ الأَوَّلِ، وَيُصَرِّحُ بِجَهَالَةِ قَائِلِهِ. وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَىٰ أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي الْمَهْدِ خِلَافًا لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ. وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ ذَلِكَ إِجْمَاعُ الْفِرَقِ عَلَىٰ أَنَّهَا لَمْ تُحَدَّ، وإنما صحّت براءتها من الزنىٰ بِكَلَامِهِ فِي الْمَهْدِ)(١).

وقال الشنقيطي رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ: ﴿ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: ٣٠]، التَّحْقِيقُ فِيهِ إِنْ شَاءَ اللهُ: أَنَّهُ عبر بالماضي عما سيقع في المستقبل تنزيلًا لتحقُّق الوقوع منزلةَ الوقوع، ونظائره في القرآن كثيرة كقوله تعالىٰ: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] وقوله تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٨- ٧٠] إلىٰ قوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [الزُّمَر: ٧١] وقوله تعالىٰ: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾ [الزُّمَر: ٧٣] فهذه الأفعال الماضية المذكورة في الآيات بمعنىٰ المستقبل تنزيلًا لتحقق وقوعه منزلة الوقوع بالفعل ونظائرها كثيرة في القرآن، وهذا الذي ذكرنا من أن الأفعال الماضية في قوله تعالىٰ: ﴿ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إلخ، بمعنىٰ المستقبل هو الصواب إن شاء الله خلافًا لمن زعم أنه نُبِّئ وأوتي الكتاب في حال صباه، لظاهر اللفظ)(٢).

وقد رعىٰ المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ الغنمَ كغيره من الأنبياء كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ما بعث الله نبيًّا إلا ورعىٰ الغنم» (رواه البخاري)، ولعل الحكمة في ذلك تدريبهم علىٰ سياسة الناس وقيادتهم وتعلم التواضع، وليس عندنا من العلم عن طفولة السيد المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ غير هذا، وما سبق من صفاته الملازمة له من كونه مباركًا أينما كان، وبارًّا بوالدته، وأنه لم يكن جبارًا شقيًّا، صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، (١١/ ١٠٣).

(٢) أضواء البيان، (٣/ ٤١٦).

الفصل الثاني

دعوة المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

إلىٰ أيِّ شيء كان يدعو المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ وما هي المهمة التي خلقه الله وأرسله من أجلها؟

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [المائدة: ٧٥]، فهو رسولٌ كغيره من المرسلين، ودعوته هي نفسها دعوة إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وخلاصة دعوة المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ:

١ – الدعوة إلىٰ توحيد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وعبادته وحده لا شريك له:

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: ١١٦ – ١٢٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: ٥٠ – ٥١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦٤﴾﴾ [الزُّخرُف: ٦٣- ٦٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَقَوْلُهُ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أَيْ: فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦٤﴾﴾ أَيْ: أَنَا وَأَنْتُم عَبِيدٌ لَهُ، فُقَرَاءُ إِلَيْهِ، مُشْتَرِكُونَ فِي عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦٤﴾﴾ أَيْ: هَذَا الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ عِبَادَةُ الرَّبِّ عَزَّوَجَلَّ، وَحْدَهُ)(١).

وهذه هي دعوة كل الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فالتوحيد هو لُبّ دعوتهم جميعًا: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾ [المؤمنون: ٣٢]، كما قال الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: (وبعث في كل أمة رسولًا أي في كل قرن من الناس وطائفةٍ رسولًا وكلهم يدعو إلىٰ عبادة الله، وينهىٰ عن عبادة ما سواه ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦] فلم يزل تعالىٰ يرسل إلىٰ الناس الرسل بذلك، منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح، وكان أول رسول بعثه الله إلىٰ أهل الأرض- إلىٰ أن ختمهم بمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالىٰ:

(١) تفسير القرآن العظيم، (٧/ ٢٣٧).

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزُّخرُف: ٤٥]، وقال تعالىٰ في هذه الآية الكريمة : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦])(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ: (يقول تعالىٰ ذكره: وما أرسلنا يا محمد من قبلك من رسول إلىٰ أمة من الأمم إلا نوحي إليه أنه لا معبود في السماوات والأرض، تصلح العبادة له سواي فاعبدون يقول: فأخلِصوا لي العبادة، وأفردوا لي الألوهية)(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورىٰ: ١٣].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: (يَقُولُ تَعَالَىٰ لِهَذِهِ الأُمَّةِ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾، فَذَكَرَ أَوَّلَ الرُّسُلِ بَعْدَ آدَمَ وَهُوَ نُوحٌ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وَآخِرَهُمْ وَهُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ثُمَّ ذَكَرَ مِنْ بَيْنِ ذَلِكَ مِنْ أُولِي الْعَزْمِ وَهُمْ: إِبْرَاهِيمُ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ، وَهَذِهِ الآيَةُ انْتَظَمَتْ ذِكْرَ الْخَمْسَةِ كَمَا اشْتَمَلَتْ آيَةُ الأَحْزَابِ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧] الآية، وَالدِّينُ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، (٤/ ٥٧٠).

(٢) جامع البيان، (١٨/ ٤٢٧).

كُلُّهُمْ هُوَ: عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[الأنبياء: ٢٥].

وفي الحديث: «نَحْنُ مَعْشَرَ الأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَّاتٍ دِينُنَا وَاحِدٌ» أَيِ: القَدْرُ المُشْتَرَكُ بَيْنَهُمْ هُوَ عِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ شَرَائِعُهُمْ وَمَنَاهِجُهُمْ، كَقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة: ٤٨]؛ وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[الشورى: ١٣] أَيْ: وَصَّى اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جَمِيعَ الأَنْبِيَاءِ، عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ، بِالِائْتِلَافِ وَالجَمَاعَةِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الِافْتِرَاقِ وَالِاخْتِلَافِ)(١)، وما زال في كتب النصارى أن المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قال لهم: «للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد» (متى ٤: ١٠).

٢- الدعوة إلى تقوى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ:

قال تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾[آل عمران: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾[الزخرف: ٦٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَقَوْلُهُ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أَيْ: فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ، ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ،)(٢).

٣- الإيمان بأن عيسى صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رسول الله:

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾[المائدة: ١١١].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، (٧/ ١٩٤، ١٩٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم، (٧/ ٢٣٧).

قال أبو جعفر ابن جرير الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ: (فتأويلُ الكلام إذًا: وإذْ ألقيتُ إلىٰ الحواريين أنْ صدَّقوا بي وبرسولي عيسىٰ، فقالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ أي: صدّقْنا بما أمرتَنا أن نؤمنَ يا ربنا ﴿وَٱشْهَدْ﴾ علينا ﴿بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾، يقول: واشهد علينا بأننا خاضِعُون لك بالذّلة، سامعون مطيعُون لأمرك(١).

قال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: (ثُمَّ قِيلَ: المُرَادُ بِهَذَا الوَحْيِ وَحْيُ إِلهَامٍ... وَهَكَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ أَيْ: بِاللهِ وَبِرَسُولِ اللهِ ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ أَيْ: أُلْهِمُوا ذَلِكَ فَامْتَثَلُوا مَا أُلْهِمُوا، قَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: أَلْهَمَهُمُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ذَلِكَ، وَقَالَ السُّدِّي: قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ ذَلِكَ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ: وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَيْهِمْ بِوَاسِطَتِكَ، فَدَعَوْتَهُمْ إِلَىٰ الإِيمَانِ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ، وَاسْتَجَابُوا لَكَ وَانْقَادُوا وَتَابَعُوكَ، فَقَالُوا: ﴿ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾[المائدة: ١١١] (٢).

ومما بقي في كتب النصارىٰ من المعاني الصحيحة أن المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قال لهم: «هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحق وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يوحنا ١٧: ٣) فالمسيح يعلمهم أنه لا إله إلا الله وأن عيسىٰ رسول الله، ومما بقي في كتبهم: «فقال لهم يسوع بصوت عالٍ: من يؤمن بي فهو يؤمن لا بي بل بالذي أرسلني» (يوحنا ١٢: ٤٤)، «للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد» (متىٰ ٤: ١٠)، «لأني نقلت إليهم الوصايا التي أوصيتني بها فقبلوها وعرفوا حقًّا أني خرجت من عندك وآمنوا أنك أرسلتني» (يوحنا ١٧: ٨)، «وكما أرسلتني أنت إلىٰ العالم أرسلتهم أنا أيضًا إليه» (يوحنا ١٧: ١٨).

---

(١) جامع البيان، (١١/ ٢١٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم، (٣/ ٢٢٤).

٤- الدعوة إلىٰ طاعة المسيح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

كما حكىٰ الله عنه أنه قال: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران: ٥٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ [الزُّخرُف: ٦٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلُهُ: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أَيْ: فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ، ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ فِيمَا جِئْتُكُمْ بِهِ)(١).

وهي دعوة كل إخوانه من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ [نوح: ٣]، فإن الرسول إنما يرسله الله ليعلّم الناس دينهم، فلا بد من طاعته لأنه رسول الله، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء: ٦٤].

قال أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: (يعني بذلك جل ثناؤه: ولم نرسل، يا محمد، رسولًا إلا فرضتُ طاعته علىٰ من أرسلته إليه)(٢).

وقال الشيخ عبد الرحمن السّعديّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (يخبر تعالىٰ خبرًا في ضمنه الأمر والحثّ علىٰ طاعة الرسول والانقياد له وأن الغاية من إرسال الرسل أن يكونوا مطاعين ينقاد لهم المرسَلُ إليهم في جميع ما أمروا به ونهوا عنه، وأن يكونوا

---

(١) تفسير القرآن العظيم، (٧/ ٢٣٧).

(٢) جامع البيان، (٨/ ٥١٥).

معظِّمين تعظيم المطيع للمطاع، وفي هذا إثبات عصمة الرسل فيما يبلغونه عن الله، وفيما يأمرون به وينهون عنه؛ لأن الله أمر بطاعتهم مطلقًا، فلولا أنهم معصومون لا يشرعون ما هو خطأ، لما أمر بذلك مطلقًا)(١).

٥- إقامة دين الله:

كما دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشورى:١٣].

وقال الله تعالى على لسان المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢﴾ [مريم: ٣١- ٣٢].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله: ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ يقول: وقضى أن يوصيني بالصلاة والزكاة، يعني المحافظة على حدود الصلاة وإقامتها على ما فرضها عليّ. وفي الزكاة معنيان: أحدهما: زكاة الأموال أن يؤدّيها. والآخر: تطهير الجسد من دنس الذنوب؛ فيكون معناه: وأوصاني بترك الذنوب واجتناب المعاصي)(٢).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠، (ص١٨٤).
(٢) جامع البيان، (١٨/ ١٩٠).

٦- تجديد دعوة موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [آل عمران: ٥٠]:

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ، كُلَّما هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وإنَّه لا نَبِيَّ بَعْدِي...» (متفق عليه)، وربما يكون النبيان والثلاثة في وقت واحد، كما اجتمع زكريا ويحيىٰ وعيسىٰ في زمن واحد، وكان النبيُّ منهم إذا مات وغيّر الناسُ بعده وبدّلوا أرسل الله إليهم رسولًا يجدّدُ لهم أمر دينهم ويرُدّهم إلىٰ الصراط المستقيم.

وهكذا جاء عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مجددًا لدعوة أخيه موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومصدّقًا لما بين يديه من التوراة، وليخفّف- بإذن ربه- عن بني إسرائيل بعضَ الأحكام الشرعية، وليبين لهم الحق فيما اختلفوا فيه، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ في وصف المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران: ٥٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ [الزُّخرُف: ٦٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: ٨٧].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ: (والكتاب الذي آتاه الله موسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، هو التوراة، وأما قوله: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾، فإنه يعني: وأردفنا وأتبعنا بعضهم خلف بعض، كما يقفو الرجلُ الرجلَ إذا سار في أثره من ورائه وأصله من «القفا»، يقال منه: قفوت فلانًا: إذا صِرْتُ خلف قفاه، كما يقال: «دَبَرْتُه»: إذا صرت في دبره، ويعني بقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، من بعد موسىٰ، ويعني بـ(الرسل): الأنبياء، وهم جمع «رسول». يقال: «هو رسول وهم رسل»، كما يقال: هو صبور وهم قوم صُبُر، وهو رجل شكور وهم قوم شُكُر، وإنما يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾، أي أتبعنا بعضهم بعضا علىٰ منهاج واحد وشريعة واحدة، لأن كل مَن بعثه الله نبيًّا بعد موسىٰ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلىٰ زمان عيسىٰ ابن مريم، فإنما بعثه يأمر بني إسرائيل بإقامة التوراة، والعمل بما فيها، والدعاء إلىٰ ما فيها، فلذلك قيل: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾، يعني علىٰ منهاجه وشريعته، والعمل بما كان يعمل به)(١).

وفي كتب النصارىٰ تصريح المسيح لهم أنه لم يأتِ لإلغاء أحكام التوراة بل ليكمّلها، كما في إنجيل متىٰ (٥: ١٧): «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمّل».

٧- رفع بعض الآصار عن بني إسرائيل: كما مرّ في الآية السابقة في قول الله تعالىٰ: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]. فالأصل أن عيسىٰ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان علىٰ شريعة موسىٰ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ متّبعًا للتوراة التي أنزلها الله علىٰ موسىٰ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولم يأتِ بشريعةٍ جديدةٍ، لكنَّ الله أرسله بنسخ بعض الشرائع التي كان الله سبحانه فرضها علىٰ بني إسرائيل عقوبةً لهم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا

(١) جامع البيان، (٢/ ٣١٨).

وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ النَّاسِ بِالْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ [النساء: ١٦٠- ١٦٢].

فجاء المسيح صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رحمةً من الله لهم ليحلّ لهم بعض ما حُرّم عليهم، بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وليردّ الشاردين منهم إلىٰ دين الله عَزَّ وَجَلَّ ويجددَ لهم أمرَ دينهم.

٨- ورسولًا إلىٰ بني إسرائيل:

كانت دعوة المسيح صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصّةً ببني إسرائيل، كما قال الله تعالىٰ علىٰ لسان المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْـَٔةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْىِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى اسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِالْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦].

فرسالة المسيح صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت خاصة ببني إسرائيل وحدهم، وفي كتب النصارىٰ نَصَّ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ علىٰ هذا الأمر كما في إنجيل متىٰ (١٥: ٢٤) ويوحنا (١: ١١): «لم أُرسَلْ إلا إلىٰ خراف بيت إسرائيل الضالة»، وأوصَىٰ تلاميذه بذلك قائلًا: «إلىٰ طريق أممٍ لا تمضوا وإلىٰ مدينةٍ للسامريين لا تدخلوا بل اذهبوا بالحريّ إلىٰ خرافِ بني إسرائيل الضالة». (متىٰ ١٠: ٥-٧).

وهكذا كان كل الأنبياء والمرسلين قبل محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أعطيت خمسًا لم يُعطَهن أحدٌ من الأنبياء قبلي... وكان النبي

يبعث إلىٰ قومه خاصة، وبُعثت إلىٰ الناس كافة...» متفق عليه من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهذا من خصائصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه لا نبيَّ بعده.

وكان عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ آخرَ أنبياء بني إسرائيل، وليس بينه وبين النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيٌّ آخر، كما مرّ.

٩- ومبشرًا برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد:

من مهامّ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يبشّر بخاتم المرسلين رسولِ آخر الزمان محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يمهّد الطريق أمامه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٦﴾ [الصف: ٦].

وقد كرر عيسىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلامه لهم -كما في كتبهم حتىٰ الآن- حول الملكوت الذي سيُنزَع منهم ويعطىٰ لأمة غيرهم تعمل أثماره، وبشارته لهم بأن آتيًا سيأتي من بعده يعلّمهم بحقيقة الحال، وينزّه المسيحَ عما افتُري عليه، وأن شرعه وتعليمه يبقىٰ إلىٰ الأبد، وأن هذا الآتي لا يتكلم من عند نفسه، وقد جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبَيَّن لهم أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يُصلب وأنه حيّ في السماء، وبرأه من دعاوىٰ النصارىٰ وبرأه وأمه من افتراء اليهود وشهد لعيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بالنبوة والرسالة وأنه لم يُرفع حتىٰ بلّغهم الدين، ولم يأت أحدٌ بعد عيسىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الصفة إلا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان ينبغي لمن يعقل منهم أن يسأل نفسه عن هذا الآتي الذي أخبر عنه المسيح، ولم يأت علىٰ الصفة التي قال لهم، وأن يسأل نفسه عن السرّ في انقطاع النبوة بعد عيسىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولماذا ترك الله عباده بلا رسول يبين لهم الحق ويرشدهم إلىٰ الهدىٰ!

وبالرغم من تحريفهم للكتاب فقد شاء الله أن تبقىٰ إشارات كثيرة لم تحرَّف تحريفًا تامًّا، وما بقي في كتبهم مما يشهد للنبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، يكفي الباحثَ عن الحقّ، ولكنهم قوم بهت.

وقد كان اسم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في كتبهم كما أخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ أن المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال لهم: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾[الصف: ٦] ولعلها هي لفظة (بيروكلوتوس) باليونانية، فصاروا يحرفون اللفظ ويكتبون حروفه في العربية والإنجليزية بغير ترجمة، ثم قالوا: إنها (بيركليت) ومعناها الحمد أو الذي له الحمد الكثير، ثم قالوا: بل هي (باركلي توس) ومعناها المعزي، ثم حذفوها من الترجمات العربية وكتبوا مكانها (المعزي)، وحرفوا النصوص وأضافوا إليها وحذفوا منها، والمخطوطات شاهدة عليهم، بل الترجمات الإنجليزية والفرنسية وغيرها شاهدة علىٰ بعض تحريفهم، ثم زعموا أنه هو الروح القدس وأنه نزل علىٰ الحواريين بعد الصلب المزعوم، مع أن النص يتكلم عن شخص (يرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكّركم ما قلته لكم) (يوحنا ١٤: ٢٥-٢٦).

والروح القدس عندهم أحد أقانيم (شركة الآلة المتحدة) فهو مساوٍ للآب ولا يحتاج لأن يرسله، ثم إنه لم يعلّم الحواريين شيئًا، ولم يكونوا نسوا شيئًا ليذكرهم به، وهم حديثو عهدٍ بالمسيح عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ.

وقد وصَفَه بأنه (روح الحق من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي) (يوحنا ١٥: ٢٧)، وبغض النظر عن تعمّد التحريف، وعدم دقة الترجمة إلا أنه يبقىٰ سؤال واضح وهو متىٰ شهد روح القدس لنفسه أعني لثُلُثه أقصد المسيح؟!! وبم شهد؟!

والمسيح عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ يُخبرهم أن الآتي بعده لن يأتي إلا بعد أن يذهب هو (لكني أقول لكم الحق أنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي... وأما

متىٰ جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلىٰ جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم) (يوحنا١٦: ٧-١١)، والروح القدس عندهم لا يفارق شَريكَيْه الآخرَيْن حتىٰ يذهب ثلثه ليأتي الثلث، ولم يرشد إلىٰ شيء ولم يخبر بأي شيء ولم يمجّد المسيح، والروح القدس عندهم يتكلم من قبل نفسه لأنه إله كامل كما يزعمون، بينما محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تنطبق عليه كل الصفات المذكورة وهو الذي مَجَّدَ المسيح وبرأه وشهد له وعلم الناس كل الحق وشريعته باقية إلىٰ الأبد وكتابه باقٍ لم ولن يُحَرَّف، ولم يكن يتكلم من قِبل نفسه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقبل ذلك كله فإنه من درس اللغة اليونانية عرف أن لفظة (باركليتوس) أو (بيروكليتوس) في الأصل اليوناني في آخرها حرف السين وهو لا يدخل إلا علىٰ الأسماء ولا يلحق بالصفات لا المعزي ولا الوكيل ولا غيرها، وقد شهد علماؤهم بأنه اسم مُذَكَّر وليس صفة، وقد أمرهم المسيح بالإيمان بالآتي بعده، وقد كانوا - علىٰ زعم النصارىٰ- مؤمنين بالروح القدس وأنه ثُلث الإله المثلث!

ومن ذلك أيضًا قول المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

- «إن لي أمورًا كثيرةً أيضًا لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متىٰ جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلىٰ جميع الحقّ لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية، ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم» (يوحنا ١٦:١٢-١٤).

- «ثم رأيت السماء مفتوحة، وإذا حصان أبيض يسمىٰ راكبه باسم (الصادق الأمين) الذي يقضي ويحارب بالعدل» (سفر الرؤيا ١٩: ١١).

- «لا يزول صولجان من يهوذا أو مشترع من قدميه حتىٰ يأتي شيلوه وله يكون خضوع الشعوب» (التكوين ٤٩: ١٠)، ومن معاني هذه الكلمة في اللغة العبرية شيلوه (Shilh): صاحب الصولجان والملك، ومن معانيها الهادئ المسالم، الأمين، الوديع والصيغة الآرامية (السريانية) للكلمة هي شيليا (Shilya) بمعنىٰ الأمين.

-ومن النبوءات التي تشير إشارة واضحة إلىٰ الهجرة النبوية: «وحيٌ من جهة بلاد العرب، في الوعر من بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين، هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء، وافوا الهارب بخبزة، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا من أمام السيف المسلول...» (أشعياء ٢١: ١٣-١٧)(١)، وددان من أبناء إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ كما في سفر التكوين (٢٥: ١-٣) أن من أولاد إبراهيم مدان ومديان، ودان أيضًا اسم لمدينة بأرض الحجاز قرب مدينة العُلا بالقرب من المدينة، والنص يشير إلىٰ الهجرة؛ وإذا أصرّوا علىٰ إنكارهم لنبوة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فإنهم لا يستطيعون تفسير هذا النص تفسيرًا معقولًا موافقًا للواقع والتاريخ.

وكما سبق فإن انقطاع النبوة في بني إسرائيل حتىٰ الآن أمر يسترعي الانتباه، لأنهم كما قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبيٌ خلفه نبي» (البخاري)، ولكن النبوة انتقلت من بني إسرائيل إلىٰ بني إسماعيل، كما قال الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩﴾ [الأنعام: ٨٩].

---

(١) راجع لمعرفة المزيد: كتاب (محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الكتاب المقدس) للبروفيسور عبد الأحد داود رَحِمَهُٱللَّهُ، وكتاب (هل بشر الكتاب المقدس بمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ للأستاذ منقذ بن محمود السقار حفظه الله.

١٠- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسعيُ في نفع الخلق وتعليمهم الخير:

قال الله تعالىٰ علىٰ لسان المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم: ٣١- ٣٢].

(وقوله: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا﴾ اختلف أهل التأويل في معنىٰ ذلك، فقال بعضهم: معناه: وجعلني نفَّاعًا... عن مجاهد ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا﴾، قال: نفاعًا، وقال آخرون: كانت بركتُه الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر... وُهَيْب ابن الورد مولىٰ بني مخزوم، قال: لقي عالمٌ عالمًا لما هو فوقه في العلم، قال له: يرحمك الله، ما الذي أُعلِنُ من علمي، قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه دين الله الذي بعث به أنبياءه إلىٰ عباده، وقد اجتمع الفقهاء علىٰ قول الله: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾، وقيل: ما بركته؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما كان، وقال آخرون معنىٰ ذلك: جعلني معلمَّ الخير... حدثني يونس بن عبد الأعلىٰ، قال: ثنا سفيان في قوله: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ قال: معلّمًا للخير... عن مجاهد، قوله: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ قال: معلمًا للخير حيثما كنت)(١).

وقال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا﴾ أَيْ ذَا بَرَكَاتٍ وَمَنَافِعَ فِي الدِّينِ وَالدُّعَاءِ إِلَيْهِ وَمُعَلِّمًا لَهُ، التُّسْتَرِيُّ: وَجَعَلَنِي آمُرُ بِالمَعْرُوفِ، وَأَنْهَىٰ عَنِ المُنْكَرِ، وَأُرْشِدُ الضَّالَّ، وَأَنْصُرُ المَظْلُومَ، وَأُغِيثُ المَلْهُوفَ)(٢).

---

(١) جامع البيان، (١٨/ ١٩٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، (١١/ ١٠٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾، أَيْ: كَثِيرَ الْبَرَكَاتِ؛ لِأَنَّهُ يُعَلِّمُ الْخَيْرَ وَيَدْعُو إِلَىٰ اللهِ، وَيُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَيُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ، وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: نَفَّاعًا حَيْثُ كُنْتُ، وَقَالَ ابْنُ حَجَرٍ فِي «الْكَافِي الشَّافِي»: أَخْرَجَهُ أَبُو نُعَيْمٍ فِي «الْحِلْيَةِ» فِي تَرْجَمَةِ يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ عَنِ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِهَذَا وَأَتَمَّ، وَقَالَ: تَفَرَّدَ بِهِ هُشَيْمٌ عَنْ يُونُسَ، وَعَنْهُ شُعَيْبُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْكُوفِيُّ، وَرَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. اهـ.

«الأضواء» (٣/ ٤١٦).

۞ ۞ ۞

الإنجيل كتاب المسيح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

كان عيسىٰ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما مرَّ- علىٰ شريعة موسىٰ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متبعًا للتوراة التي أنزلها الله علىٰ موسىٰ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع نسْخ بعض الشرائع التي كان الله سبحانه فرضها علىٰ بني إسرائيل عقوبةً لهم، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [النساء: ١٦٠]. وقال تعالىٰ: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران: ٥٠].

واختُص صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع ذلك بالإنجيل، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد: ٢٧].

وقد امتنَّ الله عليه بذلك فقال سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾ [المائدة: ١١٠].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: (وقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي الخطّ والفهم ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ وهي المنزلة على موسى بن عمران الكليم)(١).

وقال ابن جرير رَحِمَهُٱللَّهُ: (وقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ يقول: واذكر أيضًا نعمتي عليك إذْ علمتك الكتاب وهو الخط والحكمة وهي الفهم بمعاني الكتاب الذي أنزلته إليك وهو الإنجيل)(٢).

فالمسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جاء مصدقًا لما بين يديه من التوراة يعمل بها ويدعو بني إسرائيل إلى ذلك، وأُوتي الإنجيل وفيه رفع بعض الآصار وإباحة بعض المحرمات في التوراة، وبيان لأمور اختلف فيها بنو إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ [الزُّخرُف: ٦٣].

وفي كتب النصارى أن عيسى صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال لهم: «لا تظنوا أني جئت لأنقص الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقص بل لأكمل» (متى٥ :١٧-١٨)، وأمرهم بالإيمان بالإنجيل وقال لهم: «توبوا وآمنوا بالإنجيل» (متى٢٦: ١٣، ومرقس ١٤: ٩).

ماذا في الإنجيل؟

الإنجيل كتابٌ أنزله على سيدنا عيسى صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وفيه كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ لنا وصفًا له وبعضَ ما فيه، فقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى

---

(١) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠، (٣/ ٢٢٣).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠، (١١/ ٢١٥).

ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ [الزُّخرُف: ٦٣].

فالإنجيل فيه هدىٰ ونور ومواعظ للمتقين وتصديق للتوراة **وفيه أيضًا أحكام** أُمروا بإقامتها والعمل بها كما قال الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المائدة: ٦٥ - ٦٨].

فليس الإنجيل مجرد مجموعة من القصص والحكايات كما هو واقع أناجيل النصارىٰ اليوم التي ألفها مجموعة من المؤلفين المجهولين باعتراف علماء النصارىٰ أنفسهم.

وفي الإنجيل أيضًا: الدعوة إلىٰ عبادة الله وحده والبشارة بنبي آخر الزمان محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما مرّ عند ذكر دعوة المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وفيه أيضًا: الحضّ علىٰ الجهاد في سبيل الله لنشر دينه وإبلاغ رسالته، كما قال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ

وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ [التوبة: ١١١].

وفي الإنجيل رفع الآصار والأغلال، وفيه الرحمة ﴿وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾ [مريم: ٢١] رحمة في الدعوة إلىٰ عبادة الله وحده، ثم قتله المسيح الدجال ودعائه علىٰ يأجوج ومأجوج فيهلكون ويتخلص العالم من شرهم، ورحمة في رفع الآصار ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [آل عمران: ٥٠]، وقد بقي في كتاب النصارىٰ أن المسيح قال لهم: «إني أريد رحمة لا ذبيحة» (متىٰ ٩: ١٣)، (متىٰ ١٢: ٧)، ولكنهم زعموا أنه قال: «لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا علىٰ الأرض ما جئت لألقي سلامًا بل سيفًا» (متىٰ ١٠: ٣٤)، وأنه صار ذبيحةً وملعونًا بلا ذنب!

وفي الإنجيل الذي أنزله الله عليه: الحكمة وبيان الحق مما اختلفوا فيه، ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ [الزُّخرُف: ٦٣].

ومن أعظم ما في الإنجيل بعد أمرهم بالتوحيد: البشارة بمحمد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وأنه آتٍ برسالة للعالم كله، وذِكْر أوصافه واسمه ولكنهم كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عنهم: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦]، فقد قال لهم: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصف: ٦]، وقد وصف الله المؤمنين من أهل الكتاب بقوله تعالىٰ: ﴿۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ

وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧].

وفي الإنجيل صفة أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

قال تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ يقول: وصِفَتُهم في إنجيل عيسىٰ صفةُ زرعٍ أخرج شطأه، وهو فراخه، يقال منه: قد أشطأ الزرع إذا فرَّخ فهو يشطّي إشطاء، وإنما مثّلهم بالزرع المشطئ، لأنهم ابتدأوا في الدخول في الإسلام، وهم عدد قليلون، ثم جعلوا يتزايدون، ويدخل فيه الجماعة بعدهم، ثم الجماعة بعد الجماعة، حتىٰ كثر عددهم، كما يحدث في أصل الزرع الفرخ منه، ثم الفرخ بعده حتىٰ يكثر وينمي)(١).

وبالجملة؛ فالإنجيل والتوراة كان فيهما أصول دعوة المسيح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وفروعها**، ففيهما الدعوة إلىٰ توحيد الله كما دعا إليه كل الرسل ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقد مرّ في الآيات أن المسيح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ﴾ [المائدة: ١١٧] وقال لهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى

---

(١) جامع البيان، (٢٢/ ٢٦٥).

وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [مريم: ٣٦]، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [الزُّخرُف: ٦٤]، ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (٧٢)﴾ [المائدة: ٧٢]، وأمرهم بطاعته كغيره من الرسل ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣)﴾ [الزُّخرُف: ٦٣].

ومما بقي في كتبهم من المعاني الصحيحة: «هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحق وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يوحنا ١٧: ٣)، «للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد» (متىٰ ٤: ١٠)، «لأني نقلت إليهم الوصايا التي أوصيتني بها فقبلوها وعرفوا حقًّا أني خرجت من عندك وآمنوا أنك أرسلتني» (يوحنا ١٧: ٨)، «وكما أرسلتني أنت إلىٰ العالم أرسلتهم أنا أيضًا إليه» (يوحنا ١٧: ١٨)، وخلاصة هذا الكلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن عيسىٰ رسول الله.

ما الإنجيل؟

تبين مما سبق أن الإنجيل هو كتابُ الله المنزَّل علىٰ عبده عيسىٰ ابن مريم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وفيه كلام الله الذي يحوي الهدىٰ والنور والأحكام والمواعظ والبشارات، ولأن النصارىٰ لم يحفظوا كلام الله وحرفوه وأضاعوه وبقي ما بقي منه لا يُدْرَىٰ صوابه من خطئه، فقد زعموا أن الإنجيل ليس كتابًا كان مع المسيح بل هو البشارة بالملكوت الذي لا يدرون ما هو!!

وأما هذه الكتب التي بأيديهم المسماة بالأناجيل فإنما هي مؤلفات بشر وقد صرح مؤلفوها بذلك، وهي كثيرة، اتفقوا منها علىٰ ما بأيديهم علىٰ خلافٍ بين طوائفهم في بعضها.

وفيما بقي بأيديهم ما يدل علىٰ أن المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ كان بيده إنجيل يعلّم الناسَ ما فيه، وكان بيد أتباعه يعلّمونه غيرهم، ففي (إنجيل متىٰ ٢٦: ١٣): «والحقَّ أقول لكم إنه حيث ينادَىٰ بهذا الإنجيل...»،ونحوه في (مرقس ١٤: ٩)، وفي (يوحنا ١٧: ١٤): «أبلغتهم كلمتك» وفي (يوحنا ١٧: ٨): «لأن الكلام الذي أعطيتني قد أعطيتهم»، وفي (مرقس ١:١٥): «قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل» فهو كتاب يُشَار إليه، وقد بشر فيه بخاتم الأنبياء صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والشريعةِ الخاتمة كما مرّ في الآيات ومما بقي بأيدي النصارىٰ أن المسيح قال لهم: «ويكرز ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادةً لجميع الأمم ثم يأتي المنتهىٰ» (متىٰ ٢٤: ١٤) والمسيح كان مرسلًا لبني إسرائيل وحدهم كما صرح، وعندهم أن المسيح قال: «...وسوف أطلب من الآب أن يعطيكم مُعينًا آخر يبقىٰ معكم إلىٰ الأبد...» (يوحنا ١٤: ١٥، ١٦)، «...وأما الروح القدس المعين الذي سيرسله الآب باسمي فإنه يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم» (يوحنا ١٤: ٢٥، ٢٦).

وهذه المعاني -برغم التحريف- واضحة، وقد وردت كلمة (الفارقليط) وهي اسمٌ مشتق من الحمد، ولكنهم حرفوها وجعلوها اسمًا وكتبوها كما هي (فارقليط) ثم لما أزعجتهم فسروها بالمعزي والمعين والمحامي، وهي في اللغة الأم اسمٌ لا وصف، وليس هذا موضوعنا الآن، فقد كتبت فيه دراسات لغوية عديدة، بل إن المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ جعل البشارة بدين الله الخاتم ورسوله الخاتم هو أهم ما أرسل به، فقال -كما عندهم-: «يجب عليّ أن أبشر المدنَ أيضًا بملكوت الله فإني لهذا أُرسلت» (لوقا ٤: ٤٣)، وبَيَّن لهم قرب زمان الملكوت وبشرهم به وَبيَّن أنه ليس في بني إسرائيل، وأنه سيكون للجميع، وهو أمر يأتي بعده ولم يأمرهم بالإيمان به بل بشرهم وأعلمهم بقرب زمانه، «إن ملكوت الله سينزع منكم ويعطىٰ لأمة تعمل أثماره». (متىٰ ٢١: ٤٣)، «وكل امرئ ملزم بدخوله» (لوقا ١٦:١٦)، وهذا أذكره

من باب إقامة الحجة علىٰ النصارىٰ، ولا حاجة لنا به، وقد صُنّفت عشرات الكتب في هذا الأمر.

وأما نحن المسلمين فيكفينا كلام ربنا وكلام رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ولا حاجة بنا إلىٰ كلام النصارىٰ فقد اختلط فيه الحق بالباطل، ومن رأىٰ اختلاف ترجماتهم وقرأ الكتاب بغير العربية فسوف يروعه كثرة تحريفهم وتدليسهم!

وكان المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حريصًا علىٰ دعوته لبني إسرائيل ناصحًا لهم، ومن صور ذلك -مع ما ذُكر في الآيات السابقة- ما رواه الترمذي وأحمد والنسائي وابن حبان وابن خزيمة والحاكم وصححه علىٰ شرط الشيخين، وصححه الألباني وحسنه المنذري من حديث الحارث الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «إن الله أمر يحيىٰ بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وإنه كاد أن يبطئ بها فقال عيسىٰ: إن الله أمرك بخمس كلمات لِتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم، فقال يحيىٰ: أخشىٰ إن سبقتني بها أن يُخْسَفَ بي أَوْ أُعذَّب، فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ المسجد وقعدوا علىٰ الشُرُف فقال: «إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا...» الحديث. واللفظ للترمذي.

تحريف التوراة والإنجيل:

قدر الله عَزَّوَجَلَّ -وله الحكمة البالغة، ولا يُسأَل عما يَفعل سبحانه- أن يوكِلَ حِفْظَ التوراة والإنجيل إلىٰ علماء بني إسرائيل، ابتلاءً منه سبحانه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُا۟

ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًاۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾[المائدة: ٤٤].

قال الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ: (وأما قوله: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، فإن معناه: يحكم النبيون الذين أسلموا بحكم التوراة، والربانيون والأحبار يعني العلماء بما استُودعوا علمه من كتاب الله الذي هو التوراة)(١).

ولما رُفِع المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ إلىٰ السماء ومضىٰ أصحابه وأصحابهم تتابع بنو إسرائيل علىٰ تحريف الكتابَيْن، وما زال التحريف مستمرًّا، ومن وازنَ بين الطبعات المختلفة لكتبهم، والاختلافات في عدد الأسفار بين طوائفهم علم شيئًا من جريمتهم الشنعاء في تحريف كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةًۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾[المائدة: ١٢- ١٣].

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُٱللَّهُ: (﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أَيْ يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَىٰ غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَيُلْقُونَ ذَلِكَ إِلَىٰ العَوَامِّ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ يُبَدِّلُونَ حُرُوفَهُ)(٢).

---

(١) جامع البيان، (١٠/ ٣٤٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (٦/ ١١٥).

وقال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ أَيْ: فَسَدَتْ فُهومهم، وَسَاءَ تَصَرُّفُهُمْ فِي آيَاتِ اللهِ، وَتَأَوَّلُوا كِتَابَهُ عَلَىٰ غَيْرِ مَا أَنْزَلَهُ، وَحَمَلُوهُ عَلَىٰ غَيْرِ مُرَادِهِ، وَقَالُوا عَلَيْهِ مَا لَمْ يَقُلْ، عِيَاذًا بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ، ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أَيْ: وَتَرَكُوا العَمَلَ بِهِ رَغْبَةً عَنْهُ)(١).

قال الإمام أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: (يقول عز ذكره: وجعلنا قلوب هؤلاء الذين نقضوا عهودَنا من بني إسرائيل قَسِيَّةً، منزوعًا منها الخير، مرفوعًا منها التوفيق، فلا يؤمنون ولا يهتدون، فهم لنزعِ الله عَزَّوَجَلَّ التوفيقَ من قلوبهم والإيمانَ، يحرّفون كلام ربِّهم الذي أنزله علىٰ نبيهم موسىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو التوراة، فيبدّلونه، ويكتبون بأيديهم غير الذي أنزله الله جل وعز علىٰ نبيهم، ثم يقولون لجهال الناس: «هذا هو كلام الله الذي أنزله علىٰ نبيه موسىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتوراة التي أوحاها إليه»، وهذا من صفة القرون التي كانت بعد موسىٰ من اليهود، ممن أدرك بعضُهم عصرَ نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن الله عزّ ذكره أدخلهم في عِدَاد الذين ابتدأ الخبر عنهم ممن أدرَك موسىٰ منهم، إذْ كانوا من أبنائهم وعلىٰ منهاجهم في الكذب علىٰ الله، والفرية عليه، ونقض المواثيق التي أخذها عليهم في التوراة)(٢).

ورویٰ الإمام البخاري في «صحيحه» عن ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، كَيْفَ تَسْأَلُونَ أَهْلَ الكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ، وَكِتَابُكُمُ الذِي أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّهِ، أَحْدَثُ أَخْبَارِ اللهِ تَقْرَؤُونَهُ مَحْضًا لَمْ يُشَبْ؟ وَقَدْ حَدَّثكم اللهُ تَعَالَىٰ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ بَدَّلُوا كِتَابَ اللهِ وَغَيَّرُوهُ، وَكَتَبُوا بِأَيْدِيهِمُ الكِتَابَ، وَقَالُوا: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا

---

(١) تفسير القرآن العظيم، (٣/ ٦٦).

(٢) جامع البيان، (١٠/ ١٢٨، ١٢٩).

بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا؛ أَفَلَا يَنْهَاكُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنَ العِلْمِ عَنْ مُسَاءلتهم؟ وَلَا وَاللهِ مَا رَأَيْنَا مِنْهُمْ أَحَدًا قَطُّ سَأَلَكُمْ عَنِ الذِي أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ.

وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ تحريفهم للكتاب في مواضع من القرآن، فمن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [البقرة: ٧٥]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ٧٩]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٨]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنعام: ٩١]، وقوله تعالىٰ: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [المائدة: ١٣].

وفي كتبهم ما يشهد بتحريفها، فمن ذلك ما ورد في (سفر إرميا) (٨/٨) مما ينسب إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ القول: (كيف تقولون نحن حكماء، وشريعة الرب معنا، حقًّا إنه إلىٰ الكذب حوَّلها قلم الكتبة الكاذب، خَزِيَ الحكماء ارتاعوا وأُخِذُوا ها قد رفضوا كلمة الرب).

ويكفي أن تعلم أن النسخة العبرية تسعة وثلاثون سفرًا فقط، بينما النسخة اليونانية فهي ستة وأربعون سفرًا، ويعتبرها النصارىٰ الكاثوليك والأرثوذكس مقدسة، والنسخة السامرية لا تضم إلا أسفار موسىٰ الخمسة فقط، وقد يضمون إليها سفر يوشع فقط، وما عداه فلا يعترفون به ولا يعدونه مقدسًا، وبين هذه النسخ

اختلافات كثيرة، وتحريف واضحٌ، ومن ذلك ما ورد في(سفر التكوين ٢٢ : ٢)، أن الله قال لإبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: (خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق، واذهب إلىٰ أرض المريا وأصعده هناك محرقة علىٰ أحد الجبال)، ولا شك أن هذا تحريف؛ لأن إسحاق عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لم يكن يومًا وحيدَ إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، بل الذي كان وحيده هو بكره إسماعيل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ.

وفي التوراة وصفٌ لله بصفات لا تليق به سبحانه من الحزن والبكاء والعويل ومصارعة يعقوب، وسبّ الأنبياء واتهامهم بالزنا وشرب الخمر والكذب والخداع، وأما الإنجيل الذي أنزل علىٰ المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وكان يعظ به فلا وجودَ له، وما بأيدي النصارىٰ إلا مجموعة من المؤلفات التي انتقتها الكنيسة من عدد كبير من مثلها، والنصارىٰ مقرّون بأنها ليست وحيًا ولا من تأليف المسيح، بل إن أصحاب الأناجيل أنفسهم يصرحون بذلك، مع أن هذه الأناجيل قد فُقدت جميعًا ولم يبق إلا ترجماتٍ لها والعجب أن المترجمين مجهولون!، ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[آل عمران: ٧٨]، وبين هذه الأناجيل اختلافات كثيرة جدًا منها نسَبُ إلههم المسيح! ففي حين نَسَبه متّىٰ إلىٰ يوسفَ بن يَعْقوب وجعَله مِن نسْل سليمان ابنْ داود، فقد نسَبه لوقا إلىٰ يوسف بن هالي، وجعَله مِن نسل ناثان بن داود عَلَيْهِٱلسَّلَامُ!، وفي حين أنَّ متىٰ جعَل آباء المسيح إلىٰ داود عَلَيْهِٱلسَّلَامُ سبعةً وعشرين أبًا، فقد جعلهم لوقا اثنين وأربعين أبًا!

وصَدَق الله العظيم: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢].

❁ ❁ ❁

الفصل الثالث

الحواريون

روىٰ الإمام مسلم في «صحيحه» من حديث عبد الله بن مسعود عنه أنه قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ما كان من نبي إلا وقد كان له حواريون يهتدون بهديه ويَسْتَنُّون بِسُنته» وفي لفظ: «ما من نبي بعثه الله من قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تَخْلُف من بعدهم خُلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمَرون» فالحواريون هم الأتباع المؤمنون الحاملون للدعوة، وهم الخاصة الذين يكونون علىٰ ما تركهم عليه نبيهم ثم يبدل الناس ويتركون شرع الله ويبتدعون في دين الله.

فالحواريون هم خلاصة الأصحاب وصفوة الأتباع من أصحاب كل نبي، وليس هذا خاصًّا بالمسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وإن اشتهر أصحابه بذلك وسماهم الله بذلك كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾ [الصف: ١٤].

وقد ألهمهم الله الإيمانَ ونصرةَ المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما قال الله: ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ١١١﴾ [المائدة: ١١١].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ: (يقول: واشهد علينا بأننا خاضعون لك بالذلة سامعون مطيعون لأمرك) اهـ. وهذا من نعم الله علىٰ المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، كما قال

ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا أيضًا من الامتنان عليه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأن جعل له أصحابًا وأنصارًا) اهـ.

وقال تعالى: ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٢- ٥٣].

وقد وصفهم الله بقوله: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد: ٢٧].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ وَهُمُ الحَوَارِيُّونَ ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أَيْ: رَأْفَةً وَهِيَ الخَشْيَةُ، وَرَحْمَةً بِالخَلْقِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أَيِ: ابْتَدَعَتْهَا أُمَّةُ النَّصَارَىٰ ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ أَيْ: مَا شَرَعْنَاهَا لَهُمْ، وَإِنَّمَا هُمُ التَزَمُوهَا مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ)(١).

ولم يكن الحواريون -مع جلالتهم وفضلهم- رسلًا ولا أنبياء، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المائدة: ١١٢- ١١٣]، ولا يليق كلامهم ولا ردّ المسيح عليهم بالأنبياء، فالحواريون هم خاصة أصحاب المسيح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠، (٨/ ٢٩).

وخلاصتهم وهم من أولياء الله الصالحين آمنوا بالله وبرسوله عيسىٰ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وبما جاء به، ودَعَوا الناس من بني إسرائيل إلىٰ ذلك، وجعل الله في قلوبهم الرحمة بالخلق والرأفة بهم، هذه صورة الحواريين عند المسلمين وصفاتهم، **فما هي صفاتهم عند النصارىٰ الذين يزعمون تقديسهم؟!**

يذكر النصارىٰ أن المسيح لما طلبه اليهود ليقتلوه أمرهم بالثبات وحدثهم عما سيحدث ولكنهم لم يفهموا شيئًا مما قاله لهم كما في (لوقا ١٨: ٣٤) وقد وصفهم من قبل بأنهم أغبياء قليلو الإيمان كما في (لوقا ٢٤: ٢٥)، ووصف بطرس بقوله: «اغرب من أمامي يا شيطان» (مرقس ٨: ٣٣) ووصفهم جميعًا بضعف الإيمان فقال لهم: «في هذه الليلة سَتَشُكُّون فيّ كلكم» (متىٰ ٢٦: ٣١)، ولما قبض اليهود علىٰ المسيح -كما يزعمون- ظهر جُبنهم وهلعهم كما زعم (مرقس ١٤: ٥٠-٥٢) «عندئذٍ تركَه الجميع وهربوا وتبعه شاب لا يلبس غير إزار علىٰ عُريه فأمسكوه فترك الإزار وهرب منهم عريانًا»، ولما قالت امرأة: إن بطرس منهم، حلف كذبًا، كما زعم مرقس «وبدأ يلعن ويحلف إني لا أعرف هذا الرجل الذي تتحدثون عنه» (مرقس١٤: ٧١)، فوصفوهم بضعف الإيمان والكذب والجُبن!!!

وهذا ليس عجيبًا علىٰ مَن أساء الأدب مع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فوصفه باللبؤة والخروف، وزعم أنه وُلِدَ وأن له أُمًّا وعَروسًا وأنه خُتِنَ وجاع وبكىٰ وصرخ وأُهين وقُتِل ولُعِنَ ومات من أجل أن يكفّر ذنبًا واحدًا لعبدٍ من عباده!! سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عما يقولون علوًّا كبيرًا، وتنزّه وتقدّس عما يصفونه به من النقائص والمعايب، فسبحانه وبحمده، لا إله إلا هو.

❁ ❁ ❁

الفصل الرابع

معجزات المسيح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أُعطىٰ من الآيات ما مثلُه آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليّ فأرجوا أن أكن أكثرهم تابعًا يوم القيامة» (متفق عليه).

فمن سنة الله في الأنبياء جميعًا تأييدهم بالمعجزات (الآيات) ليستدل بها الناس علىٰ صدق النبيّ ونبوته، وليعارض بها المنكرين له المكذبين لما جاء به، ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣٨] وقد كان للمسيح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نصيبٌ وافر من الآيات الدالة علىٰ نبوته وصدقه، وقد ذكر الله من هذه الآيات تأييده بالروح القدس وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتكليمه الناس وهو في المهد وخلقه الطير من الطين بإذن الله وإبراءه الأكمه والأبرص وإحياء الموتىٰ بإذن الله، وكفّ بني إسرائيل عن قتله وإيذائه وإخباره بالمُغَيَّبَات في بيوتهم وإنزال المائدة من السماء بدعائه، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران: ٤٩].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أَيْ: ويَجْعَلُهُ رَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَائِلًا لَهُمْ: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وَكَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ: يُصَوِّرُ مِنَ الطِّينِ شَكْلَ طَيْرٍ، ثُمَّ ينفخ فِيهِ، فَيَطِيرُ عِيَانًا بِإِذْنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، الَّذِي جَعَلَ هَذَا مُعْجِزَةً يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُ،

﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ قِيلَ: هُوَ الَّذِي يُبْصِرُ نَهَارًا وَلَا يُبْصِرُ لَيْلًا. وَقِيلَ: بِالعَكْسِ. وَقِيلَ: هُوَ الأَعْشَىٰ، وَقِيلَ: الأَعْمَشُ وَقِيلَ: هُوَ الَّذِي يُولَدُ أَعْمَىٰ، وَهُوَ أَشْبَهُ؛ لِأَنَّهُ أَبْلَغُ فِي المعجزة وأقوىٰ في التحدي ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ معروف)(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: ٨٧].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يعني بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أعطينا عيسىٰ ابن مريم، ويعني بـ(البينات)أ التي آتاه الله إياها: ما أظهر علىٰ يديه من الحُجَج والدلالة علىٰ نبوته: من إحياء الموتىٰ، وإبراء الأكمه، ونحو ذلك من الآيات، التي أبانت منزلته من الله، ودلت علىٰ صدقه وصحة نبوته)(٢).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يَنْعَتُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالعُتُوِّ وَالعِنَادِ وَالمُخَالَفَةِ، وَالِاسْتِكْبَارِ عَلَىٰ الأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ، فَذَكَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ آتَىٰ مُوسَىٰ الكِتَابَ -وَهُوَ التَّوْرَاةُ- فَحَرَّفُوهَا وَبَدَّلُوهَا، وَخَالَفُوا أَوَامِرَهَا وَأَوَّلُوهَا، وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ بِشَرِيعَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ﴾ [المائدة: ٤٤] الْآيَةَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ﴾ [البقرة: ٨٧] قَالَ السُّدِّيُّ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ: أَتْبَعْنَا. وَقَالَ غَيْرُهُ: أَرْدَفْنَا. وَالكُلُّ قَرِيبٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ﴾ [المؤمنون: ٤٤] حَتَّىٰ خَتَمَ أَنْبِيَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ، فَجَاءَ بِمُخَالَفَةِ التَّوْرَاةِ فِي بَعْضِ الْأَحْكَامِ،

---

(١) تفسير القرآن العظيم، (٢/ ٤٤).

(٢) جامع البيان، (٢/ ٣١٨).

وَلِهَذَا أَعْطَاهُ اللهُ مِنَ الْبَيِّنَاتِ، وَهِيَ: الْمُعْجِزَاتُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ، وَخَلْقِهِ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَيَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ، وَإِبْرَائِهِ الأَسْقَامَ، وَإِخْبَارِهِ بِالْغُيُوبِ، وَتَأْيِيدِهِ بِرُوحِ الْقُدُسِ، وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ -مَا يَدُلُّهُمْ عَلَىٰ صِدْقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ، فَاشْتَدَّ تَكْذِيبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَهُ وَحَسَدهم وَعِنَادُهُمْ لِمُخَالَفَةِ التَّوْرَاةِ فِي الْبَعْضِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ إِخْبَارًا عَنْ عِيسَىٰ: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[آل عمران: ٥٠] الآيَةَ.

فَكَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تُعَامِلُ الأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ أَسْوَأَ الْمُعَامَلَةِ، فَفَرِيقًا يُكَذِّبُونَهُ، وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَهُ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْتُونَهُمْ بِالأُمُورِ الْمُخَالِفَةِ لِأَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ وَبِإِلزَامِهِمْ بِأَحْكَامِ التَّوْرَاةِ الَّتِي قَدْ تَصَرَّفُوا فِي مُخَالَفَتِهَا، فَلِهَذَا كَانَ يَشُقُّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَيُكَذِّبُونَهُمْ، وَرُبَّمَا قَتَلُوا بَعْضَهُمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾(١)، وقال تعالىٰ: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾[البقرة: ٢٥٣].

قال أبو جعفر الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ: (يعني تعالىٰ ذكره بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: وآتينا عيسىٰ ابن مريم الحجج والأدلة علىٰ نبوته، من إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتىٰ، وما أشبه ذلك، مع الإنجيل الذي أنزلتُه إليه، فبينتُ فيه

(١) تفسير القرآن العظيم، (١/ ٣٢١).

ما فرضتُ عليه، ويعني تعالىٰ ذكره بقوله: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾: وقوّيناه وأعنَّاه ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ يعني بروح الله، وهو جبريل)(١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَقَوْلُهُ: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أَيِ: الحُجَجُ وَالدَّلَائِلُ القَاطِعَاتُ عَلَىٰ صِحَّةِ مَا جَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِهِ، مِنْ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ إِلَيْهِمْ ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ يَعْنِي: أَنَّ اللهَ أَيَّدَهُ بِجِبْرِيلَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ)(٢).

وذكر الله عَزَّوَجَلَّ أنه يقول -يوم القيامة- للمسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ مُمْتَنًّا عليه: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١٠-١١١].

قال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: (يذكُرُ تَعَالَىٰ مَا امْتَنَّ بِهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ مِمَّا أَجْرَاهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِنَ المُعْجِزَاتِ وَخَوارِقِ العَادَاتِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ أَيْ: فِي خَلْقِي إِيَّاكَ مِنْ أُمٍّ بِلَا ذَكَرٍ، وَجَعْلِي إِيَّاكَ آيَةً وَدَلَالَةً قَاطِعَةً عَلَىٰ كَمَالِ قُدْرَتِي عَلَىٰ الأَشْيَاءِ ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ حَيْثُ جَعلتُكَ لَهَا بُرْهَانًا عَلَىٰ بَرَاءَتِهَا مِمَّا نَسَبَهُ الظَّالِمُونَ الجَاهِلُونَ إِلَيْهَا مِنَ الفَاحِشَةِ، ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وَجَعَلْتُكَ نَبِيًّا دَاعِيًا إِلَىٰ اللهِ فِي صِغَرِكَ وَكِبَرِكَ، فَأَنْطَقْتُكَ فِي المَهْدِ صَغِيرًا، فَشَهِدْتَ بِبَرَاءَةِ أُمِّكَ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ،

(١) جامع البيان، (٥/ ٣٧٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم، (١/ ٦٧١).

وَاعْتَرَفْتَ لِي بِالعُبُودِيَّةِ، وَأَخبَرْتَ عَنْ رِسَالَتِي إِيَّاكَ وَدَعْوَتِكَ إِلَىٰ عِبَادَتِي؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أَيْ: تَدْعُو إِلَىٰ اللهِ النَّاسَ فِي صِغَرِكَ وَكِبَرِكَ، وَضَمَّنَ (تُكَلِّمُ): (تَدْعُو)؛ لِأَنَّ كَلَامَهُ النَّاسَ فِي كُهُولَتِهِ لَيْسَ بِأَمْرٍ عَجِيبٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أَيِ: الخَطَّ وَالفَهْمَ ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ وَهِيَ المُنَزَّلَةُ عَلَىٰ مُوسَىٰ بْنِ عِمْرَانَ الكَلِيمِ، وَقَدْ يَرِدُ لَفْظُ التَّوْرَاةِ فِي الحَدِيثِ ويُرَاد بِهِ مَا هُوَ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى﴾ أَيْ: تُصَوِّرُهُ وَتُشَكِّلُهُ عَلَىٰ هَيْئَةِ الطَّائِرِ بِإِذْنِي لَكَ فِي ذَلِكَ فَيَكُونُ طَائِرًا بِإِذْنِي، أَيْ: فَتَنْفُخُ فِي تِلْكَ الصُّورَةِ الَّتِي شَكَّلْتَهَا بِإِذْنِي لَكَ فِي ذَلِكَ، فَتَكُونُ طيرًا ذَا رُوحٍ بِإِذْنِ اللهِ وَخَلْقِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾ قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَىٰ ذَلِكَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ بِمَا أَغْنَىٰ عَنْ إِعَادَتِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى﴾ أَيْ: تَدْعُوهُمْ فَيَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ، وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ)(١).

ومَرَّ عند ذكر ولادته أنه تكلم عَلَيْهِ السَّلَامُ في المهد ليبرئ أمه، وليشهد لله بالوحدانية ولنفسه بالرسالة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [مريم: ٢٩- ٣٤].

ولما سأله الحواريون نزول مائدة من السماء دعا الله فنزلت، كما قال الله: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟

(١) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠، (٣/ ٢٢٣).

ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: ١١٢ - ١١٥].

قال الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ: (هذه قصة المائدة وإليها تنسب السورة فيقال: «سورة المائدة» وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لما أجاب دعاءه بنزولها فأنزلها الله آيةً ودلالةً معجزةً باهرة وحجة قاطعة).

وقد شهدتْ كتبُ النصارى بأن هذه الآيات إنما هي من عند الله لا من عند المسيح، فوصفوه بقولهم: «رجلٌ قد تبرهن لكم من قِبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده...» (أعمال الرسل ٢: ٢٢)، وأنه لما سأل اللهَ إحياءَ الميت عَلَّلَ ذلك بقوله في دعائه: «ليؤمنوا أنك أرسلتني» (يوحنا ١١: ٤١-٤٤). وانظر (لوقا٧: ١١-١٧)، ولهذا قالوا: «حقًّا لقد كان هذا ابن مريم لقد ظهر فينا نبي كبير» (لوقا ٧: ١٦)، وقالوا: «حقًّا كان هذا بالحقيقة هو النبي» (يوحنا ٧: ٤).

❁ ❁ ❁

الفصل الخامس

وما قتلوه وما صلبوه

موقف بني إسرائيل من المسيح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

كغيره من الأنبياء والمرسلين انقسم الناس تجاه دعوة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى فريقين، فريق آمن به ونصره واتبعه، وفريق كذّبه وآذاه، وأراد قتله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[الصف: ١٤].

وقال تعالى: ﴿ ۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾[البقرة: ٢٥٣].

وقال تعالى: ﴿ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٢].

فبنو إسرائيل افترقوا فمنهم من آمن بالمسيح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومنهم من كفر برسالته وزعم أن ما جاء به من الآيات سحرٌ، ومنهم من اتهم أمه عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ بالفاحشة، فحاله في ذلك كحال كل المرسلين، كما قال الله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالىٰ: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ [المائدة: ١١٠].

وبعدما دعاهم المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وحذرهم ولعنَ الكافرين منهم كما قال الله: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [المائدة: ٧٨].

همَّ الكافرون منهم بقتله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فكفّهم الله عنه، كما قال سبحانه مخاطبًا المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ [المائدة: ١١٠]، وأشار الله سبحانه إلىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [البقرة: ٨٧].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يَنْعَتُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالعُتُوِّ وَالعِنَادِ وَالمُخَالَفَةِ، وَالِاسْتِكْبَارِ عَلَىٰ الأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ، فَذَكَرَ تَعَالَىٰ أَنَّهُ آتَىٰ مُوسَىٰ الكِتَابَ -وَهُوَ التَّوْرَاةُ- فَحَرَّفُوهَا وَبَدَّلُوهَا، وَخَالَفُوا أَوَامِرَهَا وَأَوَّلُوهَا، وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ الَّذِينَ يَحْكُمُونَ بِشَرِيعَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ﴾[المائدة: ٤٤] الْآيَةَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ﴾[البقرة: ٨٧] قَالَ السُّدِّيُّ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ: أَتْبَعْنَا. وَقَالَ غَيْرُهُ: أَرْدَفْنَا، وَالكُلُّ قَرِيبٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ﴾[المؤمنون: ٤٤] حَتَّىٰ خَتَمَ أَنْبِيَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ، فَجَاءَ بِمُخَالَفَةِ التَّوْرَاةِ فِي بَعْضِ الْأَحْكَامِ، وَلِهَذَا أَعْطَاهُ اللهُ مِنَ البَيِّنَاتِ، وَهِيَ: المُعْجِزَاتُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ، وَخَلْقِهِ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَيَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ، وَإِبْرَائِهِ الأَسْقَامَ، وَإِخْبَارِهِ بِالغُيُوبِ، وَتَأْيِيدِهِ بِرُوحِ القُدُسِ، وَهُوَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- مَا يَدُلُّهُمْ عَلَىٰ صِدْقِهِ فِيمَا جَاءَهُمْ بِهِ، فَاشْتَدَّ تَكْذِيبُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَهُ وحَسَدهم وَعِنَادُهُمْ لِمُخَالَفَةِ التَّوْرَاةِ فِي البَعْضِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ إِخْبَارًا عَنْ عِيسَىٰ: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[آل عمران: ٥٠] الآيَةَ.

فَكَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تُعَامِلُ الأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أَسْوَأَ المُعَامَلَةِ، فَفَرِيقًا يُكَذِّبُونَهُ، وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَهُ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْتُونَهُمْ بِالأُمُورِ المُخَالِفَةِ لِأَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ وَبِإِلْزَامِهِمْ بِأَحْكَامِ التَّوْرَاةِ التِي قَدْ تَصَرَّفُوا فِي مُخَالَفَتِهَا، فَلِهَذَا كَانَ يَشُقُّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَيُكَذِّبُونَهُمْ، وَرُبَّمَا قَتَلُوا بَعْضَهُمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾[البقرة: ٨٧])(١).

---

(١) تفسير القرآن العظيم، (١/ ٣٢١).

وبنو إسرائيل معروفون بقتلهم الأنبياء، وتاريخهم حافلٌ بقتلهم الأنبياء وقتلهم الذين يأمرون بالعدل من الناس، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾[آل عمران: ٢١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هَذَا ذَمٌّ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ لِأَهْلِ الكِتَابِ فِيمَا ارْتَكَبُوهُ مِنَ المَآثِمِ وَالمَحَارِمِ فِي تَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، الَّتِي بَلَّغَتْهُمْ إِيَّاهَا الرُّسُلُ، اسْتِكْبَارًا عَلَيْهِمْ وَعِنَادًا لَهُمْ، وَتَعَاظُمًا عَلَىٰ الحَقِّ وَاسْتِنْكَافًا عَنِ اتِّبَاعِهِ، وَمَعَ هَذَا قَتَلُوا مَنْ قَتَلُوا مِنَ النَّبِيِّينَ حِينَ بَلَّغُوهُمْ عَنِ اللهِ شَرْعَهُ، بِغَيْرِ سَبَبٍ وَلَا جَرِيمَةٍ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ، إِلَّا لِكَوْنِهِمْ دَعَوْهُمْ إِلَىٰ الحَقِّ ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وَهَذَا هُوَ غَايَةُ الكِبْرِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْط النَّاسِ»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾[المائدة: ٧٠].

وقد وبَّخهم الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ ذلك بقوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾[البقرة: ٨٧].

وهذا التوبيخ لبني إسرائيل جاء بعد قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ﴾[البقرة: ٨٧] وذلك أن عيسىٰ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعدما دعاهم إلىٰ الله وقال لهم: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾[آل عمران: ٥٠- ٥١]، آمنت طائفة وكفرت طائفة، ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ﴾[آل عمران: ٥٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، (٢/ ٢٧).

واجتمع كَفَرتُهم علىٰ قتل المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأراد الله نجاته وكفَّهم عنه، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾[آل عمران: ٥٤-٥٥].

وقد علم المؤمنون أن المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سوف ينجّيه الله ولن يُقتل، وأما الكفار فزعموا أنهم قتلوه وكذبوه في أن الله سوف ينجيه من بينهم، كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عنهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾[النساء: ١٥٥-١٥٨].

فقد أجمعوا أمرهم ومكروا مكرهم وقرروا قتل المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ أراد أمرًا آخر وهو نجاة المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ورفعه إلىٰ السماء حيًّا وشُبّه لهم أنهم صلبوا المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مكرًا من الله مجازاةً لمكرهم ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾[آل عمران: ٥٤]، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ ﴾[النساء: ١٥٧]، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ ﴾[النساء: ١٥٨].

والله خير الماكرين:

﴿ وَمَكَرُواْ ﴾ برسول الله عيسىٰ ليقتلوه ظلمًا وعدوانًا ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ ﴾ فأنجاه من بين أيديهم وشُبّه لهم صلبه فتنةً لهم وجزاءً علىٰ مكرهم، وإكرامًا لعبده ورسوله المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وذلك لأن الله هو العزيز سبحانه فإذا أراد شيئًا

كان ما أراد، ولِحكمةٍ أرادها وهو الحكيم سبحانه، ولا ندري كيف شُبّه لهم لعدم وجود دليل صحيح من كلام المعصوم صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ولكننا نعلم يقينًا أن الله رفع المسيح إليه بجسده وروحه وأنه حيّ في السماء لم يمت، ومما جاء به رسول الله محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من كلام الله سبحانه أنه بَيَّنَ لبني إسرائيل كذبهم في ادعائهم صلب المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨].

قال أبو حيان الأندلسي رَحِمَهُٱللَّهُ: (﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ﴾ هذا إخبار منه تعالىٰ أنهم ما قتلوا عيسىٰ وما صلبوه، واختلف الرواة في كيفية القتل والصلب، ولم يثبت عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في ذلك شيء غير ما دل عليه القرآن... أما أن يلقىٰ شبهه علىٰ شخص فلم يصحّ ذلك عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فيعتمد عليه... ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ هذا إبطال لما ادعوه من قتله وصلبه، وهو حيٌّ في السماء الثانية علىٰ ما صحَّ عن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في حديث المعراج وهو هناك مقيمٌ حتىٰ ينزله الله إلىٰ الأرض لقتل الدجال وليملأها عدلًا كما ملئت جورًا...)(١)، وقال رَحِمَهُٱللَّهُ:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٥٨﴾﴾ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ الرَّازِيُّ: المُرَادُ مِنَ المَعَزَّةِ كَمَالُ الْقُدْرَةِ، وَمِنَ الحِكْمَةِ كَمَالُ العِلْمِ، فَنَبَّهَ بِهَذَا عَلَىٰ أَنَّ رَفْعَ عِيسَىٰ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ مِنَ الدُّنْيَا إِلىٰ السموات وَإِنْ كَانَ كَالْمُتَعَذِّرِ عَلَىٰ الْبَشَرِ، لَكِنْ لَا تَعَذُّرَ فِيهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ قُدْرَتِي

(١) باختصار من: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، ط. دار الفكر - بيروت، ١٤٢٠، (٤/ ١٢٥-١٢٨).

وحكمتي انْتَهَىٰ، وَقَالَ غَيْرُهُ: عَزِيزًا أَيْ قَوِيًّا بِالنِّقْمَةِ مِنَ اليَهُودِ، فَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ بُطْرُسَ الرُّومِيّ فَقَتَلَ مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً. حَكِيمًا حَكَمَ عَلَيْهِمْ بِاللَّعْنَةِ وَالغَضَبِ، وَقِيلَ: عَزِيزًا أَيْ: لَا يُغَالَبُ، لِأَنَّ اليَهُودَ حَاوَلَتْ بِعِيسَىٰ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ أَمْرًا وَأَرَادَ اللهُ خِلَافَهُ، حَكِيمًا أَيْ: وَاضِعَ الْأَشْيَاءِ مَوَاضِعَهَا، فَمِنْ حَكَمَتِهِ تَخْلِيصُهُ مِنَ اليَهُودِ، وَرَفْعُهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ لِمَا يُرِيدُ وَتَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ تَعَالَىٰ)(١).

بل رفعه الله إليه:

وأصل الرفع وحقيقته: النقل من السُفل إلىٰ العُلُوّ، ولا صارفَ في الآية ولا غيرها للحقيقة إلىٰ المجاز، كقول من يقول إن المقصود رفع مكانته أوْ رفع روحه بعد موته.

يقول الشيخ محمد زاهد الكوثري رحمه الله وعفا عنه: (ولا صارفَ عن الحقيقة حتىٰ يجوز حمل الرفع هنا علىٰ المكانة مجازًا فيكون احتمال المجاز احتمالًا غيرَ ناشئ من دليل، فيكون ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ نصًّا في الرفع الحسيّ، بل في الآية ما يردُّ احتمال المجاز ردًّا باتًّا من وجوه:

أما أولًا: فإن السياق في تقرير بطلان ما قاله اليهود من قتله ببيان أنهم قتلوا الشبه، فبرفعه الحسيّ يكون إنقاذَ شخصه منهم، فينسجم بذلك ما قبل «بل» بما بعدها ورفعُ المكانة مما لا ينافي القتل، وكم من نبي قتل وهو رفيع المكانة، فلا يصح دخول ﴿بَل﴾ بينهما لاتقاء التضاد بينهما، وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الحاتم في «تفسيره» بسند صحيح إلىٰ ابن عباس أن عيسىٰ رفع من روزنة في البيت، وساق ابن كثير السند في «تفسيره»، وهذا ليس مما يُعْلَم بالرأي فيكون في حكم المرفوع عند جماعةِ أهل العلم.

(١) البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، (٤/ ١٢٨، ١٢٩).

وأما ثانيًا: فإن حمل الرفع هنا علىٰ رفع المكانة لا يظهر له وجهُ اختصاص بهذا الموقف، لأن أولي العزم من الرسل يكون كل واحد منهم رفيع المكانة دائمًا.

وأما ثالثًا: فإن ذكر منتهًىٰ لرفع شخص بوصل ﴿رَّفَعَهُ ٱللَّهُ﴾ بلفظ (إلىٰ) يقضي علىٰ احتمال المجاز، بحمله علىٰ رفع المكانة، لأن رفع المكانة ينافيه ذكرُ منتهىٰ له قطعًا، وإدخال (إلىٰ) علىٰ ضمير المتكلم من قبيل الإضافة للتشريف والمعنىٰ إلىٰ سمائي ومنزل ملائكتي كما يقول أبو حيان(١) وغيره.

وأما رابعًا: فإن رفع المكانة لا يخصُّ عيسىٰ حتىٰ يمتنَّ الله به هنا، بل يعمُّه وسائرَ الأنبياء والمرسلين بل وسائر الأبرار والأخيار.

وأما خامسًا: فإن حمل الرفع علىٰ رفع روحه بحذف المضاف -كما وقع في فتيا الشيخ(٢)- أمر لا يخصُّ عيسىٰ أيضًا، مع كون الحذف خلاف الأصل، فلذا يكون الرفع لشخصه فيشمل الروح والجسد معًا.

وأنت لا تجد أحدًا من المفسرين يحمل الرفع هنا علىٰ رفع المكانة أو رفع الروح فقط، لظهور دلالته القطيعة علىٰ الرفع الحسيّ هنا، وهذا كله مع قطع النظر

---

(١) نصّ كلام أبي حيان: (وَالضَّمِيرُ فِي إِلَيْهِ عَائِدٌ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ حَذْفِ التَّقْدِيرِ إِلَىٰ سَمَائِهِ، وَقَدْ جَاءَ وَرافِعُكَ إِلَيَّ وَقِيلَ: إِلَىٰ حَيْثُ لَا حُكْمَ فِيهِ إِلَّا لَهُ. وَلَا يُوَجَّهُ الدُّعَاءُ إِلَّا نَحْوَهُ، وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَىٰ الْأَوَّلِ)، البحر المحيط، (٤/ ١٢٨)، والآية نصٌّ في علوّ الله سبحانه علىٰ خلقه وأن الرفع إلىٰ جهة السماء رفعٌ إلىٰ الله سبحانه، والكوثري -عفا الله عنه- معروفٌ بتجهّمه، والآية من الغُصَص في حلوق الجهمية.

(٢) يعني الشيخ شلتوت، والرسالة كلها في الرد علىٰ فتياه، والشيخ شلتوت كان علىٰ منهج المعتزلة في أكثر اعتقاده، بل هو من أشهر من نشر كلام المعتزلة ومنهجهم في الأزهر، بعد الشيخ محمد عبده.

عن تواتر الأخبار في الرفع والنزول وإلا فمن استذكر تواتر الأخبار في ذلك لا يسعه أن يتشكك لحظة في هذا الأمر، ولو لم يستحضر وجوه دلالة الكتاب على الرفع والنزول، فكيف والكتاب والسنة متواترة والإجماع متواردة متضافرة على عقيدة الجماعة في ذلك!!(١).

وأما قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾[آل عمران: ٥٥] فنصٌّ أيضًا في الرفع الحسي حتمًا، لأن (إلى) تمنع من احتمال المجاز بحمله على رفع المكانة كما سبق، مثل منْع ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[الأنعام: ٣٨] من أن يكون طائرًا مجازًا على ما وُصّل في موضعه اهـ

وما يقال من أن المتبادر من التوفي هو الموت فيمكن أن يُسَلَّم ذلك بالنظر إلى اليوم، لكن تطور اللغة في زمن متأخر إلى معنًى، لا يستلزم أن يكون هذا المعنى مفهومًا من اللفظ في تخاطُب الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ وقتَ نزول القرآن الحكيم، ولو كان هذا المعنى مفهومًا من لفظ التوفي إذْ ذاك لكان ﴿حِينَ مَوْتِهَا﴾ لغوًا في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾[الزُمَر: ٤٢] وجَلَّ كلام الله من أن يقع فيه لغو، ولا تعويلَ في تفسير كتاب الله على تخاطب اليوم بل على التخاطب في عهد التنزيل كما لا يخفى. اهـ(٢).

وقال الدكتور محمد خليل هراس رَحِمَهُٱللَّهُ: (وكيف يتوهم متوهم أن المراد بقول الله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾[النساء: ١٥٨] هو رفع رُوحه، وهو إنما ذُكر لإبطال ما زعموه من قتله وصلبه، ورفعُ الروح لا يُبْطِلُ القتلَ والصلبَ بل يجامعهما،

(١) نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، محمد زاهد الكوثري، ط. مكتبة القدسي (ص٣٢-٣٤).
(٢) نظرة عابرة (ص٣٧).

فإنهم لو قتلوه -فرضًا- لرُفعت روحه إلىٰ الله، علىٰ أن في إخباره عَزَّوَجَلَّ بأنه رفعه إليه ما يُشعر باختصاصه بذلك، والذي يمكن أن يختصّ به عيسىٰ هو رفعه حيًا بجسده وروحه، لأن أرواح جميع الأنبياء -بل المؤمنين- تُرفَع إلىٰ الله بعد الموت، لا فرق بين عيسىٰ وغيره، فلا تظهر الخصوصية)(١).

وقال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (اختلف المفسرون في قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] فقال قتادة وغيره: هذا من المقدَّم والمؤخَّر، تقديره: إني رافعك إليّ ومتوفيك، يعني بعد ذلك، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أَيْ: مُمِيتُكَ... وَقَالَ مَطَرٌ الْوَرَّاقُ: مُتَوَفِّيكَ مِنَ الدُّنْيَا وَلَيْسَ بِوَفَاةِ مَوْتٍ، وَكَذَا قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: تَوَفِّيهِ هُوَ رَفْعُهُ وقال الأكثرون: المراد بالوفاة هاهنا النوم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزُّمَر: ٤٢]، وكان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول إذا قام من النوم: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»)(٢).

فمعنىٰ ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥] إما بمعنىٰ النوم وأنه رُفع نائمًا، وإما بمعنىٰ الموت والواو لا تدل علىٰ الترتيب فموته بعد رفعه ثم نزوله، وإما بمعنىٰ القبض والأخذ من الأرض كما روىٰ ابن جرير عن مطر والوراق قال: متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت، وعن الحسن قال: متوفيك من الأرض، فعيسىٰ

(١) فصل المقال في نزول عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقتله الدجال. د/ محمد خليل هراس، ط. مكتبة السنة (ص١٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم، (٢/ ٤٦، ٤٧).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُفع حيًّا، وهو في السماء، وقد رآه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في معراجه في السماء الثانية مع ابن خالته يحيىٰ بن زكريا عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ.

وقد بقي في أيدي النصارىٰ ما يدلهم علىٰ الحق في هذه المسألة- لو كانوا يفقهون-، ففي إنجيل (يوحنا ٧: ٣٢-٣٦)، (٨: ٢١-٢٩) وأعمال الرسل (١/ ٩-١٢): (فأرسل الفريسيون ورؤساء الكهنة خدامًا ليمسكوه فقال لهم يسوع: أنا معكم زمانًا يسيرًا بعد، ثم أمضي إلىٰ الذي أرسلني، ستطلبونني ولا تجدونني، وحيث أكون أنا لا تقدرون أنت أن تأتوا) (يوحنا ٧: ٣٢-٣٦).

وصرح متبوعهم بولس بنجاة المسيح من الموت، فقال: (الذي في أيام جسده إذْ قَدَّم بصراخ شديد ودموعٍ طلباتٍ وتضرعاتٍ للقادر أن يخلصه من الموت وسُمِع له من أجل تقواه) (عبرانيين ٥: ٧)، فالمسيح دعا الله أن ينجيه فنجاه، وهو الذي قال مسبِّحًا ربه عَزَّوَجَلَّ: (وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي) (يوحنا ١١: ٤٠)، (وظهر له ملاك من السماء يقوّيه» (لوقا ٢٢: ٤٤)، (لأنه مكتوب أن يوصي ملائكته بك لكي يحفظوك) (متىٰ ٤: ٦)، (لوقا ٤: ١٠).

وفي سفر أعمال الرسل (١: ١-١١): (١الْكَلَامُ ٱلْأَوَّلُ أَنْشَأْتُهُ يَا ثَاوُفِيلُسُ، عَنْ جَمِيعِ مَا ٱبْتَدَأَ يَسُوعُ يَفْعَلُهُ وَيُعَلِّمُ بِهِ، ٢ إِلَىٰ ٱلْيَوْمِ ٱلَّذِي ٱرْتَفَعَ فِيهِ... ٩ وَلَمَّا قَالَ هَذَا ٱرْتَفَعَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ. وَأَخَذَتْهُ سَحَابَةٌ عَنْ أَعْيُنِهِمْ. ١٠ وَفِيمَا كَانُوا يَشْخَصُونَ إِلَىٰ السماء وَهُوَ مُنْطَلِقٌ، إِذَا رَجُلَانِ قَدْ وَقَفَا بِهِمْ بِلِبَاسٍ أَبْيَضَ، ١١ وَقَالَا: «أَيُّهَا الرجال ٱلْجَلِيلِيُّونَ، مَا بَالُكُمْ وَاقِفِينَ تَنْظُرُونَ إِلَىٰ السماء؟ إِنَّ يَسُوعَ هَذَا ٱلَّذِي ٱرْتَفَعَ عَنْكُمْ إِلَىٰ السماء سَيَأْتِي هَكَذَا كَمَا رَأَيْتُمُوهُ مُنْطَلِقًا إِلَىٰ السماء»، وهذا نص صريح لمن كان له قلب يعي ولكن هيهات!

فالحقُّ الذي لا مِرية فيه أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ رفع إليه المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، كما دلَّ عليه القرآن؛ قال تعالىٰ: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٧ - ١٥٨].

كم كان سِنُّ المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ عند رفعه إلىٰ السماء؟

المسيح صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جاء برسالة من الله إلىٰ بني إسرائيل وقد بلَّغ الرسالةَ وفعل ما أمره به ربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فلما تآمروا علىٰ قتله نجاه الله برفعه إلىٰ السماء، وقد اختلف أهل العلم في سنّه يومَ رُفِع، كما قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ في «فتح الباري»: (وَاخْتُلِفَ فِي عُمُرِهِ حِينَ رُفِعَ فَقِيلَ: ابن ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ، وَقِيلَ: مِائَةٍ وَعِشْرِينَ)(١).

قلت: والذي تحصّلَ لي -من كلام أهل العلم في المسألة- ثمانيةُ أقوال وهي:

القول الأول: أنه رُفِع وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سنة، وهو أشهر الأقوال، وعليه جمهور العلماء كما قال الدكتور محمد خليل هراس رَحِمَهُٱللَّهُ: (وقد ذهب جمهور المحدثين والمؤرخين إلىٰ أنه عَلَيْهِٱلسَّلَامُ رفع وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة)(٢)، واستدلّوا علىٰ ذلك بما يلي:

- **عن أنس بن مالك** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «يدخل أهل الجنةِ الجنةَ علىٰ طول آدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، ستون ذراعًا بذراع الملك، علىٰ حُسْن

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ط. دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، (٦/ ٤٩٣).

(٢) فصل المقال في نزول عيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وقتله الدجال. د/ محمد خليل هراس، ط. مكتبة السنة (ص٢٠).

يوسف، على ميلاد عيسى ثلاث وثلاثون سنة، وعلى لسان محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جرد مرد مكحلون»، رواه ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة»، والمقدسي في صفة الجنة، وإسناده ضعيف جدًّا، فقد انفرد به بهذا التمام: رواد بن الجراح العسقلاني الشامي، وخالفه عمر بن عبد الواحد وهو ثقة، فلم يذكر ميلاد عيسى، وروّاد ضعيف لا يتحمل التفرد، قال البخاري: ليس له كبير حديث قائم، وقال النسائي: ليس بالقوي، روى غير حديث منكر، وكان قد اختلط، وقال أبو أحمد ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابعه الناس عليه، بل قال الدارقطني: متروك، مع الاختلاف في سماع هارون بن رئاب من أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والحديث رواه أحمد والترمذي من حديث أبي هريرة بسند حسن وليس فيه ذِكر يوسف وعيسى.

- **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ شَبَابٌ مُرْدٌ مُكَحَّلُونَ، أَبْنَاءُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً، لَا يَبُولُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَإِنَّمَا هُوَ جُشَاءٌ، وَرَشْحٌ كَرَشْحِ مِسْكٍ، يَخْرُجُ مِنْ جُلُودِهِمْ، عَلَى مِيلَادِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ»، أخرجه أبو نعيم في «صفة الجنة» وفي سنده جَعْفَرُ بْنُ جَسْرِ بْنِ فَرْقَدٍ القَصَّابُ، ثنا أَبِي، وجعفر وأبوه ضعيفان، فأما جسر بن فرقد فقد قال البخاري: ليس بذاك عندهم، وقال ابن معين: ليس بشيء، وقال النسائي: ضعيف، وأما ولده جعفر بن جسر بن فرقد: فقد قال فيه العقيلي: حِفْظُه فيه اضطراب شديد كان يذهب إلى القدر وحدث بمناكير.

- **عن معاذ بن جبل** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال عند وفاته: رَوِّحوني، ألقى الله مثل سن عيسى ابن مريم ابن ثلاث وثلاثين أو أربع وثلاثين سنة. أخرجه ابن عساكر في «تاريخه»(١) قال: أخبرنا أبو غالب وأبو عبد الله، ابنا أبي عليّ قالا: أنا أبو الحسين

---

(١) تاريخ دمشق، أبو القاسم ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٥٨/ ٤٥٩).

بن الآبنوسي، أنا أحمد بن عبيد إجازةً، نا محمد بن الحسين، نا ابن أبي خيثمة، أنا المدائني عن أبي سفيان الغداني عن ثور عن خالد بن معدان عن عبد الله بن قرط قال: حضرت وفاة معاذ بن جبل فقال روِّحوني ألقىٰ الله مثل سن عيسىٰ بن مريم ابن ثلاث وثلاثين أو أربع وثلاثين سنة.

- **عن سعيد بن المسيب** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **قال**: رُفِعَ عيسىٰ ابن مريم وهو ابن ثلاث وثلاثين. أخرجه ابن عساكر في «تاريخه»(١)، من طريق حماد بن سلمة، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ قَالَ: رُفِعَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً، وَمَاتَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وسنده ضعيف فيه علي بن زيد وهو ابن جدعان ضعفه أبو زرعة وأبو حاتم وأحمد ويحيىٰ بن معين، ومع ضعف سنده فهو مقطوع لا تقوم به الحجة.

-**ومما استُدِلَّ به أيضًا** علىٰ أن عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رُفع إلىٰ السماء وعمره ثلاث وثلاثون سنة، ما جمع به بعضُ أهل العلم بين الأحاديث الواردة في مدة مقام المسيح علىٰ الأرض بعد نزوله، فقد صح أنه يبقىٰ سبع سنين، وورد أنه يبقىٰ أربعين سنة، فقيل: إن الأربعين هي مجموع عمره الذي عاشه علىٰ الأرض في حياتَيْه الأولىٰ والثانية، وبهذا يكون عمره عند رفعه إلىٰ السماء ثلاثًا وثلاثين سنة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَتَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ آدَمَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «وَإِنَّهُ نَازِلٌ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَىٰ الْحُمْرَةِ وَالبَيَاضِ، عَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُمَصَّرَانِ، كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ، وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ، فَيَدُقُّ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الجِزْيَةَ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَىٰ الإِسْلَامِ، وَيُهْلِكُ اللهُ تَعَالَىٰ فِي زَمَانِهِ المِلَلَ كُلَّهَا

(١) تاريخ دمشق، أبو القاسم ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٥٨/ ٤٥٨)، (٤٧/ ٤٨٤).

إِلَّا الإِسْلَامَ، وَيُهْلِكُ اللهُ فِي زَمَانِهِ المَسِيحَ الدَّجَّالَ، ثُمَّ تَقَعُ الأَمَنَةُ عَلَىٰ الأَرْضِ، حَتَّىٰ تَرْتَعَ الأُسُودُ مَعَ الإِبِلِ، وَالنِّمَارُ مَعَ البَقَرِ، وَالذِّئَابُ مَعَ الغَنَمِ، وَيَلْعَبُ الصِّبْيَانُ بِالحَيَّاتِ لَا تَضُرُّهُمْ، فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ثُمَّ يُتَوَفَّىٰ، وَيُصَلِّي عَلَيْهِ المُسْلِمُونَ»، رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَأَبُو دَاوُدَ.

وَهَكَذَا وَقَعَ فِي هَذَا الحَدِيثِ أَنَّهُ يَمْكُثُ فِي الأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَثَبَتَ فِي «صحيح مسلم» عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: أَنَّهُ يَمْكُثُ فِي الأَرْضِ سَبْعَ سِنِينَ، فَهَذَا مَعَ هَذَا مُشْكِلٌ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تُحْمَلَ هَذِهِ السَّبْعُ عَلَىٰ مُدَّةِ إِقَامَتِهِ بَعْدَ نُزُولِهِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ مَحْمُولًا عَلَىٰ مُكْثِهِ فِيهَا قَبْلَ رَفْعِهِ مُضَافًا إِلَيْهِ، وَكَانَ عُمْرُهُ قَبْلَ رَفْعِهِ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً عَلَىٰ المَشْهُورِ، وَهَذِهِ السَّبْعُ تَكْمِلَةُ الأَرْبَعِينَ، فَيَكُونُ هَذَا مُدَّةَ مُقَامِهِ فِي الأَرْضِ قَبْلَ رَفْعِهِ وَبَعْدَ نُزُولِهِ، وَأَمَّا مُقَامُهُ فِي السَّمَاءِ قَبْلَ نُزُولِهِ فَهُوَ مُدَّةٌ طَوِيلَةٌ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ)(١).

وقال رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ آدَمَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ عِيسَىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ يَمْكُثُ فِي الأَرْضِ بَعْدَ نُزُولِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، ثُمَّ يُتوفىٰ وَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ، وَفِي حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو عِنْدَ مُسْلِمٍ: أَنَّهُ يَمْكُثُ سَبْعَ سِنِينَ، فَيُحْتَمَلُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- أَنْ يَكُونَ المُرَادُ بِلُبْثِهِ فِي الأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، مَجْمُوعَ إِقَامَتِهِ فِيهَا قَبْلَ رَفْعِهِ وَبَعْدَ نُزُولِهِ، فَإِنَّهُ رُفِعَ وَلَهُ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً فِي الصَّحِيحِ(٢)، وَقَدْ وَرَدَ ذَلِكَ فِي حَدِيثٍ فِي صِفَةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: أَنَّهُمْ عَلَىٰ صُورَةِ آدَمَ وَمِيلَادِ عِيسَىٰ ثَلَاثٍ

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط. دار هجر، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٨، (١٩/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٢) يعني في القول الصحيح عنده كما رجحه.

وَثَلَاثِينَ سَنَةً، وَأَمَّا مَا حَكَاهُ ابْنُ عَسَاكِرَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ رُفِع وَلَهُ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ سَنَةً(١)، فَشَاذٌّ غَرِيبٌ بَعِيدٌ)(٢).

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَصْلٌ فِي مَبْعَثِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَوَّلِ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ: بَعَثَهُ اللهُ عَلَىٰ رَأْسِ أَرْبَعِينَ وَهِيَ سِنُّ الكَمَالِ، قِيلَ: وَلَهَا تُبْعَثُ الرُّسُلُ، وَأَمَّا مَا يُذْكَرُ عَنِ المَسِيحِ أَنَّهُ رُفِعَ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَلَهُ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً فَهَذَا لَا يُعْرَفُ لَهُ أَثَرٌ مُتَّصِلٌ يَجِبُ المَصِيرُ إِلَيْهِ)(٣).

القول الثاني: أنه رُفِع إلىٰ السماء وله أربعٌ وثلاثون سنة، وهو قريبٌ مما قبله، وهذا مرويٌّ -علىٰ الشكّ- عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما مرّ قريبًا أنه قال عند وفاته: رَوِّحوني، ألقىٰ الله مثل سن عيسىٰ بن مريم ابن ثلاث وثلاثين أوْ أربع وثلاثين سنة، أخرجه ابن عساكر في «تاريخه»(٤).

وهو مرويٌّ أيضًا عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ، كما قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: كَانَ عُمَرُ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ رُفِعَ، أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً)(٥).

---

(١) لم أجد عند ابن عساكر (أنه رُفِع وله مائة وخمسون سنة، فلعله تصحيف والله أعلم).

(٢) تفسير القرآن العظيم، (٢/ ٤٦٦).

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية، تحقيق، الأرناؤوط، ط. مؤسسة بيروت، الطبعة: السابعة والعشرون، ١٤١٥، (١/ ٨٢).

(٤) تاريخ دمشق، أبو القاسم ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٥٨/ ٤٥٩).

(٥) البداية والنهاية، ابن كثير، ط. دار هجر، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٨، (٢/ ٥١٥).

قلت: هذا الأثر رواه الإمام ابن عساكر في «تاريخه» عن الحسن أنه قال -في أثر طويل له-: (... وكان الله أنزل عليه الإنجيل وهو ابن ثلاث عشرة سنة ورُفِعَ وهو ابن أربع وثلاثين سنة من ميلاده وكان في نبوته عشرين سنة...)(١)، وإسناده ضعيف جدًّا، فيه عنعنة قتادة وهو مدلس، وفيه أبو حذيفة إسحاق ابن بشر، وهو ضعيف تالف، والأثر مع ضعفه مقطوع، وفي متنه نكارة، فإنه إن كان المسيح نبئ وهو ابن ثلاث عشرة سنة ومكث في نبوته عشرين سنة، فينبغي أن يكون قد رُفِع وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين، وهو القول الأول.

(تنبيه) **الزعم بأن النبوة لا تكون قبل الأربعين أمرٌ لا دليلَ عليه**، فأما حديث أن الأربعين هي السن التي يُبعث لها الأنبياء، فقد أورده الزمخشريّ في «تفسيره» بلفظ: (ويروىٰ أنه لم يبعث نبيٌّ إلا علىٰ رأس أربعين سنة)، وقال ابن حجر في «الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف»: إنه لم يجده.

وحديث «وما من نبي إلا نبئ بعد الأربعين» فقد قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (موضوعٌ، لأن عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نبئ ورفع إلىٰ السماء وهو ابن ثلاثة وثلاثين سنة فاشتراط الأربعين في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليس بشيء) وقد قال الله تعالىٰ عن يحيىٰ بن زكريا عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾[مريم: ١٢]، وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: (ما بعث الله نبيًّا إلا وهو شاب، ثم تلا: ﴿فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾[الأنبياء: ٦٠])(٢).

---

(١) تاريخ دمشق، أبو القاسم ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٤٧/ ٤٧٠).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره والطبراني في الأوسط والضياء وصححه، وعزاه السيوطي في الدر المنثور إلىٰ سعيد بن منصور وابن المنذر وعبد بن حميد وابن مردويه.

وأما تعقب السخاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لكلام ابن الجوزي بقوله: (كذا قال، وما قدمناه في حديث: ما بعث الله نبيا يَرِدُ عليه)(١)، ففيه نظر لأن الحديث المشار إليه لا يصحّ أصلًا كما يأتي عند ذكر القول السادس إن شاء الله.

القول الثالث: أنه رُفع وله أربعون سنة، وقد استدلّ القائلون بهذا القول بما يأتي في القول السادس: «إِنَّ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ مَكَثَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَرْبَعِينَ سَنَةً»، ويأتي أنه حديث ضعيف جدًّا لانقطاعه، ولأن في سنده الحسين بن علي بن الأسود وهو ضعيف جدًّا، مع أن في الاستدلال بهذا نظرًا، لأن المقصود من الأربعين هو مدة الدعوة قبل رفعه لا مدة حياته الأولىٰ، كما يأتي بيانه في القول السادس إن شاء الله.

القول الرابع: أنه رُفِعَ وعمره فوق الأربعين، من دون تحديد، وهذا علىٰ القول بأنه لبث فيهم أربعين سنة نبيًّا وأنه قد نبئ وهو دون الأربعين، كما يأتي بيانه في القول السادس إن شاء الله، وهذا القول مفهومٌ من مجموع كلام أهل العلم، ولم أرَ من صرَّح به.

القول الخامس: أنه رُفِع وله ثلاثٌ وستون سنة، وهذا مرويّ عن سعيد ابن المسيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، رواه ابن عساكر وأعلّه بمخالفة المشهور عن ابن المسيب، فقال الحافظ ابن عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أخبرنا أبو القاسم علي بن أحمد بن بيان في كتابه، أنبأنا أبو القاسم بن بشران. ح وأخبرنا أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك، أنبأنا أبو الفضل بن خيرون، أنبأنا أبو القاسم بن بشران، أنبأنا أبو علي ابن الصواف،

---

(١) المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة علىٰ الألسنة، شمس الدين السخاوي، تحقيق: محمد عثمان الخشت، ط. دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٥، (ص٥٨٨)، ورقم الحديث: (٩٨٥)، ولفظه: (مَا مِنْ نَبِيٍّ نُبِّئَ إِلا بَعْدَ الأَرْبَعِينَ).

حدثنا محمد بن سفيان بن أبي شيبة، حدثنا أبي حدثنا شاذان، حدثنا حماد بن سلمة عن عليّ بن زيد عن سعيد بن المسيب قال: رفع عيسىٰ ابن مريم ابنَ ثلاثٍ وستين سنة، والأول هو الصحيح)(١)، وفي سنده علي بن زيد بن جدعان ضعيف، وأما قول الحافظ ابن عساكر: (والأول هو الصحيح)، فهو يشير إلىٰ قول ابن المسيب: إنه رفع وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين، ولعله عنىٰ أن القول الأول هو المحفوظ عن ابن المسيب، ولا يعني الصحة المنافية للضعف، فإن سندهما واحد وفيه عليّ ابن زيد بن جدعان هو ضعيف، كما مرّ في القول الأول.

القول السادس: أنه رُفِع إلىٰ السماء وله ثمانون سنة، ودليله ما يلي:

- عن عمرو بن دينار عن يحيىٰ بن جعدة أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال لفاطمة: إنه لم يعمَّر نبي قط إلا عُمِّر الذي بعده نصف عمر صاحبه، عُمِّر عيسىٰ أربعين، وأنا عشرين»، أخرجه إسحاق بن راهويه في «مسنده»، وابن سعد في طبقاته، وابن شاهين في كتابه: فضائل فاطمة، وسنده ضعيف، لإرساله، فإن يحيىٰ ابن جعدة لم يلق النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

- عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ جَعْدَةَ قَالَ: قَالَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: إِنَّ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ مَكَثَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، أخرجه أبو يعلىٰ في «مسنده»، وإسناده ضعيف جدًّا، مع انقطاعه، فيه الحسين بن علي بن الأسود ضعيف جدًّا اتُّهِم بسرقة الحديث، وهو مع ذلك يخطئ كثيرًا، وهو

(١) تاريخ دمشق، أبو القاسم ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٤٧/ ٤٨٤).

منقطع أيضًا، فإن يحيىٰ بن جعدة لم يدرك فاطمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، كما قال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

- عَنْ زَيْدِ بْن أَرْقَمَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «لبث عيسىٰ ابن مَرْيَمَ فِي قَوْمِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً»، أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» من طريق نوح بن قيس، قال نا الوَلِيدُ عَنِ ابْنِ امْرَأَةِ زَيْدِ بْن أَرْقَمَ، وإسناده ضعيف، فيه مبهم، وهو ابن امرأة زيد بن أرقم، ومجهولٌ والوليد الذي يروي عنه هو ابن صالح مجهول العدالة.

وبهذا القول قال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كما رواه عنه الحافظ ابن عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: (أنبأنا أبو القاسم بن بيان، أنبأنا أبو القاسم بن بشران. ح وأخبرنا أبو البركات الأنماطي، أنبأنا أبو الفضل أحمد بن الحسن، أنبأنا أبو القاسم بن بشران، أنبأنا محمد بن أحمد بن الحسن، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا أبي، حدثنا عثمان، حدثنا جرير عن الأعمش عن إبراهيم قال: لم يكن نبيٌّ إلا عاش مثل نصف عمر صاحبه الذي كان قبله، وعاش عيسىٰ في قومه أربعين سنة. أخبرنا أبو البركات أيضًا، أنبأنا أبو طاهر أحمد بن الحسن وأبو الفضل بن خيرون قالا: أنبأنا عبد الملك بن محمد، أنبأنا أبو علي بن الصواف، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا أبي حدثنا معاوية بن هشام، حدثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم قال: مكث عيسىٰ في قومه أربعين عامًا)(٢).

(١) وانظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي، (٨/ ٢٠٦)، الحديث رقم: (١٣٧٩٣)، والسلسلة الضعيفة للعلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، الحديث رقم: (٥٨٥٩).

(٢) تاريخ دمشق، أبو القاسم ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٤٧/ ٤٨٣، ٤٨٤).

وظاهر هذه الأحاديث والآثار أن المقصود بمكث المسيح في قومه: مدة دعوته، كقول الله عن نوح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾[العنكبوت: ١٤].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ: (يقول لنبيه محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: لا يحزننك يا محمد ما تلقىٰ من هؤلاء المشركين أنت وأصحابك من الأذىٰ، فإني وإن أمليت لهم فأطلت إملاءهم، فإن مصير أمرهم إلىٰ البوار، ومصير أمرك وأمر أصحابك إلىٰ العلوّ والظفر بهم، والنجاة مما يحلّ بهم من العقاب، كفعلنا ذلك بنوح، إذْ أرسلناه إلىٰ قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلىٰ التوحيد، وفراق الآلهة والأوثان، فلم يزدهم ذلك من دعائه إياهم إلىٰ الله من الإقبال إليه، وقبول ما أتاهم به من النصيحة من عند الله إلا فرارًا)(١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: (هَذِهِ تَسْلِيَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَىٰ لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، يُخْبِرُهُ عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: أَنَّهُ مَكَثَ فِي قَوْمِهِ هَذِهِ الْمُدَّةَ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ اللهِ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَسِرًّا، وجهارًا)(٢).

ويدلّ علىٰ أن ذلك هو المقصود من هذه الأحاديث: قوله في هذا الحديث: «عُمِّرَ عيسىٰ أربعين، وأنا عشرين»، فقوله: «وأنا عشرين» مقصوده عمر الدعوة بلا شك، وقد نبّئ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علىٰ رأس الأربعين، فمع القول بنبوة عيسىٰ عند الأربعين علىٰ المشهور، فيكون عيسىٰ قد لبث أربعين سنة نبيًّا رسولًا، ورُفِع وهو ابنُ ثمانين سنة، وهو قولٌ لم أرَ من صرح به من أهل العلم إلا الشيخ أنور شاه الكشميري رَحِمَهُٱللَّهُ، لكنه لم يقله استنباطًا من هذه الأدلة، وإن كان هذا مفهومًا من

(١) جامع البيان، (٢٠/ ١٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم، (٦/ ٢٦٧).

كلامهم كما ترىٰ، ويأتي كلامه وما استدلّ به إن شاء الله، وأما الاستدلال بهذه الأحاديث علىٰ القول بأنه رفع وعمره أربعون سنة وهو القول الثالث، ففيه نظرٌ ظاهرٌ، والله أعلم.

قال الشيخ محمد أنور الكشميري رَحِمَهُٱللَّهُ: (قوله: (حَدَّثَنا أَبو نُعَيْمٍ... عن عَائِشَةَ)... إلخ، وفيه زيادةٌ في «معجم الطبراني» بهذا الإسناد: «أن كلَّ نبيَ عاش نصف عمر الذي قبله، وأن عيسىٰ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ عاش مئة وعشرين، فلا أُراني ذاهبًا إلاَّ علىٰ رأس ستين»، وهذا مُشْكِلٌ، فإنه لا يَسْتَقِيمُ بحسب أعمار الأنبياء عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ. والمرادُ عندي أنه باعتبار أُولي العزم من الأنبياء عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ الذي دُوِّن التاريخ بهم، وأمَّا عمر عيسىٰ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، فتفصيلُه: أنه رُفِعَ وهو ابن ثمانين سنة، ويَمْكُثُ في الأرض بعد نزوله أربعين سنة، وأمَّا «سبع سنين» عند مسلم، فهي عمره مع المهدي عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، فتلك مئة وعشرون)(١).

وقال رَحِمَهُٱللَّهُ: (وأمَّا رَفْعُهُ، فكان علىٰ ثمانين سنة، وصحَّحه الحافظ في «الإصابة»، وهو الذي رجع إليه السيوطي في «مرقاة الصعود»، وأمَّا مجموع عمره عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ فمئةٌ وعشرون، نُبِّئَ علىٰ أربعين منها، ورُفِعَ علىٰ ثمانين، ويَمْكُثُ في الأرض أربعين. وقد مَضَىٰ منها ثمانون، فبَقَيَ أربعون)(٢).

قلت: وقد استدلّ رَحِمَهُٱللَّهُ -كما ترىٰ- بالجمع بين حديث بقائه أربعين سنة بعد نزوله، وهو صحيح، وبين حديث أن عيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قد عُمِّر مائة وعشرين

(١) فيض الباري علىٰ صحيح البخاري، محمد أنور شاه الكشميري، تحقيق: محمد بدر عالم الميرتهي، ط. دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٦، (٤/ ٤٥٦).

(٢) فيض الباري علىٰ صحيح البخاري، محمد أنور شاه الكشميري، تحقيق: محمد بدر عالم الميرتهي، ط. دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٦، (٣/ ٤٩١، ٤٩٠).

سنة، فيكون مدة مقامه في قومه قبل رفعه ثمانين سنة، وهذا الجمع والاستنباط يصحّ لو صحّ حديث المائة وعشرين، لكنه لم يصح كما يأتي إن شاء الله في القول السادس.

وأما علىٰ القول بأن عيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ نُبِّئ دون الأربعين، مع القول بالأحاديث الدالة علىٰ مكثه أربعين سنة يدعو قومه، فيكون قد رفع فوق الأربعين بلا تحديد، لعدم معرفتنا بالسن الذي نبئ فيه، ويكون هذا هو القول الرابع كما مرّ.

القول السابع: أنه رفع وله مائة وعشرون سنة، قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ في «فتح الباري»: (وَاخْتُلِفَ فِي عُمُرِهِ حِينَ رُفِعَ فَقِيلَ بن ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ، وَقِيلَ: مِائَةٍ وَعِشْرِينَ)(١)، واستدل القائلون بذلك بما يلي:

- **عن زيد بن أرقم** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «ما بعث الله نبيًّا إلا عاش نصف عمر الذي قبله»، وهو حديث ضعيف جدًّا، رواه البزار، والبخاري في التاريخ، وأبو نعيم في الحلية، وعنه الديلمي، وفي سنده عبيد بن إسحاق العطار، قال البخاري: منكر الحديث، وقال النسائي والأزدي: متروك الحديث(٢).

- **عن عائشة** رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أنها كانت تقول: أخبرتني فاطمة أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أخبرها أنه لم يكن نبي كان بعده نبيٌ إلا عاش بعده نصف عمر الذي كان قبله وأنه أخبرني أن عيسىٰ ابن مريم عاش عشرين ومائة سنة، فلا أراني إلا ذاهب علىٰ رأس ستين، فأبكاني ذلك...» الحديث، أخرجه الحاكم، ومن طريقه

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ط. دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، (٦/ ٤٩٣).

(٢) انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، للعلامة الألباني، الحديث رقم: (٤٤٣٤).

ابن عساكر في «تاريخه»(١) والفسويّ في «تاريخه»، والطبراني، وإسناده ضعيف؛ فيه محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان؛ وثّقَهُ النسائيُّ مرةً، وقال مرةً: ليس بالقوي، وقال البخاري: لا يكاد يتابَع في حديثه، والحديث ضعفه ابن عساكر وابن كثير والهيثميّ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: (فَأَمَّا الحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي «مُسْتَدْرَكِهِ»، وَيَعْقُوبُ بْنُ سُفْيَانَ الفَسَوِيُّ فِي «تَارِيخِهِ»، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي مَرْيَمَ، عَنْ نَافِعِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ عُمَارَةَ بْنِ غَزِيَّةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ عُثْمَانَ، أَنَّ أُمَّهُ فَاطِمَةَ بِنْتَ الحُسَيْنِ، حَدَّثَتْهُ أَنَّ عَائِشَةَ كَانَتْ تَقُولُ: «أَخْبَرَتْنِي فَاطِمَةُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَخْبَرَهَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ كَانَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ إِلَّا عَاشَ الَّذِي بَعْدَهُ نِصْفَ عُمْرِ الَّذِي كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّهُ أَخْبَرَنِي أَنَّ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ عَاشَ عِشْرِينَ وَمِائَةَ سَنَةٍ، فَلَا أَرَانِي إِلَّا ذَاهِبٌ عَلَىٰ رَأْسِ سِتِّينَ»، هَذَا لَفْظُ الفَسَوِيِّ؛ فَهُوَ حَدِيثٌ غَرِيبٌ.

قَالَ الحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرَ: وَالصَّحِيحُ أَنَّ عِيسَىٰ لَمْ يَبْلُغْ هَذَا العُمْرَ، وَإِنَّمَا أَرَادَ بِهِ مُدَّةَ مَقَامِهِ فِي أُمَّتِهِ، كَمَا رَوَىٰ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ جَعْدَةَ، قَالَ قَالَتْ فَاطِمَةُ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: إِنَّ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ مَكَثَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَرْبَعِينَ سَنَةً. وَهَذَا مُنْقَطِعٌ، وَقَالَ جَرِيرٌ، وَالثَّوْرِيُّ، عَنِ الْأَعْمَشِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ: مَكَثَ عِيسَىٰ فِي قَوْمِهِ أَرْبَعِينَ عَامًا)(٢).

---

(١) تاريخ دمشق، أبو القاسم ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٤٧/ ٤٨١، ٤٨٢).

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، ط. دار هجر، (٢/ ٥١٦)، وكلام ابن عساكر مختَصر، ويأتي بتمامه في القول الثامن.

وقال الحافظ نور الدين الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادٍ ضَعِيفٍ، وَرَوَىٰ الْبَزَّارُ بَعْضَهُ أَيْضًا، وَفِي رِجَالِهِ ضَعْفٌ)(١).

القول الثامن: أنه رُفع وله مائة وخمسٌ وعشرون سنة، ودليله ما رواه الحافظ ابن عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تاريخه»، قال: (أخبرنا أبو بكر الأنصاري، أنبأنا أبو محمد الجوهري، أنبأنا أبو عمر بن حيويه، أنبأنا أحمد بن معروف، أنبأنا الحارث بن أبي أسامة، أنبأنا محمد بن سعد، أنبأنا هاشم بن القاسم، حدثنا أبو معشر عن يزيد بن زياد قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -في السنة التي قبض فيها- لعائشة: «إن جبريل كان يعرض علي القرآن في كل سنة مرة، وقد عرض علي العام مرتين، وإنه لم يكن نبيٌّ إلا عاش نصف عمر أخيه الذي كان قبله، عاش عيسىٰ مائة وخمسًا وعشرين سنة، وهذه اثنتان وستون سنة»، ومات في نصف السنة.

قال ابن عساكر: كذا في هاتين الروايتين(٢)، والصحيح أن عيسىٰ لم يبلغ هذا العمر، وإنما أراد به مدة مقامه في أمته، كما أخبرنا أبو عبد الله الفراوي وأبو المظفر القشيري قالا، أنبأنا أبو سعد محمد بن عبد الرحمن، أنبأنا أبو عمرو بن حمدان. ح وأخبرتنا أم المجتبىٰ بنت ناصر قالت: قرئ علىٰ إبراهيم بن منصور، أنبأنا أبو بكر ابن المقرئ قالا: أنبأنا أبو يعلىٰ، حدثنا الحسين بن الأسود، حدثنا عمرو بن محمد العنقزي، حدثنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن يحيىٰ بن جعدة قال: قالت فاطمة بنت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال لي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن عيسىٰ بن مريم مكث في بني إسرائيل أربعين سنة».

---

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، ط. مكتبة القدسي- القاهرة، ١٤١٤، (٩/ ٢٣)، الحديث رقم: (١٤٢٤٥).

(٢) يعني رواية أنه عاش مائة وعشرين، ورواية أنه عاش مائة وخمسًا وعشرين.

أخبرنا أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن عبد الواحد، أنبأنا أبو الحسين بن المهتدي، حدثنا أبو حفص بن شاهين، حدثنا عبد الله بن محمد البغوي، حدثنا محمد بن عمار المكي، حدثنا سفيان عن عمرو عن يحيىٰ بن جعدة قال: دعا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاطمة في مرضه الذي توفي فيه فسارَّها بشيء فبكت ثم سارَّها بشيء فضحكت، فسألوها فأَبَتْ أن تخبر فلما قُبِض صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبرتهم، قالت: دعاني فقال: «إن الله لم يبعث نبيًّا إلا وقد عُمِّر الذي بعده نصفَ عمره، وإن عيسىٰ لبث في بني إسرائيل أربعين سنة، وهذه توفي لي عشرين ولا أراني إلا ميتٌ في مرضي هذا، وإن القرآن كان يُعْرَضُ عليَّ في كل عام مرة وإنه عُرِضَ عليَّ في هذه السنة مرتين فبكيتُ، ثم دعاني فقال لي إن أول مَنْ يَقْدُم عليَّ مِن أهلي أنتِ فضحكتُ.

أنبأنا أبو القاسم بن بيان، أنبأنا أبو القاسم بن بشران. ح وأخبرنا أبو البركات الأنماطي، أنبأنا أبو الفضل أحمد بن الحسن، أنبأنا أبو القاسم بن بشران، أنبأنا محمد بن أحمد بن الحسن، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا أبي، حدثنا عثمان، حدثنا جرير عن الأعمش عن إبراهيم قال: لم يكن نبيٌّ إلا عاش مثل نصف عمر صاحبه الذي كان قبله، وعاش عيسىٰ في قومه أربعين سنة.

أخبرنا أبو البركات أيضا، أنبأنا أبو طاهر احمد بن الحسن وأبو الفضل بن خيرون قالا: أنبأنا عبد الملك بن محمد، أنبأنا أبو علي بن الصواف، حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة، حدثنا أبي، حدثنا معاوية بن هشام، حدثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم قال: مكث عيسىٰ في قومه أربعين عامًا)(١).

---

(١) تاريخ دمشق، أبو القاسم ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٤٧/ ٤٨٢-٤٨٤).

وخلاصة البحث: أنه لا يصحُّ شيء في تحديد سنّ المسيح عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ عند رفعه إلىٰ السماء، وإن كان القول الأول -وهو رفعه وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين- هو أقواها إذا تعاضدت أدلته، وهو قول جمهور العلماء، والله أعلم.

المسيحُ حيٌّ في السماء

مما سبق يتبين لنا أن المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حيٌّ في السماء، وأنه رفع حيًا، وأنه لم يَمُت حتىٰ الآن، بل هو علىٰ حياته الأولىٰ التي وُلِد بها، وليست حياته كحياة غيره من الشهداء الذين أخبرنا الله عنهم بأنهم ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩﴾ [آل عمران: ١٦٩] ولا كحياة الأنبياء الذين ماتوا، وقال عنهم الصادق المصدوق صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»(١)، وفي «صحيح مسلم» عن أنسٍ أيضًا أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «مررت علىٰ موسىٰ وهو قائم يصلي في قبره» وفي رواية: «أتيت علىٰ موسىٰ ليلةَ أسري بي عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره»، فهذه حياة برزخية خاصة بهم، ولكنّ حياة عيسىٰ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أخصّ من هذه فهي حياته الأولىٰ ولكن في السماء، وقد لقيه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليلةَ المعراج في السماء الثانية، وحياةُ المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ أمرٌ مُجْمَعٌ عليه.

قال الإمام ابن عطية الأندلسي رَحِمَهُٱللَّهُ: (وأجمعت الأمة علىٰ ما تضمنه الحديث المتواتر من أن عيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في السماء حيٌّ، وأنه ينزل في آخر الزمان فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويقتل الدجال ويفيض العدل ويظهر هذه الملة ملة محمد ويحج البيت ويعتمر، ويبقىٰ في الأرض أربعًا وعشرين سنة، وقيل: أربعين سنة، ثم يميته الله تعالىٰ)(٢).

---

(١) صحيح رواه البزار من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني في الصحيحة (٦٢١).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، ط. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولىٰ - ١٤٢٢، (١/ ٤٤٤).

(فائدة) قد يشكل على البعض قول الله عَزَّوَجَلَّ عن المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١﴾ [مريم: ٣١]، فكيف يصلي؟ وكيف يؤدي الزكاة في السماء؟ ولِمَنْ يؤديها؟!

ولا إشكالَ في ذلك، فالأنبياء كلهم يصلون في قبورهم بعد موتهم(١)، فمن باب أولى الأحياء منهم، وأما الزكاة فلا تكون إلا عند وجود محتاج إليها ومالٌ يتصدق به، وكلاهما مفقود في السماء، فلا إشكال؛ والله أعلم.

وقد تُحْمَلُ الحياة في الآية على حياته المعهودة في الدنيا، أو تكون الزكاة بمعناها اللغويّ العامّ وهو التطهير والتزكية، فلا يكون ثَمَّ إشكال، قال الإمام الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ: (وقوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١﴾ يقول: ما كنت حيًّا في الدنيا موجودًا، وهذا يبين عن أن معنى الزكاة في هذا الموضع: تطهير البدن من الذنوب، لأن الذي يوصَف به عيسى صلوات الله وسلامه عليه أنه كان لا يدّخرُ شيئًا لغدٍ، فتجب عليه زكاة المال، إلا أن تكون الزكاة التي كانت فُرِضت عليه الصدقة بكلّ ما فضل عن قوته، فيكون ذلك وجهًا صحيحًا)(٢).

وقال رَحِمَهُٱللَّهُ: (وقوله: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ يقول: وقضى أن يوصيني بالصلاة والزكاة، يعني المحافظة على حدود الصلاة وإقامتها على ما فرضها عليّ، وفي الزكاة معنيان: أحدهما: زكاة الأموال أن يؤدّيها. والآخر: تطهير الجسد من دنس الذنوب؛ فيكون معناه: وأوصاني بترك الذنوب واجتناب المعاصي)(٣).

---

(١) ودليل ذلك حديث: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»، وقد رواه أبو يعلى والبزار، والبيهقي في جزء (حياة الأنبياء في قبورهم) وصححه، وفي «صحيح مسلم» أنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مرّ بموسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قائمًا في قبره يصلي.

(٢) جامع البيان، (١٨/ ١٩١).

(٣) جامع البيان، (١٨/ ١٩٠).

الفصل السادس

اختلاف بني إسرائيل بعد رفع المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

عند بعثة عيسىٰ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ اختلف بنو إسرائيل ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾[الصف: ١٤] «فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة»، ولما رُفع إلىٰ السماء زاد اختلافهم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾[مريم: ٣٧].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَقَوْلُهُ: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أَي: اخْتَلَفَتْ أَقْوَالُ أَهْلِ الكِتَابِ فِي عِيسَىٰ بَعْدَ بَيَانِ أَمْرِهِ وَوُضُوحِ حَالِهِ، وَأَنَّهُ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، فصَمَّمَت طَائِفَةٌ -وَهُمْ جُمْهُورُ اليَهُودِ، عَلَيْهِمْ لِعَائِنُ اللهِ -عَلَىٰ أَنَّهُ وَلَدُ زنْيَة، وَقَالُوا: كَلَامُهُ هَذَا سِحْرٌ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ: إِنَّمَا تَكَلَّمَ اللهُ، وَقَالَ آخَرُونَ: هُوَ ابْنُ اللهِ، وَقَالَ آخَرُونَ: ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَهَذَا هُوَ قَوْلُ الحَقِّ، الَّذِي أَرْشَدَ اللهُ إِلَيْهِ المُؤْمِنِينَ، وَقَدْ رُوِيَ نَحْوُ هَذَا عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ، وَابْنِ جُرَيْجٍ، وَقَتَادَةَ، وَغَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ وَالخَلَفِ)(١).

وقال القرطبي رَحِمَهُٱللَّهُ: (قوله تعالىٰ: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ مِنْ زَائِدَةٌ أَي اخْتَلَفَ الأَحْزَابُ بَيْنَهُمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَيْ مَا بَيْنَهُمْ فَاخْتَلَفَتِ الفِرَقُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي أَمْرِ عِيسَىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ. فَاليَهُودُ بِالْقَدْحِ وَالسِّحْرِ. وَالنَّصَارَىٰ قَالَتِ النَّسْطُورِيَّةُ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، (٥/ ٢٣١).

مِنْهُمْ: هُوَ ابْنُ اللهِ. وَالمَلْكَانِيَّةُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ. وَقَالَتِ اليَعْقُوبِيَّةُ: هُوَ اللهُ، فَأَفْرَطَتِ النَّصَارَىٰ وَغَلَتْ، وَفَرَّطَتِ اليَهُودُ وَقَصَّرَتْ)(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٦- ١٥٨].

قال الإمام البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ فِي قَتْلِهِ ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ﴾ أَيْ: فِي قَتْلِهِ، قَالَ الكَلْبِيُّ: اخْتِلَافُهُمْ فِيهِ هُوَ أَنَّ اليَهُودَ قَالَتْ: نَحْنُ قَتَلْنَاهُ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ النَّصَارَىٰ: نَحْنُ قَتَلْنَاهُ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: مَا قَتَلَهُ هَؤُلَاءِ وَلَا هَؤُلَاءِ بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ، وَنَحْنُ نَنْظُرُ إِلَيْهِ... قال الله تعالىٰ: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ من حقيقة أنه قُتل أو لم يقتل ﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ﴾ لكنهم يتبعون الظن في قتله، قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾ أي ما قتلوا عيسىٰ يقينًا)(٢).

وقال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَهَذَا كُلُّهُ مِنِ امْتِحَانِ اللهِ عِبَادَهُ؛ لِمَا لَهُ فِي ذَلِكَ مِنَ الحِكْمَةِ البَالِغَةِ، وَقَدْ أَوْضَحَ اللهُ الأَمْرَ وَجَلَّاهُ وَبَيَّنَهُ وَأَظْهَرَهُ فِي القُرْآنِ العَظِيمِ، الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ الكَرِيمِ، المُؤَيِّدِ بِالمُعْجِزَاتِ وَالبَيِّنَاتِ وَالدَّلَائِلِ الوَاضِحَاتِ، فَقَالَ تَعَالَىٰ -وَهُوَ أَصْدَقُ القَائِلِينَ، وَرَبُّ العَالَمِينَ، المُطَّلِعُ عَلَىٰ السَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ، الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السموات وَالأَرْضِ، العَالِمُ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ-: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ﴾ أَيْ:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، (١١/ ١٠٨).

(٢) معالم التنزيل، محيي السنة، تحقيق: محمد عبد الله النمر- عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، ط. دار طيبة، الطبعة الرابعة، ١٤١٧، (٢/ ٣٠٧).

رَأَوْا شَبهَهُ فَظَنُّوهُ إِيَّاه؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ يَعْنِي بِذَلِكَ: مَنِ ادَّعَىٰ قَتْلَهُ مِنَ اليَهُودِ، وَمَنْ سَلَّمه مِنْ جُهَّالِ النَّصارَىٰ، كُلُّهُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ وَحَيْرَةٍ وَضَلَالٍ وسُعُر، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾﴾ أَيْ: وَمَا قَتَلُوهُ مُتيَقِّنِينَ أَنَّهُ هُوَ، بَلْ شَاكِّينَ مُتَوَهِّمِينَ، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٨] أَيْ مَنِيعَ الجَنَابِ لَا يُرَامُ جَنَابُهُ، وَلَا يُضَامُ مَنْ لَاذَ بِبَابِهِ ﴿حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ أَيْ: فِي جَمِيعِ مَا يُقَدِّرُهُ وَيَقْضِيهِ مِنَ الأُمُورِ الَّتِي يَخْلُقُهَا، وَلَهُ الحِكْمَةُ البَالِغَةُ، وَالحُجَّةُ الدَّامِغَةُ، وَالسُّلْطَانُ العَظِيمُ، وَالأَمْرُ الْقَدِيمُ)(١).

وقال **الإمام القرطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَمَعْنَىٰ اخْتِلَافِهِمْ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: إِنَّهُ إِلَهٌ، وَبَعْضُهُمْ هُوَ ابْنُ اللهِ، قَالَهُ الحَسَنُ. وَقِيلَ: اخْتِلَافُهُمْ أَنَّ عَوَامَّهُمْ قَالُوا: قَتَلْنَا عِيسَىٰ، وَقَالَ مَنْ عَايَنَ رَفْعَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ: مَا قَتَلْنَاهُ، وَقِيلَ: اخْتِلَافُهُمْ أَنَّ النُّسْطُورِيَّةَ مِنَ النَّصَارَىٰ قَالُوا: صُلِبَ عِيسَىٰ مِنْ جِهَةِ نَاسُوتِهِ لَا مِنْ جِهَةِ لَاهُوتِهِ، وَقَالَتِ المَلْكَانِيَّةُ: وَقَعَ الصَّلْبُ وَالقَتْلُ عَلَىٰ المَسِيحِ بِكَمَالِهِ نَاسُوتِهِ وَلَاهُوتِهِ، وَقِيلَ: اخْتِلَافُهُمْ هُوَ أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنْ كَانَ هَذَا صَاحِبَنَا فَأَيْنَ عِيسَىٰ؟! وَإِنْ كَانَ هَذَا عِيسَىٰ فَأَيْنَ صَاحِبُنَا؟! وَقِيلَ: اخْتِلَافُهُمْ هُوَ أَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا: نَحْنُ قَتَلْنَاهُ، لِأَنَّ يَهُوذَا رَأْسَ الْيَهُودِ هُوَ الَّذِي سَعَىٰ فِي قَتْلِهِ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ النَّصَارَىٰ: بَلْ قَتَلْنَاهُ نَحْنُ، وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ: بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَنَحْنُ نَنْظُرُ إِلَيْهِ، ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ ...)(٢).

وما زال هذا الاختلاف يزيد، وتنقسم الفرق وتتشرذم، وتظهر فرق جديدة، وطوائفُ عديدة، فبعضهم يبرئ اليهود من دمه، وأكثرهم يعتقدون أن اليهود قتلوه،

---

(١) تفسير القرآن العظيم، (٢/ ٤٤٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ٩).

وبعضهم يحدد وقتًا لنزوله ويدعو أتباعه لقتل أنفسهم ليحملهم بزعمهم فوق السحاب، والفِرق الكبيرة انقسمت وصارت فِرَقًا أصغر يَعسُر حصرُها، وهكذا هي سنة الله في أهل الباطل والمبتدعة في كل الأمم، كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليأتين علىٰ أمتي ما أتىٰ علىٰ بني إسرائيل حَذْوَ النعل بالنعل... وإن بني إسرائيل تفرقت علىٰ ثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي علىٰ ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة قيل: من هي يا رسول الله؟ فقال: من كان علىٰ مثل ما أنا عليه وأصحابي»(١)، وفي لفظ: «افترقت اليهود علىٰ إحدىٰ وسبعين فرقة وافترقت النصارىٰ علىٰ اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة علىٰ ثلاث وسبعين فرقة....» الحديث.

فأما افتراء اليهود علىٰ مريم وابنها عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فسببه الكِبر والحسد وهما الداءان اللذان أهلكا إبليس -لعنه الله- وأكثرَ الكافرين، وعامةُ اليهود في كفرهم بعيسىٰ ومحمد عليهما الصلاة والسلام لم يؤتَوا من جهل وإنما جحدوا الحق وبطروه واستكبروا.

وأما النصارىٰ فقد كفر من كفر منهم من جهة المغالاة في عيسىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتىٰ جعلوه إلهًا من آلهةٍ ثلاثة سموها الأقانيم وصرحوا بأن كل واحد منهم إلهٌ كامل، ثم زعموا أن هؤلاء الآلهة الثلاثة هم إله واحد وليسوا أجزاء له بل كل منهم إله!!

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ

(١) صحيح بطرقه وشواهده، رواه أحمد وابن حبان والطبراني وابن ماجة والترمذي وهذا لفظه، وحسنه، وصححه الألباني والأرناؤوط، وقال الجوزقاني: عزيز حسن مشهور.

وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ١٧١ - ١٧٣].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ: (يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: يا أهل الإنجيل من النصارىٰ ﴿لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾، يقول :لا تجاوزوا الحقَّ في دينكم فتفرطوا فيه، ولا تقولوا في عيسىٰ غيرَ الحق)(١).

وقال القرطبي رَحِمَهُٱللَّهُ: (قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ نَهْيٌ عَنِ الغُلُوِّ. وَالغُلُوُّ: التَّجَاوُزُ فِي الحَدِّ، وَمِنْهُ غَلَا السِّعْرُ يَغْلُو غَلَاءً، وَغَلَا الرَّجُلُ فِي الأَمْرِ غُلُوًّا، وَغَلَا بِالجَارِيَةِ لَحْمُهَا وَعَظْمُهَا إِذَا أَسْرَعَتِ الشَّبَابَ فَجَاوَزَتْ لِدَاتِهَا، وَيَعْنِي بِذَلِكَ -فِيمَا ذَكَرَهُ المُفَسِّرُونَ- غُلُوَّ اليَهُودِ فِي عِيسَىٰ حَتَّىٰ قَذَفُوا مَرْيَمَ، وَغُلُوَّ النَّصَارَىٰ فِيهِ حَتَّىٰ جَعَلُوهُ رَبًّا، فَالإِفْرَاطُ وَالتَّقْصِيرُ كُلُّهُ سَيِّئَةٌ وَكُفْرٌ)(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٧].

قال الإمام أبو جعفر الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ: (وهذا خطابٌ من الله تعالىٰ ذكره لنبيه محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. يقول تعالىٰ ذكره: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء الغاليةِ من

(١) جامع البيان، (٩/ ٤١٥).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، (٦/ ٢١).

النصارىٰ في المسيح: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾، يعني بـ(الكتاب)، الإنجيل ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ يقول: لا تُفْرِطوا في القول فيما تدينون به من أمر المسيح، فتجاوِزوا فيه الحقَّ إلىٰ الباطل، فتقولوا فيه: هو الله، أوْ هو ابنه، ولكن قولوا: هو عبد الله ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ [النساء: ١٧١]، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ [المائدة: ٧٧]، يقول: ولا تتبعوا أيضًا في المسيح أهواء اليهود الذين قد ضلوا قبلكم عن سبيل الهدىٰ في القول فيه، فتقولون فيه كما قالوا: هو لغير رِشْدة، وتبهتوا أمَّه كما بَهَتُوها بالفرية وهي صديقة)(١).

وقال الإمام البغوي رَحِمَهُٱللَّهُ: (﴿قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾أَيْ: لَا تَتَجَاوَزُوا الحَدَّ، وَالغُلُوُّ وَالتَّقْصِيرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَذْمُومٌ فِي الدِّينِ، وَقَوْلُهُ: ﴿غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾أَيْ: فِي دِينِكُمُ المُخَالِفِ لِلحَقِّ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ خَالَفُوا الحَقَّ فِي دِينِهِمْ، ثُمَّ غَلَوْا فِيهِ بِالإِصْرَارِ عَلَيْهِ، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ﴾ وَالأَهْوَاءُ جَمْعُ الهَوَىٰ وَهُوَ مَا تَدْعُو إِلَيْهِ شَهْوَةُ النَّفْسِ، ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ يَعْنِي: رُؤَسَاءَ الضَّلَالَةِ مِنْ فَرِيقَيِ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ، وَالخِطَابُ لِلَّذِينَ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نُهُوا عَنِ اتِّبَاعِ أَسْلَافِهِمْ فِيمَا ابتدعوه بأهوائهم، ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا﴾ يَعْنِي: مَنِ اتَّبَعَهُمْ عَلَىٰ أَهْوَائِهِمْ، ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧﴾ عَنْ قَصْدِ الطَّرِيقِ، أَيْ: بِالإِضْلَالِ، فَالضَّلَالُ الأَوَّلُ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَالثَّانِي بِإِضْلَالِ مَنِ اتَّبَعَهُمْ)(٢).

وقال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: (ثُمَّ قَالَ: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾أَيْ: لَا تُجَاوِزُوا الحَدَّ فِي اتِّبَاعِ الحَقِّ، وَلَا تُطْرُوا مَنْ أُمِرْتُمْ بِتَعْظِيمِهِ فَتُبَالِغُوا

(١) جامع البيان، (١٠/ ٤٨٧).

(٢) معالم التنزيل، محيي السنة، تحقيق: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، ط. دار طيبة، الطبعة الرابعة، ١٤١٧، (٣/ ٨٣).

فِيهِ، حَتَّىٰ تُخْرِجُوهُ عَنْ حَيِّزِ النُّبُوَّةِ إِلَىٰ مَقَامِ الإِلَهِيَّةِ، كَمَا صَنَعْتُمْ فِي المَسِيحِ، وَهُوَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فَجَعَلْتُمُوهُ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللهِ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِاقْتِدَائِكُمْ بِشُيُوخِ الضَّلَالِ، الَّذِينَ هُمْ سَلَفُكُمْ مِمَّنْ ضَلَّ قَدِيمًا، ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾، أَيْ: وَخَرَجُوا عَنْ طَرِيقِ الِاسْتِقَامَةِ وَالِاعْتِدَالِ، إِلَىٰ طَرِيقِ الغَوَايَةِ وَالضَّلَالِ)(١).

قلت: ولذلك حذرنا رسولنا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من المغالاة فيه كما فعلت النصارىٰ في المسيح، فقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -فيما رواه البخاري من حديث عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-: «لا تُطروني كما أطرت النصارىٰ ابنَ مريم فإنما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله».

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: (قَوْلُهُ: «لَا تُطْرُونِي» بِضَمِّ أَوَّلِهِ، وَالإِطْرَاءُ المَدْحُ بِالبَاطِلِ تَقُولُ: أَطْرَيْتُ فُلَانًا مَدَحْتُهُ فَأَفْرَطْتُ فِي مَدْحِهِ، قَوْلُهُ: «كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ ابن مَرْيَمَ» أَيْ فِي دَعْوَاهُمْ فِيهِ الإِلَهِيَّةَ وَغَيْرَ ذَلِكَ)(٢).

وقد أرسل الله رسولَه محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليبيّن لهم الحقّ -كما وعدهم المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ-، فلما جاءهم بالحق والبينات استنكفوا واستكبروا، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾ [الصف: ٦- ٧].

وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم

(١) تفسير القرآن العظيم، (٣/ ١٥٩).

(٢) فتح الباري، (٦/ ٤٩٠).

مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾[المائدة: ١٥- ١٧].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾[النحل: ٦٣- ٦٤].

وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلىٰ يوم القيامة:

لما بشر الله عَزَّوَجَلَّ رسوله عيسىٰ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالنجاة من مكر كفرة أهل الكتاب أعلمه ببشارة أخرىٰ وهي أن متّبعيه علىٰ الحقّ سيكونون ظاهرين علىٰ كل ملل الكفر والكافرين إلىٰ يوم القيامة فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[آل عمران: ٥٥- ٥٧].

قال الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يعني بذلك جل ثناؤه: وجاعل الذين اتبعوك علىٰ منهاجِك وملّتك من الإسلام وفطرته، فوق الذين جحدوا نبوّتك

وخالفوا سبيلهم من جميع أهل الملل، فكذّبوا بما جئت به وصدّوا عن الإقرار به، فمصيِّرُهم فوقهم ظاهرين عليهم)(١).

وقال الإمام ابن عطية الأندلسي رَحِمَهُٱللَّهُ: (وقال جمهور المفسرين بعموم اللفظ في المتّبعين فيدخل في ذلك أمة محمد لأنها متبعة لعيسىٰ، نص علىٰ ذلك قتادة وغيره، وكذلك قالوا بعموم اللفظ في الكافرين، فمقتضىٰ الآية إعلام عيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ أن أهل الإيمان به كما يجب هم فوق الذين كفروا بالحجة والبرهان وبالعزة والغلبة، ويظهر من قول ابن جريج وغيره أن المراد المتبعون له في وقت استنصاره وهم الحواريون جعلهم الله فوق الكافرين لأنه شرَّفهم وأبقىٰ لهم في الصالحين ذِكْرًا، فهم فوقهم بالحجة والبرهان، وما ظهر عليهم من أمارات رضوان الله، وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾، الخطاب لعيسىٰ، والمراد الإخبار بالقيامة والحشر فلذلك جاء اللفظ عامًّا من حيث الأمر في نفسه لا يخصّ عيسىٰ وحده فكأنه قال له: ثُمَّ إِلَيَّ، أي إلىٰ حكمي وعدلي، يرجع الناس، فخاطبه كما تخاطب الجماعة إذ هو أحدها، وإذْ هي مرادة في المعنىٰ، وفي قوله تعالىٰ: ﴿فَأَحْكُمُ﴾ إلىٰ آخر الآية، وعدٌ لعيسىٰ والمؤمنين ووعيدٌ للكافرين)(٢).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، فَهَذَا حَقٌّ كَمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فَمَنِ اتَّبَعَ المَسِيحَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ جَعَلَهُ اللهُ فَوْقَ

---

(١) جامع البيان، (٦/ ٤٦٢).

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، ط. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولىٰ - ١٤٢٢، (١/ ٤٤٥).

الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَكَانَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ عَلَىٰ دِينِهِ الَّذِي لَمْ يُبَدَّلْ قَدْ جَعَلَهُمُ اللهُ فَوْقَ اليَهُودِ، وَأَيْضًا فَالنَّصَارَىٰ فَوْقَ اليَهُودِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَأَمَّا المُسْلِمُونَ فَهُمْ مُؤْمِنُونَ بِهِ لَيْسُوا كَافِرِينَ بِهِ، بَلْ لَمَّا بَدَّلَ النَّصَارَىٰ دِينَهُ وَبَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِدِينِ اللهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ المَسِيحَ وَغَيْرَهُ مِنَ الأَنْبِيَاءِ جَعَلَ اللهُ مُحَمَّدًا وَأُمَّتَهُ فَوْقَ النَّصَارَىٰ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ، كَمَا فِي «الصحيحين» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّا مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ لَأَنَا، إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ»، وَقَالَ -تَعَالَىٰ-: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾[الشورى: ١٣](١).

فالمسلمون هم أتباع المسيح حقًّا، بل هم أتباع كل الأنبياء الذين جاءوا بالتوحيد وعبادة الله وحده، وقد أمرَ المسيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أتباعه بتوحيد الله والإيمان بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن لم عبدَ غير الله أو كفر بنبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه لم يتبع المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: علي بن حسن - عبد العزيز بن إبراهيم - حمدان بن محمد، ط. دار العاصمة، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١٩، (٢/ ١٧٨).

ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: ١٤- ١٧].

وقد روي أن أصحاب المسيح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتباعه ظلوا على هديه قرنَيْن من الزمان، لكن هذا رُوي بسند لا يصح، فقد روى ابن حبان في «صحيحه» عن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لقد قبض الله داود من بين أصحابه فما فُتنوا ولا بَدَّلوا، ولقد مكث أصحاب المسيح على سنته وهديه مائتي سنة»، وفي سنده الوضين بن عطاء سيء الحفظ، والحديث ضعفه الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية»، وقال: هذا حديث غريب وفي رفعه نظر، والوضين بن عطاء كان ضعيفًا في الحديث، والله أعلم اهـ. وأعله أبو حاتم كما ذكر ابنه في (المراسيل)، وضعفه ابن عدي وقال: هذا حديث منكر فرد، وأقره الحافظ في اللسان، وضعفه الألباني بالانقطاع بين نصر بن علقمة وجبير بن نفير وبتدليس الوليد بن مسلم، وأعله الأرناؤوط في تخريج ابن حبان(١).

وبعد هذه المدة التي ظلّ فيها أتباعُ المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على دينه، ظهرت البدع، وجاء شاول اليهوديّ عدوّ المسيح، فادّعى -في قصة ساذجة متناقضة لا شاهدَ له على صحتها- أن المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ظهر الله وعاتبه على اضطهاد أتباعه واضطهادهم، وادّعى أنه صار من أتباع المسيح، ولكنه خالفَ كلَّ تعاليم المسيح

---

(١) انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة، الحديث رقم: (٥٧٦٦)، والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، ابن بلبان الفارسي، تحقيق: الأرناؤوط، ط. مؤسسة الرسالة، (١٤/ ١٣٠).

وخالفَ تلاميذَ المسيح، واستطاع أن يَحْرِفَ بعضَ الأتباعِ عن الصراطِ المستقيم، وجاء بعقائدَ وثنيةٍ معروفةٍ في زمنه فألبسها ثوبَ الدعوة المسيحية، وجاءتْ دولٌ وثنية ففرضتْ هذا الدين الوثنيَّ بالقوةِ علىٰ النصارىٰ، وطاردتْ الذين كانوا علىٰ الحقّ وقتلتْ كثيرًا منهم، حتىٰ لم يبقَ علىٰ دين عيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ إلا بقايا تمسّكوا بدينهم واعتزلوا الناس، وبعد مرور فترة من الزمن خَفَتَ فيها النورُ واضمحلّ، أرسل الله خاتمَ أنبيائه ورسله محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ليبين للناس الحقّ، كما قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٩ ﴾[المائدة: ١٩].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: (يَقُولُ تَعَالَىٰ مُخَاطِبًا أَهْلَ الكِتَابِ مِنَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ: إِنَّهُ قَدْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، الَّذِي لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ وَلَا رَسُولَ بَلْ هُوَ المُعقبُ لِجَمِيعِهِمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[المائدة: ١٩] أَيْ: بَعْدَ مُدَّةٍ مُتَطَاوِلَةٍ مَا بَيْنَ إِرْسَالِهِ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ، وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي مِقْدَارِ هَذِهِ الْفَتْرَةِ، كَمْ هِيَ؟ فَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ النَّهْدِيّ وَقَتَادَةُ -فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ-: كَانَتْ سِتَّمِائَةِ سَنَةً، وَرَوَاهُ البُخَارِيُّ عَنْ سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ(١)، وَعَنْ قَتَادَةَ: خَمْسُمِائَةٍ وَسِتُّونَ سَنَةً، وَقَالَ مَعْمَر، عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِهِ: خَمْسُمِائَةٍ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً، وَقَالَ: الضَّحَّاكُ: أَرْبَعُمِائَةٍ وَبِضْعٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً، وَذَكَرَ ابْنُ عَسَاكِرَ فِي تَرْجَمَةِ عِيسَىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ عَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ قَالَ: ومنْ رَفْعِ المَسِيحِ إِلَىٰ هِجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تِسْعُمِائَةٍ وَثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً.

وَالمَشْهُورُ هُوَ الْأَوَّلُ، وَهُوَ أَنَّهُ سِتُّمِائَةِ سَنَةٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: سِتُّمِائَةٍ وَعِشْرُونَ سَنَةً، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ القَائِلَ الْأَوَّلَ أَرَادَ سِتَّمِائَةِ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ، وَالآخَرَ أَرَادَ

---

(١) عن سلمان قال: فترةٌ بين عيسىٰ ومحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ستمائة سنة، (صحيح البخاري- آخر باب فضائل أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، الحديث رقم: ٣٧٣٢).

قَمَرِيَّةً، وَبَيْنَ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ شَمْسِيَّةٍ وَبَيْنَ القَمَرِيَّةِ نَحْوٌ مَنْ ثَلَاثِ سِنِينَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الكَهْفِ: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ [الكهف: ٢٥] أَيْ: قَمَرِيَّةً، لِتَكْمِيلِ الثَّلَاثِمِائَةِ الشَّمْسِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ مَعْلُومَةً لِأَهْلِ الكِتَابِ، وَكَانَتِ الفَتْرَةُ بَيْنَ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ، آخِرِ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ، كَمَا ثَبَتَ فِي «صحيح البخاري» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ لَأنا؛ لِأَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ». هَذَا فِيهِ رَدٌّ عَلَىٰ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ بُعِثَ بَعْدَ عِيسَىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ نَبِيٌّ، يُقَالُ لَهُ: خَالِدُ بْنُ سِنَانٍ، كَمَا حَكَاهُ القُضَاعِيُّ وَغَيْرُهُ.

وَالمَقْصُودُ أَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرسل، وطُمُوس من السبل، وتَغير الأَدْيَانِ، وَكَثْرَةِ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ وَالنِّيرَانِ وَالصُّلْبَانِ، فَكَانَتِ النِّعْمَةُ بِهِ أَتَمَّ النِّعَمِ، وَالحَاجَةُ إِلَيْهِ أَمْرَ عَمَم، فَإِنَّ الفَسَادَ كَانَ قَدْ عَمَّ جَمِيعَ الْبِلَادِ، وَالطُّغْيَانَ وَالجَهْلَ قَدْ ظَهَرَ فِي سَائِرِ العِبَادِ، إِلَّا قَلِيلًا مِنَ المُتَمَسِّكِينَ بِبَقَايَا مِنْ دَيْنِ الأَنْبِيَاءِ الأَقْدَمِينَ، مِنْ بَعْضِ أَحْبَارِ اليَهُودِ وَعُبَّادِ النَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ، كَمَا قَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عَنْ مُطَرِّف، عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَار المُجَاشِعِيِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خَطَبَ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: «وَإِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أعلِّمكم مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمني فِي يَوْمِي هَذَا: كُلُّ مَالٍ نَحَلْته عِبَادِي حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاء كلَّهم، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فأَضَلَّتْهُم عَنْ دِينِهِمْ، وحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وأَمرَتْهم أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا، ثُمَّ إِنَّ اللهَ، عَزَّوَجَلَّ، نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ، عجَمَهم وعَرَبَهُم، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ المَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا ويَقْظَان...».

ثُمَّ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَمُسْلِمٌ، وَالنَّسَائِيُّ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيرِ. وَفِي رِوَايَةِ سَعِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ التَّصْرِيحُ بِسَمَاعِ قَتَادَةَ هَذَا الحَدِيثَ مِنْ مُطَرِّفٍ...

وَالمَقْصُودُ مِنْ إِيرَادِ هَذَا الْحَدِيثِ قَوْلُهُ: «وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ». وَفِي لَفْظِ مُسْلِمٍ: «مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ». وَكَانَ الدِّينُ قَدِ التبس علىٰ أهل الأَرْضِ كُلِّهِمْ، حَتَّىٰ بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَهَدَىٰ الخَلَائِقَ، وَأَخْرَجَهُمُ اللهُ بِهِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ، وَتَرَكَهُمْ عَلَىٰ المحجَّة البَيْضَاءِ، وَالشَّرِيعَةِ الغرَّاء؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ أَيْ: لِئَلَّا تَحْتَجُّوا وَتَقُولُوا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ بَدَّلُوا دِينَهُمْ وَغَيَّرُوهُ: مَا جَاءَنَا مِنْ رَسُولٍ يُبَشِّرُ بِالخَيْرِ وَيُنْذِرُ مِنَ الشَّرِّ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ، يَعْنِي مُحَمَّدًا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ١٩﴾، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: مَعْنَاهُ: إِنِّي قَادِرٌ عَلَىٰ عِقَابِ مَنْ عَصَانِي، وَثَوَابِ مَنْ أَطَاعَنِي)(١).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَقَدِ اتَّفَقَ أَهْلُ النَّقْلِ عَلَىٰ أَنَّ مُدَّةَ الْيَهُودِ إِلَىٰ بَعْثَةِ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كَانَتْ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفَيْ سَنَةٍ وَمُدَّةَ النَّصَارَىٰ مِنْ ذَلِكَ سِتُّمِائَةٍ، وَقِيلَ: أَقَلُّ)(٢).

وقد سبق كلامٌ عن هذه الفترة في الفصل الأول من الباب الثالث، وبعد هذه الفترة جاء النبيّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فبيَّن للناس دينهم، ولم يمُتْ حتىٰ أقام الله به الملة،

---

(١) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠، (٣/ ٧٠-٧٢).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط. دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، (٤/ ٤٤٩).

وتركنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ المحجة البيضاء والصراط المستقيم، وكان مما أخبرنا به أن في آخر الزمان فتنًا كثيرة أكبرها وأشدُّها فتنة المسيح الدجال لعنه الله، وأعلَمَنَا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن المسيح عيسىٰ ابن مريم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سينزل في آخر الزمان ليقتل مسيح الضلالة ويكون خليفةً للنبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ أمته، وهذا هو موضوع الباب الآتي إن شاء الله.

❁ ❁ ❁

الباب الرابع

حياة المسيح الثانية على الأرض

الفصل الأول

نزول المسيح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر الزمان

نزول المسيح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر الزمان أمرٌ مقطوع به قد دلَّ عليه كلام ربنا وكلام نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأجمعت عليه الأمة، وذكره علماؤنا في كتب العقيدة، وعدّوه من علامات الساعة الكبرىٰ، ولم يخالف في هذا إلا أهل الضلال من الخوارج والمعتزلة، وتابعهم بعض المفتونين بكلامهم وبالحضارة المادية المعاصرة ممن ينتسب إلىٰ العلم لكنه ضل في بعض الأمور لسلوكه غير الصراط المستقيم.

الأدلة من القرآن الكريم:

-قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾[الزُّخرُف: ٥٧- ٦١].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: (اختلف أهل التأويل في الهاء التي في قوله: (وَإِنَّهُ) وما المعنيُّ بها، ومِن ذكرِ ما هي، فقال بعضهم: هي من ذِكر عيسىٰ، وهي عائدة عليه، وقالوا: معنىٰ الكلام: وإنَّ عيسىٰ ظهورُه علم يُعْلَمُ به مجيء الساعة، لأن ظهوره من أشراطها ونزوله إلىٰ الأرض دليلٌ علىٰ فناء الدنيا، وإقبال الآخرة)، وروىٰ بسنده عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: خروج عيسىٰ ابن مريم، وفي لفظ آخر قال: نزول عيسىٰ ابن مريم، وروىٰ عن مجاهد، أنه قال: قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: آية للساعة خروج عيسىٰ ابن مريم قبل يوم القيامة، وعن

قتادة: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: نزول عيسىٰ ابن مريم علم للساعة: القيامة، وعن السُّدِّيِّ ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾قال: خروج عيسىٰ ابن مريم قبل يوم القيامة، وعن الضحاك أنه قال في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾: يعني خروج عيسىٰ ابن مريم ونزوله من السماء قبل يوم القيامة، وعن ابن زيد، في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: نزول عيسىٰ ابن مريم علم للساعة حين ينزل.

(وقال آخرون: الهاء التي في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ من ذكر القرآن، وقالوا: معنىٰ الكلام: وإن هذا القرآن لعلم للساعة يعلمكم بقيامها، ويخبركم عنها وعن أهوالها) وروىٰ بسنده عن الحسن أنه كان يقول: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ هذا القرآن)(١).

وقال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾، تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ ابْنِ إِسْحَاقَ: أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ ذَلِكَ: مَا بُعث بِهِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَىٰ وَإِبْرَاءِ الأَكْمَهِ وَالأَبْرَصِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَسْقَامِ، وَفِي هَذَا نَظَرٌ، وَأَبْعَدُ مِنْهُ مَا حَكَاهُ قَتَادَةُ، عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ: أَيِ الضَّمِيرُ فِي ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، عَائِدٌ عَلَىٰ الْقُرْآنِ، بَلِ الصَّحِيحُ أَنَّهُ عَائِدٌ عَلَىٰ عِيسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فَإِنَّ السِّيَاقَ فِي ذِكْرِهِ، ثُمَّ الْمُرَادُ بِذَلِكَ نُزُولُهُ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩] أَيْ: قَبْلَ مَوْتِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ثُمَّ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩]، وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْمَعْنَىٰ: الْقِرَاءَةُ الأُخْرَىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعَلَمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أَيْ: أَمَارَةٌ وَدَلِيلٌ عَلَىٰ وُقُوعِ السَّاعَةِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أَيْ: آيَةٌ لِلسَّاعَةِ خُرُوجُ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ، وَأَبِي مَالِكٍ، وَعِكْرِمَةَ، والحسن وَقَتَادَةَ،

(١) جامع البيان، (٢١/ ٦٣١-٦٣٣).

وَالضَّحَّاكِ، وَغَيْرِهِمْ، وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه أَخْبَرَ بِنُزُولِ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ إِمَامًا عَادِلًا وَحَكَمًا مُقْسِطًا)(١).

-وقال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾[النساء: ١٥٨- ١٥٩].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُٱللَّهُ: (اختلف أهل التأويل في معنىٰ ذلك، فقال بعضهم: معنىٰ ذلك: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ يعني بعيسىٰ ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ يعني قبل موت عيسىٰ، يُوَجَّهُ ذلك إلىٰ أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لِقَتْل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام الحنيفية دين إبراهيم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ)(٢)، وروىٰ ذلك بأسانيده عن ابن عباس وأبي مالك والحسن وقتادة وابنِ زيد، ثم قال: (وقال آخرون: يعني بذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسىٰ قبل موت الكتابي، يوجَّه ذلك إلىٰ أنه إذا عاينَ، عَلِم الحق من الباطل لأن كل مَن نزل به الموت لم تخرج نفسُه حتىٰ يتبين له الحق من الباطل في دينه)(٣)، وروىٰ هذا القول عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك والحسن وابن سيرين، ثم قال: (وقال آخرون: معنىٰ ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قبل موت الكتابي)(٤)، وروىٰ ذلك عن عكرمة، ثم قال ابن جرير رَحِمَهُٱللَّهُ:

(وأولىٰ الأقوال بالصحة قول من قال: تأويل ذلك: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسىٰ قبل موت عيسىٰ، وإنما قلنا ذلك أولىٰ بالصواب من غيره من

---

(١) تفسير القرآن العظيم، (٧/ ٢٣٦).

(٢) جامع البيان، (٩/ ٣٧٩).

(٣) جامع البيان، (٩/ ٣٨٢).

(٤) جامع البيان، (٩/ ٣٨٦).

الأقوال، لأن الله -جل ثناؤه- حكم لكل مؤمن بمحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بحكم أهل الإيمان في الموارثة والصلاة عليه وإلحاق صغار أولاده بحكمه في الملة، فلو كان كل كتابي يؤمن بعيسىٰ قبل موته لوجب ألا يرث الكتابيَّ إذا مات علىٰ ملته إلا أولادُه الصغار، أو البالغون منهم من أهل الإسلام، إن كان له ولد صغير أو بالغٌ مسلم، وإن لم يكن له ولد صغير ولا بالغ مسلم، كان ميراثه مصروفًا حيث يُصرَف مال المسلم يموت ولا وارثَ له، وأن يكون حكمه حكمَ المسلمين في الصلاة عليه وغسله وتقبيره، لأن من مات مؤمنًا بعيسىٰ فقد مات مؤمنًا بمحمد وبجميع الرسل، وذلك أن عيسىٰ -صلوات الله عليه- جاء بتصديق محمد وجميع المرسلين صلوات الله عليهم، فالمصدِّق بعيسىٰ والمؤمن به مصدق بمحمد وبجميع أنبياء الله ورسله، كما أن المؤمن بمحمد مؤمن بعيسىٰ وبجميع أنبياء الله ورسله، فغيرُ جائز أن يكون مؤمنًا بعيسىٰ مَن كان بمحمد مكذِّبًا، فإن ظن ظان أن معنىٰ إيمان اليهودي بعيسىٰ الذي ذكره الله في قوله: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ﴾ إنما هو إقراره بأنه نبي مبعوث، دون تصديقه بجميع ما أتىٰ به من عند الله فقد ظنَّ خطأ، وذلك أنه غير جائز أن يكون منسوبًا إلىٰ الإقرار بنبوة نبي مَنْ كان له مكذبًا في بعض ما جاء به من وحي الله وتنزيله، بل غيْر جائز أن يكون منسوبًا إلىٰ الإقرار بنبوة أحد من أنبياء الله، لأن الأنبياء جاءت الأممَ بتصديق جميع أنبياء الله ورسله، فالمكذِّب بعضَ أنبياء الله فيما أتىٰ به أمته من عند الله مكذبٌ جميعَ أنبياء الله فيما دعوا إليه -من دين الله- عبادَ الله.

وإذْ كان ذلك كذلك وكان الجميع من أهل الإسلام مجمعين علىٰ أن كل كتابي مات قبل إقراره بمحمد صلوات الله عليه وما جاء به من عند الله محكومٌ له بحكم الملة التي كان عليها أيامَ حياته غير منقول شيء من أحكامه في نفسه وماله وولده صغارهم وكبارهم بموته، عما كان عليه في حياته، دَلَّ الدليل علىٰ أن معنىٰ

قول الله: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ إنما معناه: إلا ليؤمنن بعيسىٰ قبل موت عيسىٰ، وأن ذلك في خاصٍّ من أهل الكتاب ومعنيٌّ به أهل زمان منهم دون أهل كل الأزمنة التي كانت بعد عيسىٰ وأن ذلك كائن بعد نزوله)(١)، وذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديثَ نزول المسيح وفيه قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ويقاتل الناس علىٰ الإسلام حتىٰ يهلك الله في زمانه المِلَلَ كلها غير الإسلام».

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما الذي قال: عنىٰ بقوله: ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ ليؤمنن بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل موت الكتابي، فمما لا وجهَ له مفهومٌ، لأنه -مع فساده من الوجه الذي دللنا علىٰ فساد قول من قال: عنىٰ به: ليؤمنن بعيسىٰ قبل موت الكتابي- يزيده فسادًا لأنه لم يَجْرِ لمحمد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في الآيات التي قبل ذلك ذِكْرٌ، فيجوز صرف الهاء التي في قوله: ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ إلىٰ أنها مِن ذِكره، وإنما قوله: ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ في سياق ذِكر عيسىٰ وأمه واليهود، فغير جائز صرف الكلام عما هو في سياقه إلىٰ غيره، إلا بحجة يجب التسليم لها من دلالةِ ظاهر التنزيل أو خبر عن الرسول تقوم به حجة وأما الدعاوىٰ فلا تتعذر علىٰ أحد.

قال أبو جعفر: فتأويل الآية -إذْ كان الأمرُ علىٰ ما وصفنا-: وما من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسىٰ قبل موت عيسىٰ، وحذف «من» بعد «إلا» لدلالة الكلام عليه فاستغنىٰ بدلالته عن إظهاره)(٢).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ معقبًا علىٰ القول الذي اختاره ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، رَحِمَهُ ٱللَّهُ هُوَ الصَّحِيحُ؛ لِأَنَّهُ المَقْصُودُ مِنْ سِيَاقِ الآيِ فِي تَقْرِيرِ بُطْلَانِ مَا ادَّعَتْهُ اليَهُودُ مِنْ قَتْلِ عِيسَىٰ وَصَلْبِهِ، وَتَسْلِيمِ مَنْ سَلَّمَ لَهُمْ مِنَ النَّصَارَىٰ الجَهَلَةِ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَ اللهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، وَإِنَّمَا شُبِّهَ

(١) جامع البيان، (٩/ ٣٨٦-٣٨٨).
(٢) جامع البيان، (٩/ ٣٨٩).

لَهُمْ فَقَتَلُوا الشَّبِيهَ وَهُمْ لَا يَتَبَيَّنُونَ ذَلِكَ، ثُمَّ إِنَّهُ رَفَعَهُ إِلَيْهِ، وَإِنَّهُ بَاقٍ حَيٌّ، وَإِنَّهُ سَيَنْزِلُ قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الأَحَادِيثُ المُتَوَاتِرَةُ -الَّتِي سَنُورِدُهَا إِنْ شَاءَ اللهُ قَرِيبًا-فَيَقْتُلُ مَسِيحَ الضَّلَالَةِ، وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الجِزْيَةَ - يَعْنِي: لَا يَقْبَلُهَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ، بَلْ لَا يَقْبَلُ إِلَّا الْإِسْلَامَ أَوِ السَّيْفَ-.

فَأَخْبَرَتْ هَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ أنه يُؤْمِنَ بِهِ جَمِيعُ أَهْلِ الكِتَابِ حِينَئِذٍ، وَلَا يَتَخَلَّفُ عَنِ التَّصْدِيقِ بِهِ وَاحِدٌ مِنْهُمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أَيْ: قَبْلَ مَوْتِ عِيسَىٰ، الَّذِي زَعَمَ اليَهُودُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ النَّصَارَىٰ أَنَّهُ قُتِلَ وَصُلِبَ، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ أَيْ: بِأَعْمَالِهِمُ الَّتِي شَاهَدَهَا مِنْهُمْ قَبْلَ رَفْعِهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ وَبَعْدَ نُزُولِهِ إِلَىٰ الْأَرْضِ)(١)، ثم أورد رَحِمَهُٱللَّهُ جملةً من الأحاديث الواردة في ذلك وحكم بتواترها، وسيأتي نص كلامه إن شاء الله.

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَقَوله فِي الآيَةِ: (وَإِنْ) بِمَعْنَىٰ (مَا) أَيْ لَا يَبْقَىٰ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَهُمُ اليَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ إِذَا نَزَلَ عِيسَىٰ إِلَّا آمَنَ بِهِ وَهَذَا مَصِيرٌ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ إِلَىٰ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ وَكَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ يَعُودُ عَلَىٰ عِيسَىٰ أَي إِلَّا ليؤمن بِعِيسَىٰ قبل موت عِيسَىٰ، وَبِهَذَا جزم ابن عَبَّاس فِيمَا رَوَاهُ ابن جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْهُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، وَمِنْ طَرِيقِ أَبِي رَجَاءٍ عَنِ الحَسَنِ قَالَ: قَبْلَ مَوْتِ عِيسَىٰ، وَاللهِ إِنَّهُ الآنَ لَحَيٌّ، وَلَكِنْ إِذَا نَزَلَ آمَنُوا بِهِ أَجْمَعُونَ. وَنَقَلَهُ عَنْ أَكْثَرِ أَهْلِ العِلْمِ وَرَجَّحَهُ ابنُ جَرِيرٍ وَغَيْرُهُ)(٢).

---

(١) تفسير القرآن العظيم، (٢/ ٤٥٤).

(٢) فتح الباري، ابن حجر، (٦/ ٤٩٢).

الأدلة من السنة:

تواترت الأحاديث عن النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بنزول المسيح صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلىٰ الأرض وقتله للأعور الدجال، وقد صُنِّفت عشرات الكتب في هذا الباب وفي الرد علىٰ منكري ذلك من فرق الضلال ومَنْ اغترَّ بهم من المتأخرين المتأثرين بالمادية الأوربية، مع إصابتهم بالهزيمة النفسية التي جعلت عقائدهم عرضة لرياح التغريب.

ومن الأحاديث الدالة علىٰ ذلك:

- ما رواه الشيخان في «صحيحيهما» عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أن النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الحربَ ويفيض المالُ حتىٰ لا يقبله أحد، حتىٰ تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها» ثم يقول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩]، وفي لفظ مسلم من رواية عطاء: «ولَتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد».

- ورواه أحمد وأبو داود وابن ماجه بسند صحيح -كما قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ- ولفظ أحمد: «الأنبياء إخوة لِعلّات أمهاتهم شتىٰ ودينهم واحد، وأنا أولىٰ الناس بعيسىٰ ابن مريم، لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازلٌ، فإذا رأيتموه فاعرفوه: رجلًا مربوعًا إلىٰ الحمرة والبياض، عليه ثوبان مُمَصَّران كأنَّ رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيدقُّ الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويدعو الناس إلىٰ الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال، وتقع الأَمَنَةُ علىٰ الأرض حتىٰ ترتع الأسود مع الإبل والنِّمار مع البقر والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا

تضرهم، فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه».

-وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة أيضًا، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم».

- وفي «صحيح مسلم» و«مسند أحمد» من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقول أميرهم: تعالَ فَصَلِّ، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرِمةَ الله هذه الأمة».

- وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الغفاريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «اطَّلَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ السَّاعَةَ، فَقَالَ: مَا تَذْكُرُونَ؟ قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ، فَقَالَ: إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّىٰ تُرَىٰ عَشْرُ آيَاتٍ: الدُّخَانُ، وَالدَّجَّالُ، وَالدَّابَّةُ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولُ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمُشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَىٰ مَحْشَرِهِمْ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

- **والأحاديث في هذا الباب بلغت حَدَّ التواتر** كما صرح بذلك جمعٌ ممن وقف عليها وجمعها واعتنى بها ومنهم: أبو الحسن الآبُرّي وابن جرير الطبري وابن عطية الأندلسي والقرطبي المفسر وابن تيمية وابن كثير وابن حجر العسقلاني والسخاوي والشوكاني والسفاريني وأنور شاه الكشميري والآلوسي والشيخ أحمد شاكر والكتاني والألبانيّ والغماري.

قال الإمام أبو الحسن الآبُري رَحِمَهُ اللَّهُ: (قد تواترت الأخبار واستفاضت بكثرة رواتها عن المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -يعني في المهدي- وأنه من أهل بيت النبي

صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأنه يملك سبع سنين، ويملأ الأرض عدلًا وأنه يخرج مع عيسىٰ ابن مريم، ويساعده في قتل الدجال بباب لد بأرض فلسطين، وأنه يؤمّ هذه الأمة، وعيسىٰ -صلىٰ الله عليه- يصلي خلفه)(١).

وبعدما ذكر الاختلاف في معنىٰ الوفاة في قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، **قال الإمام أبو جعفر الطبري** رَحِمَهُٱللَّهُ: (وأولىٰ هذه الأقوال بالصحة عندنا، قولُ من قال: معنىٰ ذلك: إني قابضك من الأرض ورافعك إليّ، لتواتر الأخبار عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: ينزل عيسىٰ ابن مريم فيقتل الدجال، ثم يمكث في الأرض مدة ذكَرها، اختلفت الرواية في مبلغها، ثم يموت فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه)(٢).

وقال الإمام ابن عطية الأندلسي رَحِمَهُٱللَّهُ: (وأجمعت الأمة علىٰ ما تضمنه الحديث المتواتر من أن عيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في السماء حيٌّ، وأنه ينزل في آخر الزمان فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويقتل الدجال ويفيض العدل ويظهر هذه الملة ملة محمد ويحج البيت ويعتمر، ويبقىٰ في الأرض أربعًا وعشرين سنة، وقيل: أربعين سنة، ثم يميته الله تعالىٰ)(٣).

---

(١) مناقب الإمام الشافعي، أبو الحسن الآبري السجستاني، تحقيق: جمال عزون، ط. الدار الأثرية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٠، (ص٩٥).

(٢) جامع البيان، (٦/ ٤٥٨).

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، ط. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولىٰ - ١٤٢٢، (١/ ٤٤٤).

وقال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال أبو الحسن محمد بن الحسين بن إبراهيم ابن عاصم الأبري السجزي: قد تواترت الأخبار واستفاضت بكثرة رواتها عن المصطفىٰ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -يعني المهدي-، وأنه من أهل بيته وأنه سيملك سبع سنين، وأنه يملأ الأرض عدلًا يخرج مع عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فيساعده علىٰ قتل الدجال بباب لد بأرض فلسطين، وأنه يؤم هذه الأمة وعيسىٰ صلوات الله عليه يصلي خلفه)(١).

وقال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الأَحَادِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أَخْبَرَ بِنُزُولِ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ إِمَامًا عَادِلًا وَحَكَمًا مُقْسِطًا)(٢)، ولما أورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملة من الأحاديث في «تفسيره» قال: (فهذه أحاديث متواترة عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من رواية أبي هريرة وابن مسعود وعثمان بن أبي العاص وأبي أمامة والنواس بن سمعان وعبد الله بن عمرو ابن العاص ومجمع ابن جارية وأبي سريحة وحذيفة ابن أسيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ...)(٣).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقَالَ أَبُو الحَسَنِ الخَسْعِيُّ الآبِدِيُّ(٤) فِي مَنَاقِبِ الشَّافِعِيِّ: تَوَاتَرَتِ الأَخْبَارُ بِأَنَّ المَهْدِيَّ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ وَأَنَّ عِيسَىٰ يُصَلِّي خَلْفَهُ)(٥).

---

(١) التذكرة بأحوال الموتىٰ وأمور الآخرة، أبو عبد الله القرطبي، تحقيق ودراسة: الدكتور: الصادق بن محمد بن إبراهيم، ط. مكتبة دار المنهاج-الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٥، (ص١٢٠٥، ١٢٠٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم، (٧/ ٢٣٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم، (٢/ ٤٦٤).

(٤) تصحيف عجيب، ويأتي التنبيه عليه إن شاء الله.

(٥) فتح الباري، ابن حجر، (٦/ ٤٩٣، ٤٩٤).

(تنبيه) أبو الحسن الآبُري هو (الشَّيْخُ، الإِمَامُ، الحَافِظُ، مُحَدِّثُ سِجِسْتَانَ بَعْدَ ابْنِ حِبَّانَ، أَبُو الحَسَنِ مُحَمَّدُ بنُ الحُسَيْنِ بنِ إِبْرَاهِيْمَ بنِ عَاصِمٍ السِّجِسْتَانِيُّ الآبُرِّيُّ - بِالمدِّ ثُمَّ الضَّمِّ -، مُصَنِّفُ كِتَابِ (مَنَاقِبِ الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ) منسوبٌ إِلَىٰ قريَةِ آبُر مِنْ عملِ سِجِسْتَانَ، ارْتَحَلَ وَسَمِعَ إِمَامَ الأَئِمَّةِ ابنَ خُزَيْمَةَ...مَاتَ فِي شَهْرِ رَجَبٍ سَنَةَ ثَلاثٍ وَسِتِّيْنَ وَثَلاثِ مائَةٍ)(١).

وقد ذكرت ترجمته لأن اسمه قد تصحف في كثير من المطبوعات فجاء في «فتح الباري» هكذا: (أَبُو الحَسَنِ الخَسْعِيُّ الآبِدِيُّ)، وفي «التذكرة» للقرطبي: (أبو الحسن الأبري) وهو أقربها للصواب، وفي (نظم المتناثر) للكتاني: (أبو الحسين الإبري).

(تنبيهٌ ثانٍ) أحاديث المهدي وأحاديث الدجال تحوي في طياتها أحاديث نزول المسيح عيسىٰ ابن مريم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصلاته خلف المهدي وقتله للدجال، فهي متشابكة، وأكثرها يكون فيه ذِكر ثلاثتهم، فالحكم بتواتر أحاديث المهدي حكم بتواتر أحاديث نزول المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وقتله الدجال من باب أولىٰ، لأن كثيرًا من أحاديث نزول المسيح وقتله الدجال في «الصحيحين».

قال العلامة المحدث محمد بن جعفر الكتاني رَحِمَهُٱللَّهُ عن أحاديث المهدي: (وقد نقل غير واحد عن الحافظ السخاوي أنها(٢) متواترة والسخاوي ذكر ذلك في

---

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط. مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة، ١٤٠٥، (١٦/ ٣٠٠، ٢٩٩)، وطبقات الشافعية الكبرىٰ، تاج الدين السبكي، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، ط. هجر، الطبعة: الثانية، ١٤١٣، (٣/ ١٤٧).

(٢) يعني أحاديث المهدي.

«فتح المغيث» ونقله عن أبي الحسين الإبري[١] وقد تقدم نصه أول هذه الرسالة، وفي تأليف لأبي العلاء إدريس بن محمد بن إدريس الحسين العراقي في المهدي هذا أن أحاديثه متواترة أو كادت، قال: وجزم بالأول غير واحد من الحفاظ النقاد. اهـ.

وفي شرح الرسالة للشيخ جَسُّوس ما نصه: ورد خبر المهدي في أحاديث ذكر السخاوي أنها وصلت إلىٰ حد التواتر اهـ. وفي شرح المواهب نقلًا عن أبي الحسين الإبري[٢] في «مناقب الشافعي» قال: تواترت الأخبار أن المهدي من هذه الأمة وأن عيسىٰ يصلي خلفه، ذكر ذلك ردًّا لحديث ابن ماجه عن أنس: «ولا مهديَّ إلا عيسىٰ» اهـ.

وفي «مغاني الوفا بمعاني الاكتفا» قال الشيخ أبو الحسين الإبري[٣] قد تواترت الأخبار واستفاضت بكثرة رواتها عن المصطفىٰ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمجيء المهدي وأنه سيملك سبع سنين وأنه يملأ الأرض عدلًا اهـ.

وفي شرح عقيدة الشيخ محمد بن أحمد السفاريني الحنبلي ما نصه: وقد كثرت بخروجه الروايات حتىٰ بلغت حد التواتر المعنوي وشاع ذلك بين علماء السنة حتىٰ عُدَّ من معتقداتهم. ثم ذكر بعض الأحاديث الواردة فيه عن جماعة من الصحابة وقال بعدها: وقد روىٰ عمن ذكر من الصحابة وغير من ذكر منهم بروايات متعددة وعن التابعين من بعدهم مما يفيد مجموعُه العلمَ القطعيَّ، فالإيمان بخروج المهدي واجب كما هو مقرر عند أهل العلم ومدوّن في عقائد أهل السنة والجماعة اهـ.

---

(١) تصحيف، كما سبق التنبيه عليه.

(٢) تصحيف، كما سبق التنبيه عليه.

(٣) تصحيف، كما سبق التنبيه عليه.

وتتبع ابن خلدون في «مقدمته» طرق أحاديث خروجه(١) مستوعبًا لها على حسب وسعة، فلم تسلم له من علة، لكن ردوا عليه بأن الأحاديث الواردة فيه على اختلاف رواياتها كثيرة جدًّا تبلغ حد التواتر، وهي عند أحمد والترمذي وأبي داود وابن ماجه والحاكم والطبراني وأبي يعلى الموصلي والبزار وغيرهم من دواوين الإسلام من السنن والمعاجم والمسانيد، وأسندوها إلى جماعة من الصحابة، فإنكارها مع ذلك مما لا ينبغي والأحاديث يشد بعضها بعضًا ويتقوى أمرها بالشواهد والمتابعات وأحاديث المهدي بعضها صحيح وبعضها حسن وبعضها ضعيف، وأمره مشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممر الأعصار، وأنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت النبوي يؤيد الدين ويظهر العدل ويتبعه المسلمون ويستولي على الممالك الإسلامية ويسمى بالمهدي، ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح على أثره، وأن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال أو ينزل معه فيساعده على قتله، ويأتم بالمهدي في بعض صلواته، إلى غير ذلك.

وللقاضي العلامة محمد بن علي الشوكاني اليمني رَحِمَهُ ٱللَّهُ رسالة سماها التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر والدجال والمسيح قال فيها: والأحاديث الواردة في المهدي التي أمكن الوقوف عليها منها خمسون حديثًا في الصحيح والحسن والضعيف المنجبر، وهي متواترة بلا شك ولا شبهة، بل يصدق وصف التواتر على ما دونها على جميع الاصطلاحات المحررة في الأصول، وأما الآثار عن الصحابة المصرحة بالمهدي فهي كثيرة أيضًا لها حكم الرفع، إذ لا مجال للاجتهاد في مثل ذلك اهـ(٢).

---

(١) يعني المهديّ.

(٢) نظم المتناثر من الحديث المتواتر، الكتاني، تحقيق: شرف حجازي، ط. دار الكتب السلفية - مصر، الطبعة الثانية، (ص٢٢٦، ٢٢٧).

وقال رَحِمَهُٱللَّهُ: (قال الأُبِّيّ في «شرح مسلم» في الكلام على أحاديث الأشراط ما نصه: وتقدم في حديث جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قول ابن رشد الأشراط عشرة والمتواتر منها خمسة اهـ. والذي تقدم له في حديث جبريل هو أنه بعدما نقل عن القرطبي أن الأشراط تنقسم إلى معتاد كالمذكورات في حديث جبريل وكرفعِ العلم وظهور الجهل وكثرة الزنى وكثرة شرب الخمر وغيرِ معتادٍ كالدجال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج والدابة وطلوع الشمس من مغربها.

قال: قلت: قال ابن رشد: واتفقوا على أنه لابد من ظهور هذه الخمسة، واختلفوا في خمسةٍ أُخَر: خسفٍ بالمشرق، وخسفٍ بالمغرب، وخسفٍ بجزيرة العرب، والدخانِ، ونارٍ تخرج من قعر عدن تروح معهم حيث راحوا وتقيل معهم حيث قالوا، زاد بعضهم: وفتح قسطنطينية، وظهور المهدي اهـ.

وقال أيضًا قبله في الكلام على أحاديث نزول عيسى ما نصه: لابد من نزوله لتواتر الأحاديث بذلك اهـ.

وقد ذكروا أن نزوله ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، والأحاديث في نزوله كثيرة، ذكر الشوكاني منها في التوضيح تسعة وعشرين حديثًا ما بين صحيح وحسن وضعيف منجبر، منها ما هو مذكور في أحاديث الدجال ومنها ما هو مذكور في أحاديث المنتظر، وتنضم إلى ذلك أيضًا الآثار الواردة عن الصحابة فلها حكم الرفع إذ لا مجال للاجتهاد في ذلك. والحاصل أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة، وكذا الواردة في الدجال وفي نزول سيدنا عيسى ابن مريم عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ)(١).

---

(١) نظم المتناثر من الحديث المتواتر، الكتاني، تحقيق: شرف حجازي، ط. دار الكتب السلفية - مصر، الطبعة الثانية، (ص٢٢٩).

وقال محدّث الديار المصرية؛ الشيخ أحمد محمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ونزول عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ آخر الزمان ثابت ثبوتَ القطع، بالتواترِ الصحيح الحقيقي)(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد لعب المجددون، أو المجرّدون، في عصرنا الذي نحيا فيه، بهذه الأحاديث الدالة صراحة علىٰ نزول عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، في آخر الزمان، قبل انقضاء الحياة الدنيا بالتأويل المنطوي علىٰ الإنكار تارة، وبالإنكار الصريح أخرىٰ!، ذلك أنهم - في حقيقة أمرهم - لا يؤمنون بالغيب، أوْ لا يكادون يؤمنون، وهي أحاديث متواترة المعنىٰ في مجموعها، يعلم مضمون ما فيها من الدين بالضرورة، فلا يجديهم الإنكار ولا التأويل)(٢).

وقال الشيخ محمد أنور شاه الكشميري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (اتفق أهل العلم بالحديث وحفاظه علىٰ تواتر حديث الدجال ونزول عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من السماء؛ كالحافظ ابن كثير وابن حجر وغيرهما؛ بل إن الإمام الشوكاني ألف رسالة سماها: «التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر والدجال والمسيح»، وقد تيقّنت - أنا شخصيًّا - بتواتر أحاديث الدجال وعيسىٰ حينما كتبت الرسالة المشار إليها آنفًا)(٣).

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط. دار الحديث - القاهرة الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦، (٨/ ٩٠).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط. دار الحديث - القاهرة الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦، (٧/ ٩٨، ٩٩).

(٣) التصريح بما تواتر في نزول المسيح، محمد أنور شاه الكشميري، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، ط. مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب - ودار القرآن الكريم بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠١، ص (٢٢٣)، والرسالة المشار إليها هي كتابه: (عقيدة الإسلام في حياة عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ).

وقال العلامة الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والمراد بكونه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خاتمَهم انقطاعُ حدوث وصف النبوة في أحد من الثقلَيْن بعد تحلّيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بها في هذه النشأة، ولا يقدح في ذلك ما أجمعت الأمة عليه واشتهرت فيه الأخبار، ولعلها بلغت مبلغ التواتر المعنوي ونطق به الكتاب على قول ووجب الإيمان به، وأكفر منكره كالفلاسفة، من نزول عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ آخر الزمان، لأنه كان نبيًّا قبل تحلّي نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنبوة في هذه النشأة)(١).

الإجماع:

مرَّ قريبًا في كلام العلامة الكتاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: (وقد ذكروا أن نزوله ثابت بالكتاب والسنة والإجماع)، وقد ذكر الإجماعَ علىٰ نزول المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ غيرُ واحدٍ من أهل العلم تصريحًا أَوْ إشارةً، ولهذا عدُّوه في مسائل الاعتقاد عند أهل السنة، ونسبوا إنكار نزوله إلىٰ الفِرَق الضالة.

قال العلامة السفاريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند ذكره علامات الساعة العظمىٰ: (العلامة الثالثة: أن ينزل من السماء السيد المسيح عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ونزوله ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة) **وقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما الإجماع فقد أجمعت الأمة علىٰ نزوله ولم يخالف فيه أحد من أهل الشريعة، وإنما أنكر ذلك الفلاسفة والملاحدة ممن لا يعتد بخلافه)(٢).

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٥، (١١/ ٢١٣).

(٢) لوامع الأنوار البهية، السفاريني، ط. مؤسسة الخافقين - دمشق (١٤٠٢، (٢/ ٩٤).

وقال الإمام ابن عطية الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأجمعت الأمة على ما تضمنه الحديث المتواتر من أن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في السماء حيٌّ، وأنه ينزل في آخر الزمان فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويقتل الدجال ويفيض العدل ويظهر هذه الملة ملة محمد ويحج البيت ويعتمر، ويبقى في الأرض أربعًا وعشرين سنة، وقيل: أربعين سنة، ثم يميته الله تعالى)(١).

وقال العلامة الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والمراد بكونه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خاتمَهم انقطاعُ حدوث وصف النبوة في أحد من الثقلَيْن بعد تحلّيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بها في هذه النشأة، ولا يقدح في ذلك ما أجمعت الأمة عليه واشتهرت فيه الأخبار ولعلها بلغت مبلغ التواتر المعنوي ونطق به الكتاب على قول ووجب الإيمان به وأكفر منكره كالفلاسفة من نزول عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ آخر الزمان لأنه كان نبيًّا قبل تحلّي نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنبوة في هذه النشأة)(٢).

وقال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في كتابه «التذكرة»: (الإيمان بالدجال وخروجه حقٌّ وهذا مذهب أهل السنة وعامةُ أهل الفقه والحديث خلافًا لمن أنكر أمره من الخوارج وبعض المعتزلة)(٣).

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق ابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، ط. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢، (١/ ٤٤٤).

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥، (١١/ ٢١٣).

(٣) التذكرة، ط. دار المنهاج - جدة (ص١٢٨٢).

وقال الإمام الطحاوي رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَنُؤْمِنُ بِأَشْرَاطِ السَّاعَةِ: مِنْ خُرُوجِ الدَّجَّالِ، وَنُزُولِ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ مِنَ السَّمَاءِ، وَنُؤْمِنُ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجِ دَابَّةِ الْأَرْضِ مِنْ مَوْضِعِهَا)(١).

وقد كان أمر نزول المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ **-في آخر الزمان- متقرّرًا عند السلف** حتىٰ روي عن بعضهم كراهته لأن يوصَفَ النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بأنه (لا نبيَّ بعده) لأن ظاهر اللفظ يوهم التعارض مع نزول المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، فقد روىٰ ابن أبي شيبة في «مصنفه»(٢)، والطبراني في «المعجم الكبير»(٣) عَنْ مُجَالِدٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ عِنْدَ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ: صَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ الأَنْبِيَاءِ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، فَقَالَ الْمُغِيرَةُ: حَسْبُكَ أَنْ تَقُولَ: خَاتَمَ الأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّا كُنَّا نُحَدَّثُ أَنَّ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ خَارِجٌ، فَإِنْ كَانَ خَارِجًا(٤) فَقَدْ كَانَ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ، قال الهيثمي رَحِمَهُٱللَّهُ: رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَفِيهِ مُجَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ، وَقَدْ ضَعَّفَهُ جَمَاعَةٌ وَوُثِّقَ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ ثِقَاتٌ(٥).

---

(١) متن العقيدة الطحاوية، ط. دار ابن حزم (ص٣١).

(٢) الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط. مكتبة الرشد - الرياض الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٩، (٥/ ٣٣٧)، الحديث رقم: (٢٦٦٥٤).

(٣) المعجم الكبير، أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط. مكتبة ابن تيمية - القاهرة الطبعة الثانية، (٢٠/ ٤١٤).

(٤) يعني: فإن كان الأمر كذلك وهو أنه خارج فقد كان قبله أنبياء وبعده نبي، لأنه قال: (كُنَّا نُحَدَّثُ)، وهذا من الصحابي في حكم المرفوع فلا يصح أن تكون (إن) للشك والله أعلم.

(٥) مجمع الزوائد، الهيثمي، (٨/ ٢٠٥، ٢٠٦)، الحديث رقم: (١٣٧٩١).

وروىٰ ابن أبي شيبة أيضًا(١) عن جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قَالَتْ: قُولُوا: خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَلَا تَقُولُوا: لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وجرير لم يسمع من عائشة، فالسند منقطع.

وهذا من باب رفع الاشتباه عند السامع، وإلا فقد روىٰ البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «كانَتْ بَنُو إسْرائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأنْبِياءُ، كُلَّما هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وإنَّه لا نَبيَّ بَعْدِي»، وبيَّنٌ أن المعنىٰ هو نفي النبوة بعده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما روىٰ الإِمَامُ أَحْمَدُ في «مسنده» عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِ الرِّسَالَةَ وَالنُّبُوَّةَ قَدِ انْقَطَعَتْ، فَلَا رَسُولَ بَعْدِي وَلَا نَبِيَّ».

قال الزمخشري في تفسير قول الله: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]: (وخاتم بفتح التاء بمعنىٰ الطابع، وبكسرها بمعنىٰ الطابع وفاعل الختم وتقوّيه قراءة ابن مسعود: (ولكن نبيًّا ختمَ النبيين)، فإن قلتَ: كيف كان آخرَ الأنبياء وعيسىٰ ينزل في آخر الزمان؟ قلت: معنىٰ كونه آخر الأنبياء أنه لا ينبأ أحد بعده، وعيسىٰ ممن نبئ قبله، وحين ينزلُ، ينزلُ عاملًا علىٰ شريعة محمد، مصليًّا إلىٰ قبلته، كأنه بعض أمّته)(٢).

---

(١) الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط. مكتبة الرشد - الرياض الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٩، (٥/ ٣٣٦)، الحديث رقم: (٢٦٦٥٣).

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جار الله، أبو القاسم الزمخشري، ط. دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٠٧، (٣/ ٥٤٤، ٥٤٥).

حكم مَنْ ينكرُ نزولَ المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:

أفتىٰ بعض أهل العلم بكفر منكِر نزول المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، لأنه منكِرٌ لأمرٍ مقطوعٍ به ومعلومٍ من الدين بالضرورة ولا يكاد يخلو منه كتابٌ من كتب الحديث والتفسير والعقائد، ولكن لغلبةِ الجهل وكثرةِ الشبهات وتقليدِ بعض المنتسبين إلىٰ العلم ممن تابعَ بعضَ متأخّري المعتزلة، فإن النفس تميل إلىٰ قول مَنْ قال مِن أهل العلم بعدم التكفير لمنكري ذلك، وعذر هؤلاء المنكرين بالجهل والتأويل، والله أعلم.

وقد احتج بعض المكفّرين للمنكرين بخبرٍ باطل رواه أبو بكر الكلاباذي الإسكافي في كتابه «مفتاح معاني الآثار» عن جابر مرفوعًا: «من أنكر خروج المهدي فقد كفر بما أنزل علىٰ محمد، ومن أنكر نزول عسىٰ ابن مريم فقد كفر، ومن أنكر خروج الدجال فقد كفر...»، وهو حديث باطل حكم بوضعه الذهبي في «الميزان» والحافظ في «لسان الميزان» في ترجمة محمد بن الحسن الأنصاري شيخِ الكلاباذي، والألباني في «السلسلة الضعيفة»، واستغربه السهيلي في «الروض الأنف»، وأورده العلامةُ الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ في «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة»، وقال رَحِمَهُٱللَّهُ: (واعلم أن الإيمان بكل ما ذُكِر في هذا الحديث من خروج المهدي ونزول عيسىٰ وبالقدر خيره وشره، كل ذلك واجبٌ الإيمان به لثبوته في الكتاب والسنة، ولكن ليس هناك نص في أن مَن أنكر ذلك فقد كفر، ومن أجل ذلك أوردتُ الحديثَ وبينتُ وضعه، وهو ظاهر الوضع، وكأنه من وضع بعض المحدّثين أو غيره من الجهَلة وضعه ليقيم به الحجة علىٰ منكري ذلك من ذوي الأهواء والمعتزلة، ولن تقوم الحجة علىٰ أحد بالكذب علىٰ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والافتراءِ علىٰ الله تعالىٰ، فقاتلَ الله الوضّاعين ما أجرأهم علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

والتكفير ليس بالأمر السهل، نعم من أنكر ما ثبت من الدين بالضرورة بعدما قامت الحجة عليه فهو الكافر الذي يتحقق فيه حقيقة معنىٰ «كفر»، وأما من أنكر شيئًا لعدم ثبوته عنده، أو لشبهة من حيث المعنىٰ فهو ضالٌّ، وليس بكافر مرتد عن الدين، شأنه في ذلك شأن مَن ينكر أي حديث صحيحٍ عند أهل العلم والله أعلم)(١).

وصية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لمن يدركُ المسيحَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

أوصىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من يدرك المسيح عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يبلّغه سلامه، واقتدىٰ به أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في ذلك:

- فعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من أدركَ منكمْ عيسىٰ ابنَ مريم فليقرئه مني السلام»، رواه الحاكم في المستدرك بإسناد جيد كما قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢).

- وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إني لأرجو إن طال بي عمر أن ألقىٰ عيسىٰ ابن مريم، فإن عجل بي موتٌ فمن لقيه منكم فليقرئه

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، محمد ناصر الدين الألباني، ط. دار المعارف، الرياض، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٢، (٣/ ٢٠١، ٢٠٢)، الحديث رقم: (١٠٨٢)، ولسان الميزان، ابن حجر العسقلاني، ط. مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٠، (٥/ ١٣٠).

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني، ط. مكتبة المعارف-الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦، (٥/ ٣٨٩، ٣٩٠)، الحديث رقم: (٢٣٠٨).

مني السلام». رواه أحمد في «مسنده» مرفوعًا وموقوفًا، وقال الكشميري رَحِمَهُ اللَّهُ: (ورجال الطريقين رجال «صحيح البخاري»(١)، وقد أخرج البخاري بهذا الإسناد أحاديثَ عديدة في غير موضع من «صحيحه»، فهذا حديث صحيح الإسناد، روي مرفوعًا وموقوفًا)(٢).

إلا أنه رجّح رَحِمَهُ اللَّهُ أن جملة: «إني لأرجو إن طال بي عمر أن ألقىٰ عيسىٰ ابن مريم» إنما هي من كلام أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن أمعن النظر في أحاديث الباب علم أن الإيصاء بإبلاغ السلام وقراءته علىٰ عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، صحيح، مرفوعًا وموقوفًا، وأما الجملة الابتدائية من قوله: «إني لأرجو إن طال بي عمر أن ألقىٰ عيسىٰ ابن مريم» عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالنظر في أحاديث الباب يحكم بأنها موقوفة لا مرفوعة، كيف وقد وقع التصريح بوفاة نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند نزول عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في أحاديث كثيرة؟ منها ما أخرجه مسلم مختصرًا (١٨٠) والحاكم في «المستدرك» مطولًا، من قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وليأتين قبري حتىٰ يسلم علي، ولأردن عليه»، وفي «فتح الباري» للحافظ ابن حجر: ولأحمد من وجهٍ آخر عن أبي هريرة: «أقرِئوه من رسول الله السلام»)(٣).

والحديث رواه أحمد بإسناد صحيح، وروي موقوفًا من كلام أبي هريرة بسند صحيح أيضًا كما مرّ، وقال الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ في تخريج المسند: (إسناده

---

(١) قلت: والحديث أورده الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٠٦) برقم: (١٣٧٨٧)، وقال: (رَوَاهُ أَحْمَدُ مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا وَرِجَالُهُمَا رِجَالُ الصَّحِيحِ).

(٢) التصريح بما تواتر في نزول المسيح، محمد أنور شاه الكشميري، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، ط. مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب - ودار القرآن الكريم بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠١، ص (١٧٩، ١٨٠).

(٣) التصريح بما تواتر في نزول المسيح، ص (١٨٠، ١٨١).

صحيح، وهو مكرر ما قبله، ولكن هذا موقوف اللفظ، والرفع زيادة ثقة، ثم إن وقفه لا يضر؛ لأنه مرفوع حكمًا، إذْ إنه من الغيب الذي لا يعلم بالرأي ولا القياس. وإنما يعلم من خبر الصادق المصدوق، معلم الخير، المبلغ عن ربه عَزَّوَجَلَّ: رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)(١).

قلت: لكن الإيراد الذي أورده الكشميريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قويٌّ وهو ترجيح الوقفَ في جملة: «إني لأرجو إن طال بي عمر أن ألقىٰ عيسىٰ ابن مريم»، لثبوت معرفة النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه سيكون مقبورًا عند نزول المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكلام الشيخ شاكر عن الرفع الحُكمي في مسألة النزول، والكلام في جملة: «إني لأرجو إن طال بي عمر...»، وكأن الشيخ شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، تردّد بعد ذلك، فرجح الوقف في الحديث التالي مباشرة فقال: إسناده صحيح، بل هما إسنادان، فإن شُعبة رواه عن علي بن زيد بن جدعان، وعن يونس بن عبيد، كلاهما عن عمار بن أبي عمار مولىٰ بني هاشم، عن أبي هريرة، إلا أن علي بن زيد رفعه، فجعله من كلام النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويونس بن عبيد وقفه، فجعله من كلام أبي هريرة. وعلي بن زيد - وإن كان ثقة عندنا-، إلا أنه انفرد برفع هذا الحديث، وكان- كما قالوا- رفَّاعًا للأحاديث، ويونس بن عبيد أحفظ منه وأوثق: وأشد تثبتًا، فالراجع عندي في هذا الحديث وقفه علىٰ أبي هريرة)(٢).

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط. دار الحديث - القاهرة الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦، (٨/ ٩٠)، الحديث رقم: (٧٩٥٨).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط. دار الحديث - القاهرة الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦، (٨/ ٩٠)، الحديث رقم: (٧٩٥٩).

- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا إِنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ وَلَا رَسُولٌ، أَلَا إِنَّهُ خَلِيفَتِي فِي أُمَّتِي بَعْدِي، أَلَا إِنَّهُ يَقْتُلُ الدَّجَّالَ، وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَتَضَعُ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا، أَلَا فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ السَّلَامَ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَقْرَأَهُ السَّلَامَ مِنْ أَبِي الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَآكُلُ مِنْ جَفْنَتِهِ(١).

قال نور الدين الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ: (قُلْتُ: فِي الصَّحِيحِ بَعْضُهُ، رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الصَّغِيرِ وَالأَوْسَطِ، وَفِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ عُقْبَةَ السَّدُوسِيُّ، وَثَّقَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَضَعَّفَهُ أَبُو حَاتِمٍ)(٢).

-وروىٰ الحاكم من طريق محمد بن إسحاق عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن عطاء مولىٰ أم حبيبة قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ليهبطن عيسىٰ ابن مريم حكما عدلًا... الحديث يقول أبو هريرة: «أي بني أخي! إن رأيتموه فقولوا: أبو هريرة يقرئك السلام». وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأقول: محمد بن إسحاق مدلس، وقد عنعنه، وعطاء مولىٰ أم حبيبة لم أعرفه، ولعل أم حبيبة محرف من أم صُبَيَّة، فإن عطاء مولىٰ أم

(١) المعجم الأوسط، أبو القاسم الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، ط. دار الحرمين - القاهرة، (٥/ ١٤١)، الحديث: (٤٨٩٨)، والمعجم الصغير، أبو القاسم الطبراني، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج، ط. المكتب الإسلامي-بيروت، ودار عمار-عمان، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٥، (٢/ ٣٠)، الحديث رقم: (٧٢٥).

(٢) مجمع الزوائد، الهيثمي، (٨/ ٢٠٦)، الحديث رقم: (١٣٧٨٨).

صُبيّة من رجال النسائي، روىٰ عن أبي هريرة، وعنه سعيد المقبري، وهو مجهول)(١).

الحكمة من نزول المسيح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخر الزمان:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في «فتح الباري»: (قَالَ العُلَمَاءُ الحِكْمَةُ فِي نُزُولِ عِيسَىٰ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الأنْبِيَاءِ: الرَّدُّ عَلَىٰ اليَهُودِ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ قَتَلُوهُ فَبَيَّنَ اللهُ تَعَالَىٰ كَذِبَهُمْ وَأَنَّهُ الَّذِي يَقْتُلُهُمْ، أَوْ نُزُولُهُ لِدُنُوِّ أَجَلِهِ لِيُدْفَنَ فِي الأَرْضِ، إِذْ لَيْسَ لِمَخْلُوقٍ مِنَ التُّرَابِ أَنْ يَمُوتَ فِي غَيْرِهَا، وَقِيلَ: إِنَّهُ دَعَا اللهَ لَمَّا رَأَىٰ صِفَةَ مُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ أَنْ يَجْعَلَهُ مِنْهُمْ فَاسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ وَأَبْقَاهُ حَتَّىٰ يَنْزِلَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ مُجَدِّدًا لِأَمْرِ الإِسْلَامِ، فَيُوَافِقُ خُرُوجَ الدَّجَّالِ فَيَقْتُلُهُ وَالأَوَّلُ أَوْجَهُ)(٢).

قلت: ما ذكره الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ مختصرٌ من كلام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في التذكرة فقد عقد فصلًا لذلك قال فيه: (فصل فإن قيل فما الحكمة في نزوله في ذلك الوقت دون غيره؟ فالجواب من ثلاثة أوجه) ثم ذكرها، وقد أحسن الحافظ في إشارته لتضعيف القول الثالث بقوله: (وقيل) لأنه يفتقر إلىٰ دليل، وأما توجيهه رَحِمَهُ اللَّهُ للقول الأول، فقد جاء محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما دل علىٰ كذب اليهود الإخبار بأن المسيح رُفع حيًّا وأنه سينزل ليقتلهم، وأما الوجه الثاني فهو ظاهر لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥]، ولو قيل إن نزوله لبيان شرف هذه الأمة لاسيما والمسلمون في آخر الزمان غرباء والفتن شديدة، لكان قولًا وجيهًا، والله أعلم وله الحكمة البالغة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الألباني، ط. مكتبة المعارف-الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٦، (٥/ ٣٩٠).

(٢) فتح الباري (٦/ ٤٩٣).

زمن نزول المسيح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

ذُكر في الأحاديث الواردة في شأن المسيح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونزوله من السماء أن نزوله من علامات الساعة، وأنه ينزل قُربَ يوم القيامة، وأن نزوله يكون بعد خروج الدجال ومبايعة المهدي على الخلافة، وقبل خروج يأجوج ومأجوج، وأن ذلك بعد الهدنة التي تكون مع الروم، وَبيَّنتْ الأحاديث أن وقت نزوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكون وقت إقامة صلاة الفجر.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق -أو بدابق(١)- فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذٍ، فإذا تصافوا قال الروم: خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم، فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدًا، ويُقتل ثلث هم أفضل الشهداء عند الله عَزَّ وَجَلَّ، ويفتتح الثلث لا يُفتنون أبدًا، فيفتحون قسطنطينية فبينما هم يقسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون إذْ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم فيخرجون وذلك باطل، فإذا جاءوا الشام خرج، فبينما هم يعدون للقتال يُسَوُّون الصفوفَ إذْ أُقيمت الصلاة فينزل عيسى ابن مريم فأَمَّهم(٢)، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلكَ ولكن يقتله الله بيده، فيريهم دمه في حربته». (رواه مسلم).

---

(١) قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: والأعماق ودابق موضعان في الشام بقرب حلب.

(٢) يعني في القتال، أو صار إمامهم بعد ذلك لورود نص في أن أول صلاة يصليها يكون مأمومًا خلف خليفة المسلمين المهدي.

وعن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «لقيت ليلة أسري بي إبراهيمَ وموسىٰ وعيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فتذاكروا أمر الساعة، فردّوا أمرهم إلىٰ إبراهيم فقال: لا عِلمَ لي بها، فردوا أمرهم إلىٰ موسىٰ فقال: لا علم لي بها، فردوا أمرهم إلىٰ عيسىٰ فقال: أما وَجْبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله، وفيما عهدَ إليَّ ربي أن الدجال خارج، قال: ومعي قضيبان فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص، قال: فيهلكه الله إذا رآني حتىٰ إن الحجر والشجر يقول: ما مسلم إن تحتي كافرًا فتعال فاقتله، قال: فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلىٰ بلادهم وأوطانهم فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدَب ينسلون» الحديث، وفي آخره: «ففيما عهد إليّ ربي عَزَّ وَجَلَّ أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المُتِمّ لا يدري أهلها متىٰ تفجأوهم بوِلادها ليلًا أو نهارًا»(١).

وعن أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: خطبنا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذكر الدجال، وقال: «فتنفي المدينةُ الخَبَثَ كما ينفي الكير خبث الحديد ويُدعىٰ ذلك اليومُ يومَ الخلاص»، قالت أم شريك: فأين العرب يا رسول الله يومئذٍ؟ قال: «هم يومئذٍ قليل، وجُلّهم ببيت المقدس وإمامهم رجل صالح، فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح إذْ نَزلَ عليهم عيسىٰ ابن مريم الصبحَ فرجع ذلك الإمام ينكُص يمشي القَهْقَرَىٰ ليتقدم عيسىٰ يصلي بالناس، فيضع عيسىٰ يده بين كتفيه ثم يقول له: «تقدم فصلّ فإنها لك أقيمت»، فيصلي بهم إمامهم»(٢).

---

(١) رواه أحمد واللفظ له، والحاكم وصححه علىٰ شرط الشيخين ووافقه الذهبي وابن حجر.

(٢) رواه ابن ماجه وابن خزيمة والحاكم وغيرهم وسكت عنه الحافظ في الفتح، وابن القيم في المنار المنيف، وله شواهد في الصحاح تشهد لمعناه والله أعلم.

لماذا يصلي المسيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خلف المهدي؟

ورد في الأحاديث أن عيسىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند نزوله يصلي خلف إمام المسلمين وهو المهدي علىٰ الراجح، ولا خلاف في كون عيسىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل من المهدي، فلماذا يصلي مأمومًا؟

مرَّ آنفًا حديث أبي هريرة الذي رواه الشيخان: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم» وحديث جابر عند مسلم في «صحيحه»: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون علىٰ الحق ظاهرين إلىٰ يوم القيامة، فينزل عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقول أميرهم(١): تعال فَصَلِّ فيقول: لا، إن بعضكم علىٰ بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة» ومَرَّ قريبًا حديث أبي أمامة وفيه: «... إمامهم رجل صالح، فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح إذْ نزل عليهم عيسىٰ ابن مريم الصبحَ، فرجع ذلك الإمام ينكص يمشي القهقرىٰ ليتقدم عيسىٰ يصلي بالناس فيضع عيسىٰ يده بين كتفيه ثم يقول له: تقدم فصلِّ فإنها لك أقيمت فيصلي بهم إمامهم».

وهذا الإمام هو المهدي كما دلت عليه جملة أحاديث المهدي حتىٰ نقل الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ عن الآبري في «مناقب الشافعي» قوله: (تواترت الأخبار بأن المهدي من هذه الأمة وأن عيسىٰ يصلي خلفه).

وقال الحافظ السيوطي في رسالته عن نزول عيسىٰ ابن مريم في آخر الزمان وهي ضمن كتابه «الحاوي»: (إن صلاة عيسىٰ خلف المهدي ثابتة في عدة أحاديث صحيحة، بإخبار رسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وهو الصادق المصدوق)،

---

(١) قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه علىٰ مختصر المنذري لمسلم: (هو المهدي محمد بن عبد الله).

وإلىٰ ترجيح كون هذا الإمام هو المهدي محمد بن عبد الله ذهب كل من المناوي وابن حجر الهيتمي وأنور شاه الكشميري والبرزنجي في «الإشاعة»، بل عدَّ ذلك من علامات المهدي فقال: (ومن العلامات التي يعرف بها المهدي أن يجتمع بعيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ويصلي عيسىٰ خلفه)، وقال القِنَّوجي في «الإذاعة»: (ليس فيه ذكر المهدي، ولكن لا محل له ولأمثاله من الأحاديث إلا المهدي المنتظر؛ لما دلت علىٰ ذلك الأخبار المتقدمة والآثار الكثيرة) اهـ(١).

وقد ورد التصريح بذلك في حديث رواه الحارث ابن أبي أسامة في «مسنده» بسند جيد، كما قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: (وَقَالَ الحَارِثُ بْنُ أَبِي أُسَامَةَ فِي «مسنده»: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الكَرِيمِ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ عُقَيْلٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «يَنْزِلُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ فَيَقُولُ أَمِيرُهُمُ المَهْدِيُّ: تَعَالَ صَلِّ بِنَا فَيَقُولُ: لا، إِنَّ بَعْضَهُمْ أَمِيرُ بَعْضٍ تَكْرِمَةُ اللهِ لِهَذِهِ الأُمَّةِ» وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ)(٢).

وروىٰ ابن أبي شيبة بسند صحيح، ونعيم بن حماد في «الفتن» عن محمد بن سيرين رَحِمَهُٱللَّهُ أنه قال: المهدي من هذه الأمة، وهو الذي يؤمّ عيسىٰ ابنَ مريم.

وأما الحكمة في ذلك، فقال الحافظ ابن الجوزي -فيما حكاه عنه الحافظ ابن حجر في «الفتح»-: (لَوْ تَقَدَّمَ عِيسَىٰ إِمَامًا لَوَقَعَ فِي النَّفْسِ إِشْكَالٌ، وَلَقِيلَ: أَتُرَاهُ

---

(١) المهدي، محمد إسماعيل المقدم، ط. الدار العالمية للنشر والتوزيع، الطبعة الحادية عشرة، ١٤٢٩، (ص٥٩).

(٢) المنار المنيف في الصحيح والضعيف، ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، ط. مكتبة المطبوعات الإسلامية- حلب، الطبعة الأولىٰ، ١٣٩٠، (ص١٤٧، ١٤٨)، الحديث رقم: (٣٣٨).

تَقَدَّمَ نَائِبًا أَوْ مُبْتَدِئًا شَرْعًا؟ فَصَلَّىٰ مَأْمُومًا لِئَلَّا يَتَدَنَّسَ بِغُبَارِ الشُّبْهَةِ وَجْهُ قَوْلِهِ: «لَا نَبِيَّ بَعْدِي»، وَفِي صَلَاةِ عِيسَىٰ خَلْفَ رَجُلٍ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ مَعَ كَوْنِهِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ وَقُرْبِ قِيَامِ السَّاعَةِ دَلَالَةٌ لِلصَّحِيحِ مِنَ الأَقْوَالِ أَنَّ الأَرْضَ لَا تَخْلُو عَنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ، وَاللهُ أعلم)(١).

وقال الشيخ المقدم حفظه الله في كتابه «المهدي»: (وجزم بعض العلماء أن عيسىٰ يقتدي بالمهدي أولًا ليظهر أنه نزل تابعًا لنبينا حاكمًا بشرعه، ثم بعد ذلك يقتدي المهدي به، علىٰ أصل القاعدة من اقتداء المفضول بالفاضل، وممن ذهب إلىٰ ذلك السعد التفتازاني والمناوي والكشميري حيث قال: «المراد به - أي حديث جابر- أنه لا يؤم في تلك الصلاة حتىٰ لا يُتَوهّم أن الأمة المحمدية سُلبت الولاية، فبعد تقرير ذلك لأول مرة يكون الإمام هو عيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لكونه أفضل من المهدي، فالجواب الأصلي لأمير المسلمين هو قوله: «لا، فإنها لك أقيمت» كما عند ابن ماجه وغيره عن أبي أمامة، وبعد أن كانت أقيمت له، لو تقدم عيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ أَوْهَمَ عَزْلَ الأمير، بخلاف ما بعد ذلك، وهذا كإشارة نبينا -صلىٰ الله عليه وآله وسلم- لأبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بعدما كان شرع في الصلاة أن لا يتأخر، يعني أي في هذه الصلاة لأنها لك أقيمت، ثم ذكر قوله: «تكرمة الله هذه الأمة» لفائدة زائدة، وهي أن الأمة علىٰ ولايتها، وعيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ -حينئذٍ- منهم، لا التعليل لعدم إمامته حتىٰ لا يتوهم استمرار عدمها»)(٢).

قلت: وقد مرَّ في حديث «الصحيحين» «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم» وعند مسلم «وأَمَّكم» أي بعد ذلك في الصلوات وسائر أموركم،

---

(١) فتح الباري، ابن حجر، (٦/ ٤٩٤).

(٢) المهدي، محمد إسماعيل المقدم، ط. الدار العالمية للنشر والتوزيع، الطبعة الحادية عشرة، ١٤٢٩، (ص٦٢).

وقول المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «فإنها لك أقيمت» كالتعليل لعدم تقدمه في هذه الصلاة خاصة، والله أعلم.

كيف ينزل المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؟

ورد في الأحاديث أن عيسىٰ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينزل من السماء واضعًا يديه علىٰ أجنحة مَلَكَيْن، وهو لابسٌ ثوبَيْن مصبوغين أصفرين، وشعره كأنه خارج من ديماس أي حَمّام، يقطر منه الماء كحبات اللؤلؤ فهذه هي هيئة نزوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فعن النواس بن سمعان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: ذكر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدجال ذات غداة... الحديث وفيه: «...فبينما هو كذلك إذْ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقيّ دمشق، بين مهرودتَيْن، واضعًا كَفَّيه علىٰ أجنحة ملَكين، إذا طأطأ رأسه قَطَر، وإذا رفعه تَحَدَّر منه جُمَانٌ كاللؤلؤ...» الحديث وهو في «صحيح مسلم»، والمهرودتان ثوبان أصفران مصبوغان بِوَرْسٍ ثم بزعفران، والجُمَان حبات تُصْنَع من الفضة علىٰ هيئة اللؤلؤ.

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليس بيني وبين عيسىٰ نبي، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع، إلىٰ الحمرة والبياض، ينزل بين مُمَصَّرتين، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل». رواه أبو داود بسند صحيح، كما قال الحافظ في «الفتح»، ورواه بنحوه أحمد وابن حبان، والممصرتان هما المهرودتان، وهما الثوبان المصبوغان بصُفرة يسيرة.

أين ينزل المسيح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

ثبت في أحد الأحاديث الصحيحة أن المسيح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينزل بالشام عند المنارة البيضاء شرقيّ دمشق، كما مَرَّ قريبًا في حديث النواس بن سمعان عند مسلم: «... إذْ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقيّ دمشق...».

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فينزل مسيحُ الهدىٰ فيقتل مسيحَ الضلالة، ويكون نزولُه علىٰ المنارة الشرقية بدمشق وقتَ صلاة الفجر)، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والمقصود أن عيسىٰ ينزل علىٰ المنارة الشرقية بدمشق والبلد محصورٌ محصَّنٌ من الدجال، فينزل علىٰ المنارة، وهي هذه المنارة المبنية في زماننا من أموال النصارىٰ ثم يكون نزول عيسىٰ حتفًا لهم وهلاكًا ودمارًا عليهم، ينزل بين مَلَكَيْن واضعًا يديه علىٰ مناكبهما، وعليه مهرودتان وفي رواية مُمَصَّرتان، يقطر رأسه ماءً كأنما خرج من ديماس، وذلك وقتَ الفجر فينزل علىٰ المنارة وقد أقيمت الصلاة، وهذا إنما يكون في المسجد الأعظم بدمشق، وهو هذا الجامع، وما وقع في «صحيح مسلم» من رواية النواس بن سمعان الكلابي: «فينزل علىٰ المنارة البيضاء شرقيّ دمشق»، كأنه -والله أعلم- مرويّ بحسب ما فهمه الراوي(١)، وإنما هو ينزل علىٰ المنارة الشرقية بدمشق، وقد أُخبِرت ولم أقف عليه إلىٰ الآن أنه كذلك في بعض ألفاظ هذا الحديث في بعض المصنفات، والله المسؤول المأمول أن يوفقني فيوقفني علىٰ هذه اللفظة، وليس في البلد منارة تعرف بالشرقية سوىٰ هذه، وهي بيضاء بنفسها ولا يعرف في بلاد الشام منارة أحسن منها ولا أبهىٰ ولا أعلىٰ منها، ولله الحمد والمنة.

قلت: نزول عيسىٰ علىٰ المنارة التي بالجامع الأموي غير مستنكر، وذلك أن البلاء بالدجال يكون عَمَّ فينحصر الناس داخل البلد، ويحصرهم الدجال بها، ولا

---

(١) كلام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبنيّ علىٰ القول بأن هذه المنارة بعينها هي التي ينزل عليها المسيح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وهو مجرد اجتهاد قد يخطئ، والبلاد تتغير مواقعها وتتمدد أطرافها وتنتقص من جهات أخر، فقد تصبح هذه المنارة شرقيّ دمشق، وقد تكون منارةً غيرها تبنىٰ بعد ذلك، وقد تكون في مكان شرقي دمشق وليس فيها، والله أعلم.

يتخلف أحد عن دخول البلد إلا أن يكون متبعًا للدجال أو مأسورًا معه، فإنَّ دمشق في آخر الزمان تكون معقل المسلمين وحصنهم من الدجال، فإذا كان الأمر كذلك فمن يصلي خارج البلد والمسلمون كلهم داخل البلد؟!

وعيسىٰ إنما ينزل وقتَ أقيمت الصلاة فيصلي مع المسلمين ثم يأخذهم ويطلب الدجال ليقتله)(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيره» لقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾[النساء: ١٥٩] بعد أن ذكر جملة من الأحاديث:

(فَهَذِهِ أَحَادِيثُ مُتَوَاتِرَةٌ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَعُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ، وَأَبِي أُمَامَةَ، وَالنَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، وَعَبْدِ اللهِ ابْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، ومُجَمِّعِ بْنِ جَارِيَةَ، وَأَبِي سَرِيحة، وَحُذَيْفَةَ بْنِ أَسَيْد، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَىٰ صِفَةِ نُزُولِهِ وَمَكَانِهِ، مِنْ أَنَّهُ بِالشَّامِ، بَلْ بِدِمَشْقَ، عِنْدَ الْمَنَارَةِ الشَّرْقِيَّةِ، وَأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ عِنْدَ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ لِلصُّبْحِ، وَقَدْ بُنِيَتْ فِي هَذِهِ الْأَعْصَارِ، فِي سَنَةِ إِحْدَىٰ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ مَنَارَةٌ لِلْجَامِعِ الأَمَوِيِّ بَيْضَاءُ، مِنْ حِجَارَةٍ مَنْحُوتَةٍ، عِوَضًا عَنِ الْمَنَارَةِ الَّتِي هُدِمَتْ بِسَبَبِ الْحَرِيقِ الْمَنْسُوبِ إِلَىٰ صَنِيعِ النَّصَارَىٰ -عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللهِ الْمُتَتَابِعَةُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ- وكان أكثر عمارتها مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَقَوِيَتِ الظُّنُونُ أَنَّهَا هِيَ الَّتِي يَنْزِلُ عَلَيْهَا الْمَسِيحُ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ، وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَضَعُ الجِزْيَةَ، فَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الإِسْلَامَ كَمَا تَقَدَّمَ فِي «الصحيحين»...)(٢).

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق علي شيري، ط. دار إحياء التراث العربي، (٩/ ١٧٦-١٧٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم، (٢/ ٤٦٥، ٤٦٤).

الفصل الثاني

أعمال المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعد نزوله

سيرة المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعد نزوله، وأعماله التي كلفه الله بها، ذُكرت في الأحاديث التي وردت في ذكر نزوله عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، ومُجْمَل أعماله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ التي وردت في الأحاديث ما يلي:

١-إمامة المسلمين: يكون المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حكمًا علىٰ المسلمين وإمامًا لهم، كما مَرَّ في حديث أبي هريرة عند الشيخين: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَمًا عدلًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الحرب ويفيض المال حتىٰ لا يقبله أحد، حتىٰ تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها»، وفي حديث أبي هريرة عند مسلم: «لا تقوم الساعة حتىٰ ينزل الروم بالأعماق... فينزل عيسىٰ ابن مريم فَأَمَّهم...».

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: (قَوْلُهُ: «حَكَمًا» أَيْ حَاكِمًا، وَالمَعْنَىٰ أَنَّهُ يَنْزِلُ حَاكِمًا بِهَذِهِ الشَّرِيعَةِ، فَإِنَّ هَذِهِ الشَّرِيعَةَ بَاقِيَةٌ لَا تُنْسَخُ، بَلْ يَكُونُ عِيسَىٰ حَاكِمًا مِنْ حُكَّام هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَفِي رِوَايَةِ اللَّيْثِ عَن ابن شِهَابٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ: «حَكَمًا مُقْسِطًا» وَلَهُ مِنْ طَرِيق ابن عُيَيْنَة عَن ابن شِهَابٍ: «إِمَامًا مُقْسِطًا» وَالمُقْسِطُ العَادِلُ، بِخِلَافِ القَاسِطِ فَهُوَ الجَائِرُ، وَلِأَحْمَدَ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «أَقْرِئوه مِنْ رَسُولِ اللهِ السَّلَامَ» وَعِنْدَ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ: «وَيَمْكُثُ عِيسَىٰ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً» وَلِلطَّبَرَانِيِّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغفل: «ينزل عِيسَىٰ ابن مَرْيَمَ مُصَدِّقًا بِمُحَمَّدٍ عَلَىٰ مِلَّتِهِ»)(١).

---

(١) فتح الباري، ابن حجر، (٦/ ٤٩١).

فالمسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يكون إمامًا للمسلمين، وخليفةً لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في آخر الزمان يسوس المسلمين بشرع الله عَزَّوَجَلَّ، وقد مرّ في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ عند الطبراني في «الأوسط» و«الصغير» أنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أَلَا إِنَّ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ وَلَا رَسُولٌ، أَلَا إِنَّهُ خَلِيفَتِي فِي أُمَّتِي بَعْدِي...»، وتشهد لمعناه أحاديث «الصحيحين»، والله أعلم.

قال العلامة السفاريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لا يخفى أنه لا يحسن أن يقال: إن هذا الأمر في أيام عيسى يكون للمهدي، مع كون عيسى رسولًا من أولي العزم معصومًا، والمهدي رجل مجتهد، نعم يكون المهدي من خواصّ السيد عيسى بل وزيره والمقرب إليه يراجعه في الأمور وتصدر عنه الشورى وبالله التوفيق)(١).

٢-وضع الجزية والحرب:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قَوْلُهُ: «وَيَضَعُ الحَرْبَ» فِي رِوَايَةِ الكُشْمِيهَنِيِّ: «الجِزْيَةَ»، وَالمَعْنَىٰ أَنَّ الدِّينَ يَصِيرُ وَاحِدًا، فَلَا يَبْقَىٰ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ يُؤَدِّي الجِزْيَةَ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنَّ المَالَ يَكْثُرُ حَتَّىٰ لَا يَبْقَىٰ مَنْ يُمْكِنُ صَرْفُ مَالِ الجِزْيَةِ لَهُ فَتُتْرَكُ الجِزْيَةُ اسْتِغْنَاءً عَنْهَا، وَقَالَ عِيَاضٌ: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ المُرَادُ بِوَضْعِ الجِزْيَةِ تَقْرِيرَهَا عَلَىٰ الكُفَّارِ مِنْ غَيْرِ مُحَابَاةٍ، وَيَكُونُ كَثْرَةُ المَالِ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وتعقبه النَّوَوِيُّ وَقَالَ: الصَّوَابُ أَنَّ عِيسَىٰ لَا يَقْبَلُ إِلَّا الإِسْلَامَ، قُلْتُ: وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ عِنْدَ أَحْمَدَ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: «وَتَكُونُ الدَّعْوَىٰ وَاحِدَةً»، قَالَ النَّوَوِيُّ: وَمَعْنَىٰ وَضْعِ عِيسَىٰ الجِزْيَةَ مَعَ أَنَّهَا مَشْرُوعَةٌ فِي هَذِهِ الشَّرِيعَةِ أَنَّ مَشْرُوعِيَّتَهَا مُقَيَّدَةٌ بِنُزُولِ عِيسَىٰ؛ لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ هَذَا الخَبَرُ، وَلَيْسَ عِيسَىٰ بِنَاسِخٍ لِحُكْمِ الجِزْيَةِ، بَلْ نَبِيُّنَا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هُوَ المُبَيِّنُ للنسخ بقوله هَذَا.

(١) لوامع الأنوار البهية، السفاريني (٢/ ٩٦).

قَالَ ابن بَطَّالٍ: وَإِنَّمَا قَبِلْنَاهَا قَبْلَ نُزُولِ عِيسَىٰ لِلْحَاجَةِ إِلَىٰ المَالِ بِخِلَافِ زَمَنِ عِيسَىٰ، فَإِنَّهُ لَا يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَىٰ المَالِ، فَإِنَّ المَالَ فِي زَمَنِهِ يَكْثُرُ حَتَّىٰ لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ مَشْرُوعِيَّةَ قَبُولِهَا مِنَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ لِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْ شُبْهَةِ الكِتَابِ وَتَعَلُّقِهِمْ بِشَرْعٍ قَدِيمٍ بِزَعْمِهِمْ، فَإِذَا نَزَلَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ زَالَتِ الشُّبْهَةُ بِحُصُولِ مُعَايَنَتِهِ فَيَصِيرُونَ كَعَبَدَةِ الأَوْثَانِ فِي انْقِطَاعِ حُجَّتِهِمْ وَانْكِشَافِ أَمْرِهِمْ، فَنَاسَبَ أَنْ يُعَامَلُوا مُعَامَلَتَهُمْ فِي عَدَمِ قَبُولِ الجِزْيَةِ مِنْهُمْ، هَكَذَا ذَكَرَهُ بَعْضُ مَشَايِخِنَا احْتِمَالًا، وَاللهُ أَعْلَمُ)(١).

وقال الإمام الطحاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: (... المال إذا عاد في الناس إلىٰ أن صار لا يقبله أحد صاروا بذلك جميعًا أغنياء وذهب الفقر والمسكنة وجميع الوجوه التي جعل الله الصدقة لأجلها بقوله تعالىٰ «إنما الصدقات للفقراء والمساكين....» إلىٰ قوله: «وابن السبيل»، فلم يكن للزكاة أهل يوضع فيهم، وإذا كان ذلك سقط فرضها وكذلك الجزية)(٢).

رفع إشكال: قد يشكل علىٰ البعض وضع عيسىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للجهاد وللجزية، وذلك أن الله أكمل الدين، ولا نَسْخَ بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والجواب عن هذا الإشكال مضمَّنٌ فيما مضىٰ من كلام أهل العلم وخلاصته، أنه إما أن يقال بأن سقوط الجهاد والجزية لأن الدين يصير واحدًا ويصير الناس كلهم مسلمين، وأن المال يفيض حتىٰ لا يكون بالناس إليه حاجة، أوْ لا يبقىٰ لأهل الكتاب شبهة فلا تقبَل منهم الجزية، وعلىٰ القول بأن هذا نسخ للشرع المتقرر، فالمبيّن للنسخ والدالّ عليه هو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو المخبر به، وعيسىٰ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر، (٦/ ٤٩١، ٤٩٢).

(٢) شرح مشكل الآثار، الطحاوي، تحقيق الأرناؤوط، ط. مؤسسة الرسالة، (١/ ١٠٠).

صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يعمل به في وقته، وتكون مَشْرُوعِيةُ الجزية مُقَيَّدَةً بِنُزُولِ عِيسَىٰ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ هَذَا الحديث، وَلَيْسَ عِيسَىٰ بِنَاسِخٍ لِحُكْمِ الجِزْيَةِ والله أعلم، ويأتي في المبحث القادم مزيدُ بيانٍ إن شاء الله.

بأي شرع يحكم المسيح عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ؟

مَرَّ في المبحث السابق تنبيه علىٰ جواب هذا السؤال الذي قد يَرِد عند الكلام عن وضع الجزية أو الحرب وقتل الخنزير وكسر الصليب، فإن محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هو آخر الأنبياء والمرسلين، وإنما يكون عيسىٰ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إذا نزل حاكمًا بشرع الله الموحىٰ به إلىٰ محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، والأحاديث التي أخبرت بهذه الأمور هي تقريرٌ لهذا النسخ كما مر في كلام النووي وابن كثير رَحِمَهُمَاٱللَّهُ.

روىٰ الإمام مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم» بلفظ آخر وهو «فأمّكم منكم» قال ابن أبي ذئب: تدري ما «أمّكم منكم؟» قلت: تخبرني؟ قال: فأمَّكم بكتاب ربكم وسنة نبيكم صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

قال القرطبي رَحِمَهُٱللَّهُ: (فعيسىٰ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إنما ينزل مقرِّرًا لهذه الشريعة ومجدِّدًا لها، إذْ هي آخر الشرائع، ومحمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ آخر الرسل، فينزل حكمًا مقسطًا...)(١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: (فَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ، وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَضَعُ الجِزْيَةَ، فَلَا يَقْبَلُ إِلَّا الإِسْلَامَ كَمَا تَقَدَّمَ فِي «الصحيحين»، وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بِذَلِكَ، وَتَقْرِيرٌ وَتَشْرِيعٌ وَتَسْوِيغٌ لَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، حَيْثُ تَنْزَاحُ عِلَلُهُمْ،

---

(١) التذكرة في أحوال الموتىٰ وأمور الآخرة، القرطبي، ط. دار المنهاج، (ص١٣٠٢).

وَتَرْتَفِعُ شُبَهُهُم مِنْ أَنْفُسِهِمْ؛ وَلِهَذَا كُلُّهُمْ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ الإِسْلَامِ مُتَابَعَةً لِعِيسَىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، وَعَلَىٰ يَدَيْهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩]، وَهَذِهِ الآيَةُ كَقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزُّخرُف: ٦١]، وَقُرِئَ: (عَلَمٌ) بِالتَّحْرِيكِ، أَيْ إِشَارَةٌ وَدَلِيلٌ عَلَىٰ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ يَنْزِلُ بَعْدَ خُرُوجِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ، فَيَقْتُلُهُ اللهُ عَلَىٰ يَدَيْهِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: «إِنَّ اللهَ لَمْ يَخْلُقْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً»، وَيَبْعَثُ اللهُ فِي أَيَّامِهِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، فَيُهْلِكُهُمُ اللهُ بِهِ بِبَرَكَةِ دُعَائِهِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦- ٩٧] الآيَةَ)(١).

وقال الزمخشري رَحِمَهُٱللَّهُ في تفسير قول الله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠]: (وخاتم بفتح التاء بمعنىٰ الطابع، وبكسرها بمعنىٰ الطابع وفاعل الختم، وتقوّيه قراءة ابن مسعود: (ولكنّ نبيًّا ختمَ النبيين)، فإن قلتَ: كيف كان آخرَ الأنبياء وعيسىٰ ينزل في آخر الزمان؟ قلت: معنىٰ كونه آخر الأنبياء أنه لا ينبأ أحد بعده، وعيسىٰ ممن نبئ قبله، وحين ينزلُ، ينزلُ عاملًا علىٰ شريعة محمد، مصليًا إلىٰ قبلته، كأنه بعض أمّته)(٢).

وقال العلامة الآلوسي رَحِمَهُٱللَّهُ: (ثم إنه عَلَيْهِٱلسَّلَامُ حين ينزل باقٍ علىٰ نبوته السابقة لم يعزل عنها، قال: لكنه لا يتعبد بها لنسخها في حقه وحق غيره وتكليفه

(١) تفسير القرآن العظيم، (٢/ ٤٦٤، ٤٦٥).

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جار الله، أبو القاسم الزمخشري، ط. دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٠٧، (٣/ ٥٤٤، ٥٤٥).

بأحكام هذه الشريعة أصلًا وفرعًا، فلا يكون إليه عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ وحي ولا نصب أحكام بل يكون خليفةً لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وحاكمًا من حكام ملته بين أمته)(١).

وقال العلامة السفاريني رَحِمَهُٱللَّهُ: (وقد انعقد الإجماع أنه ينزل ويحكم بهذه الشريعة المحمدية وليس ينزل بشريعة مستقلة عند نزوله من السماء، وإن كانت النبوة قائمة به وهو متَّصِفٌ بها، ويتسلم الأمر من المهدي ويكون المهديُّ من أصحابه وأتباعه)(٢)، وقال رَحِمَهُٱللَّهُ: (ويكون مقررًا لشريعة نبينا محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لا أنه رسول لهذه الأمة كما مر)(٣).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: (قَوْلُهُ: «كَيْفَ أَنْتُمْ إِذا نزل ابن مَرْيَمَ فِيكُمْ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ...» وَقَدْ أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ طَرِيق بن أبي ذِئْب عَن ابن شِهَابٍ بِلَفْظِ: «وَأَمَّكُمْ مِنكُمْ»، قَالَ الوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ: فَقُلْتُ لِابْنِ أَبِي ذِئْبٍ: إِنَّ الْأَوْزَاعِيَّ حَدَّثَنَا عَنِ الزُّهْرِيِّ فَقَالَ: «وَإِمَامُكُمْ مِنكُمْ»، قَالَ ابن أَبِي ذِئْبٍ: أَتَدْرِي مَا «أَمَّكُمْ مِنكُمْ»؟ قُلْتُ: تُخْبِرُنِي، قَالَ: فَأَمَّكُمْ بِكِتَابِ رَبِّكُمْ، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ من رِوَايَة ابن أَخِي الزُّهْرِيِّ عَنْ عَمِّهِ بِلَفْظِ: «كَيْفَ بِكُمْ إِذا نزل فِيكُم ابن مَرْيَمَ فَأَمَّكُمْ».

وَعِنْدَ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ فِي قِصَّةِ الدَّجَّالِ وَنُزُولِ عِيسَىٰ: «وَإِذَا هُمْ بِعِيسَىٰ فَيُقَالُ: تَقَدَّمَ يَا رُوحَ اللهِ، فَيَقُولُ: لِيَتَقَدَّمْ إِمَامُكُمْ فَلْيُصَلِّ بِكُمْ»، وَلِابْنِ مَاجَهْ فِي حَدِيثِ أَبِي أُمَامَةَ الطَّوِيلِ فِي الدَّجَّالِ قَالَ: «وَكُلُّهُمْ أَي الْمُسْلِمُونَ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥، (١١/ ٢١٣).

(٢) لوامع الأنوار البهية، السفاريني، (٢/ ٩٥) ط. مؤسسة الخافقين- دمشق.

(٣) لوامع الأنوار البهية، (٢/ ٩٥).

وَإِمَامُهُمْ رَجُلٌ صَالِحٌ قَدْ تَقَدَّمَ لِيُصَلِّيَ بِهِمْ إِذْ نَزَلَ عِيسَىٰ فَرَجَعَ الإِمَامُ يَنْكُصُ لِيَتَقَدَّمَ عِيسَىٰ فَيَقِفُ عِيسَىٰ بَيْنَ كَتِفَيْهِ ثُمَّ يَقُولُ: تَقَدَّمْ فَإِنَّهَا لَكَ أُقِيمَتْ»، وَقَالَ أَبُو الحَسَنِ الخَسْعِيُّ الآبِدِيُّ(١) فِي «مَنَاقِبِ الشَّافِعِيِّ»: تَوَاتَرَتِ الأَخْبَارُ بِأَنَّ المَهْدِيَّ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَأَنَّ عِيسَىٰ يُصَلِّي خَلْفَهُ ذَكَرَ ذَلِكَ رَدًّا لِلْحَدِيثِ الَّذِي أخرجه بن مَاجَهْ عَنْ أَنَسٍ وَفِيهِ: «وَلَا مَهْدِيَّ إِلَّا عِيسَىٰ».

وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ الهَرَوِيُّ: حَدَّثَنَا الجَوْزَقِيُّ عَنْ بَعْضِ المُتَقَدِّمِينَ قَالَ: مَعْنَىٰ قوله: «وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ» يَعْنِي أَنَّهُ يَحْكُمُ بِالْقُرْآنِ لَا بِالإِنْجِيلِ، وَقَالَ ابن التِّينِ: مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: «وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ» أَنَّ الشَّرِيعَةَ المُحَمَّدِيَّةَ مُتَّصِلَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ وَأَنَّ فِي كُلِّ قَرْنٍ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ، وَهَذَا وَالَّذِي قَبْلَهُ لَا يُبَيِّنُ كَوْنَ عِيسَىٰ إِذَا نَزَلَ يَكُونُ إِمَامًا أَوْ مَأْمُومًا، وَعَلَىٰ تَقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ عِيسَىٰ إِمَامًا فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يَصِيرُ مَعَكُمْ بِالجَمَاعَةِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، قَالَ الطِّيبِيُّ: المَعْنَىٰ: يَؤُمُّكُمْ عِيسَىٰ حَالَ كَوْنِهِ فِي دِينِكُمْ وَيُعَكِّرُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ فِي حَدِيثٍ آخَرَ عِنْدَ مُسْلِمٍ: «فَيُقَالُ لَهُ: صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ: لَا إِنْ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةً لِهَذِهِ الأمة»، وَقَالَ ابن الجَوْزِيِّ: لَوْ تَقَدَّمَ عِيسَىٰ إِمَامًا لَوَقَعَ فِي النَّفْسِ إِشْكَالٌ وَلَقِيلَ: أَتُرَاهُ تَقَدَّمَ نَائِبًا أَوْ مُبْتَدِئًا شَرْعًا؟ فَصَلَّىٰ مَأْمُومًا لِئَلَّا يَتَدَنَّسَ بِغُبَارِ الشُّبْهَةِ وَجْهُ قوله: «لَا نَبِيَّ بَعْدِي»، وَفِي صَلَاةِ عِيسَىٰ خَلْفَ رَجُلٍ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ مَعَ كَوْنِهِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ وَقُرْبِ قِيَامِ السَّاعَةِ دَلَالَةٌ لِلصَّحِيحِ مِنَ الأَقْوَالِ أَنَّ الأَرْضَ لَا تَخْلُو عَنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ، وَاللهُ أعلم)(٢).

---

(١) تصحيف عجيب، وسبق التنبيه عليه في الفصل الأول من الباب الرابع، وإنما هو أبو الحسن الآبري السجزي (السجستاني).

(٢) فتح الباري، ابن حجر، (٦/ ٤٩٤، ٤٩٣).

وقال العلامة المحدث أنور شاه الكشميري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قوله: «يَضَعَ الجِزْيَةَ»، وهذا تشريعٌ من النبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لزمنه: ألا يكونَ فيه إلا الإسلام، أو السيف، فلا يَلْزَمُ النسخ، ثم الدنيا لمَّا كانت في زمنه على شرف الزوال، نَاسَبَ أن تَسْقُطَ الجِزْيَةُ، ولا يبقىٰ إلا الإسلام، أو السيف. ومن ههنا تبيَّن الحكمة في نزول عيسىٰ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، ووظائفه التي يَنْزِلُ لها، وحاصلُه: أنه لا يَنْزِلُ بوظائف النبوة، ولا يَلْزَمُهُ سلب النبوة عنه، فإنه كان رسولا إلىٰ بني إسرائيل بالنصِّ، ونزولُهُ فينا كدخول يعقوب عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ مصر في نبوة يوسف عَلَيْهِٱلسَّلَامُ)(١).

٣-كسر الصليب وقتل الخنزير: والعناية بالصليب وتوقيره الذي قد يصل إلىٰ حد العبادة هو شعار النصارىٰ، وأكل لحم الخنزير شعار عمليٌّ لهم.

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقلًا عن المهلب: (وإنما قصد إلىٰ كسر الصليب وقتل الخنزير من أجل أنهما في دين النصارىٰ المغترّين المعتدين في شريعتهم إليه، فأخبر النبي أن عيسىٰ سيغير ما نسبوه إليه كما غيره محمدٌ وأعلمهم أنهم علىٰ الباطل في ذلك، فدل هذا أن عيسىٰ يأتي بتصحيح شريعة محمد حاكمًا بالعدل بين أهلها)(٢).

وقال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قَوْلُهُ: «فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ» أَيْ يُبْطِلُ دِينَ النَّصْرَانِيَّةِ بِأَنْ يَكْسِرَ الصَّلِيبَ حَقِيقَةً وَيُبْطِلُ مَا تَزْعُمُهُ النَّصَارَىٰ مِنْ تَعْظِيمِهِ)(٣).

---

(١) فيض الباري علىٰ صحيح البخاري، محمد أنور شاه الكشميري، تحقيق: محمد بدر عالم الميرتهي، ط. دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٦، (٣/ ٤٩٠).

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال، تحقيق: أبي تميم ياسر بن إبراهيم، ط. مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٣، (٦/ ٦٠٥، ٦٠٤).

(٣) فتح الباري، ابن حجر، (٦/ ٤٩١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قَوْلُهُ: «وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ» أَيْ يَأْمُرُ بِإِعْدَامِهِ مُبَالَغَةً فِي تَحْرِيمِ أَكْلِهِ، وَفِيهِ تَوْبِيخٌ عَظِيمٌ لِلنَّصَارَىٰ الَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ طَرِيقَةِ عِيسَىٰ ثُمَّ يَسْتَحِلُّونَ أَكْلَ الخِنْزِيرِ وَيُبَالِغُونَ فِي مَحَبَّتِهِ)(١).

٤- الدعوة إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ: ظاهرٌ من الأحاديث السابقة أن المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ يدعو الناس إلىٰ الإسلام ولا يقبل منهم غيره، حتىٰ تصير دعوىٰ الناس واحدة ولا يبقىٰ علىٰ الأرض كافرٌ بالله، بل إن مَن وَجَدَ منهم نَفَسَ المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ فإنه يموت.

ففي حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عند أحمد وصححه الحافظ: «الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتىٰ ودينهم واحد، وأنا أولىٰ الناس بعيسىٰ ابن مريم، لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجلًا مربوعًا إلىٰ الحمرة والبياض عليه ثوبان ممصران، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويدعو الناس إلىٰ الإسلام فيهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام...».

وفي حديث النواس بن سمعان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «ذكر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الدجال ذات غداة... فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعًا كفيه علىٰ أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ فلا يحلُّ لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه...» وهو في «صحيح مسلم».

وفي حديث أبي هريرة عند أبي داود: «... فيقاتل الناس علىٰ الإسلام فيدقّ الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام..»

(١) فتح الباري، ابن حجر، (٤/ ٤١٤).

وصححه الحافظ، وهذه الرواية ترجح رواية: «ويضع الجزية»، وقد يكون وضع الحرب عندما تصير العوىٰ واحدة بعد هلاك الكفار وهذا ظاهرٌ، والله أعلم.

٥- قتل المسيح الدجال:

فتنة المسيح الدجال لعنه الله فتنةٌ عظيمة يهلك بسببها كثيرٌ من الناس، وتكون نهاية هذه الفتنة علىٰ يدي مسيح الهدىٰ عيسىٰ ابن مريم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، إذْ يقتل الدجالَ بيده ويقاتل جنودَه بمن معه من المؤمنين فيخزي الله أتباع الدجال ويهزمهم، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عند أحمد في «مسنده»: «... فيهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال...».

وفي حديث النواس بن سمعان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عند مسلم في «صحيحه»: «ذَكر رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الدجال ذات غداة فخفَّض فيه ورفَّع حتىٰ ظنناه في طائفة النخل، فانصرفنا من عند رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ثم رُحْنا إليه فعرفَ ذلك فينا، فقال: ما شأنكم؟ فقلنا: يا رسول الله، ذكرتَ الدجال غداةً فخفضت فيه ورفعت حتىٰ ظنناه في طائفة النخل، فقال: «غير الدجال أخوفني عليكم، إنْ يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه، وإن يخرج ولستُ فيكم فامرؤٌ حجيجُ نفسه واللهُ خليفتي علىٰ كل مسلم، إنه شابٌ قطط، عينُه طافئة، كأني أشبّهه بعبد العزي بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارجٌ خَلَّةً بين الشام والعراق، فعاث يمينًا وعاث شِمالًا، يا عباد الله فاثبتوا».

قلنا: يا رسول الله: وما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعون يومًا، يومٌ كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم» قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «لا، اقدروا له قدره» قلنا: يا رسول الله، وما إسراعُه في الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح، فيأتي علىٰ القوم فيدعوهم

فيؤمنون به، ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت فتروح عليهم سارحتُهم أطولَ ما كانت ذُرًىٰ وأسبَغه ضروعًا وأَمَدَّه خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم، فيردُّون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون مُمْحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمرُّ بالخَرِبة فيقول لها: أخرجي كنوزكِ، فتتبعه كيعاسيب النحل.

ثم يدعو رجلًا شابًّا ممتلئًا شبابًا فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتَيْن رميةَ الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك، فبينما هو كذلك إذْ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعًا كفيه علىٰ أجنحة ملَكين، إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جُمَان كاللؤلؤ، فلا يحلُّ لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات، ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طرفُه، فيطلبه حتىٰ يدركه بباب لُدّ فيقتله، ثم يأتي عيسىٰ قومٌ قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم ويحدّثهم بدرجاتهم في الجنة..».

وفي «صحيح مسلم» أيضًا من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين، لا أدري أربعين يومًا أو أربعين شهرًا أو أربعين عامًا، فيبعث الله عيسىٰ ابن مريم كأنه عروة بن مسعود، فيطلبه فيهلكه ثم يمكث الناسُ سبعَ سنين ليس بين اثنين عداوة...».

وفي «صحيحه» أيضًا من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لا تقوم الساعة حتىٰ ينزل الروم بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ... فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علَّقوا سيوفهم بالزيتون إذْ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم فيخرجون، وذلك باطل، فإذا جاءوا الشام خرج، فبينما هم يعدّون للقتال، يسوون الصفوف، إذْ أقيمت الصلاة، فينزل عيسىٰ ابن مريم، فأمَّهم، فإذا رآه عدو الله ذاب

كما يذوب المِلح في الماء، فلو تركه لانذاب حتىٰ يهلك، ولكن يقلته الله بيده فيريهم دمه في حربته» رواه مسلم.

وعن مجمع بن جارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «يقتل ابنُ مريم الدجالَ بباب لُدّ» رواه أحمد والترمذي وقال الترمذي: هذا حديث صحيح، وصححه السيوطي.

فالدجال لعنه الله يخرج بين الشام والعراق ويعيث في الأرض فسادًا ويدركه المسيح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند باب لُدّ بفلسطين فيقتله، ويريح المسلمين من شره وفتنته التي قال فيها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظمَ من فتنة الدجال وإن الله لم يبعث نبيًّا إلا حذَّرَ أمته الدجال، وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة، وإن يخرج وأنا بين ظهرانيكم فأنا حجيجٌ لكل مسلم، وإن يخرج من بعدي فكلُّ حجيج نفسه والله خليفتي في كل مسلم، وإنه يخرج من خلةٍ بين الشام والعراق فيعيث يمينًا ويعيث شمالًا، يا عباد الله فاثبتوا، فإني سأصفه لكم صفةً لم يصفها إياه نبي قبلي، إنه يبدأ فيقول: أن نبي، ولا نبي بعدي، ثم يثنّي ويقول أنا ربكم، ولا ترون ربكم حتىٰ تموتوا، وإنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وإنه مكتوب بين عينيه كافر يقرأه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب، وإن من فتنته أن معه جنةً ونارًا، فناره جنة وجنته نار، فمن ابتُلي بناره فليستغث بالله وليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه بردًا وسلامًا كما كانت النار علىٰ إبراهيم...» الحديث بطوله، وهو من حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو في سنن ابن ماجه بسند قوي، ونحوه عند أبي داود وسنده صحيح.

٦- إهلاك يأجوج ومأجوج بدعائه، وإحراز المسلمين إلىٰ الطور:

ويأجوج ومأجوج هم القوم المفسدون في الأرض الذين بنىٰ ذو القرنين السدَّ ليحجز شرهم عمن جاورهم، رحمةً من الله للخلق، وجعل الله خروجهم في آخر الزمان بعد نقبهم السدّ من علامات الساعة.

قال الله تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٩٦- ٩٧].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ينسلون أي يسرعون في المشي بالفساد.

وقال الله تعالىٰ: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾ [الكهف: ٩٨- ٩٩].

وفي حديث النواس بن سمعان: «ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فيه وَرَفَّعَ، حتَّىٰ ظَنَنَّاهُ في طَائِفَةِ النَّخْلِ... ثُمَّ يَأْتِي عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ قَوْمٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللهُ منه، فَيَمْسَحُ عن وُجُوهِهِمْ وَيُحَدِّثُهُمْ بدَرَجَاتِهِمْ في الجَنَّةِ. فَبَيْنَما هو كَذلكَ إِذْ أَوْحَىٰ اللهُ إلىٰ عِيسَىٰ: إنِّي قدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي، لا يَدَانِ لأَحَدٍ بقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إلىٰ الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهُمْ مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ علَىٰ بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ ما فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فيَقولونَ: لَقَدْ كانَ بهذِه مَرَّةً مَاءٌ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ، حتَّىٰ يَكونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِن مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمُ اليَومَ.

فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ، فيُرْسِلُ اللهُ عليهمُ النَّغَفَ في رِقَابِهِمْ، فيُصْبِحُونَ فَرْسَىٰ كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ إلىٰ

الأَرْضِ، فلا يَجِدُونَ في الأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللهِ عِيسَىٰ وَأَصْحَابُهُ إِلَىٰ اللهِ، فَيُرْسِلُ اللهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ البُخْتِ، فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللهُ. ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ مَطَرًا لا يُكِنُّ منه بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ: أَنْبتي ثَمَرَتَكِ، وَرُدِّي بَرَكَتَكِ، فَيَوْمَئِذٍ تَأْكُلُ العِصَابَةُ مِنَ الرُّمَّانَةِ، وَيَسْتَظِلُّونَ بِقِحْفِهَا، وَيُبَارَكُ فِي الرِّسْلِ، حَتَّىٰ أَنَّ اللِّقْحَةَ مِنَ الإِبِلِ لَتَكْفِي الفِئَامَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ البَقَرِ لَتَكْفِي القَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ، وَاللِّقْحَةَ مِنَ الغَنَمِ لَتَكْفِي الفَخِذَ مِنَ النَّاسِ.

فَبَيْنَما هُمْ كَذلكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَكُلِّ مُسْلِمٍ، وَيَبْقَىٰ شِرَارُ النَّاسِ، يَتَهَارَجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الحُمُرِ، فَعليهم تَقُومُ السَّاعَةُ. وفي رواية: لَقَدْ كانَ بهذه مَرَّةً مَاءٌ، ثُمَّ يَسِيرُونَ حَتَّىٰ يَنْتَهُوا إِلَىٰ جَبَلِ الخَمَرِ -وهو جَبَلُ بَيْتِ المَقْدِسِ- فيَقولونَ: لَقَدْ قَتَلْنَا مَن في الأَرْضِ، هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ مَن في السَّمَاءِ، فَيَرْمُونَ بنُشَّابِهِمْ إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَيَرُدُّ اللهُ عليهم نُشَّابَهُمْ مَخْضُوبَةً دَمًا»، والحديث بطوله في «صحيح مسلم».

قال أبو العَبَّاس القُرطُبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (النَّغفُ -جَمعُ نَغفةً- وهو بفَتحِ النُّونِ والغين المُعْجَمةِ، وهيَ دودٌ يَكونُ في أنوفِ الإبِلِ والغَنَمِ، وهيَ وإن كانت مُحتَقَرةً، فإتلافُها شَديدٌ، ويُقالُ للرَّجُلِ الحَقيرِ: ما أنت إلَّا نَغفةٌ، وقَولُه: «فيُصبِحونَ فَرْسَىٰ» أي: هَلْكَىٰ قَتْلىٰ، من فرَسَ الذِّئبُ الشَّاةَ: إذا قَتَلَها، والفَريسةُ مِنه، والزَّهَمُ، بفَتحِ الهاءِ: النَّتْنُ والرَّائِحةُ الكَريهةُ، وأصلُه: ما يَعلَقُ باليَدِ من ريحِ اللَّحمِ، والبُختُ: إبِلٌ غِلاظُ الأعناقِ، عِظامُ الأسنامِ، وقَولُه: «لا يُكِنُّ مِنه بَيتُ مَدرٍ، ولا وَبر» أي: لا يَستُر من ذلك المَطَرِ لكَثرَتِه بَيتٌ مَبنيٌّ بالطِّينِ، ولا بَيتُ شَعرٍ ولا وَبَر، وقَولُه: «حَتَّىٰ يَترُكَها كالزَّلَفةِ» الرِّوايةُ بفَتحِ الزَّايِ واللَّامِ، وقيدتُه بالفاءِ والقافِ مَعًا، وكَذلك رُوِيَ

عَنِ الأسديِّ، وزادَ فتحَ اللَّامِ وسُكونَها، فبِالقافِ: هيَ الأرضُ المَلساءُ الَّتي لا شَيءَ فيها، ومِنه قَولُه: فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا وبِالفاءِ: هيَ المَصنعةُ المُمتَلِئةُ)(١).

وقال النَّوويُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: («فيَغسِلُ الأرضَ حَتَّىٰ يَترُكَها كالزَّلَقةِ» رُوِيَ بفَتحِ الزَّايِ واللَّامِ والقافِ، ورُوِيَ الزُّلْفةِ بضَمِّ الزاي وإسكانِ اللَّامِ وبِالفاءِ، ورُوِيَ الزَّلَفَةُ بفَتحِ الزَّايِ واللَّامِ وبِالفاءِ، وقال القاضي: رُوِيَ بالفاءِ والقافِ، وبِفَتحِ اللَّامِ وبِإسكانِها، وكُلُّها صَحيحةٌ، قال في «المَشارِقِ»: والزَّايُ مَفتوحةٌ، واختَلَفوا في مَعناه، فقال ثَعلَبٌ وأبو زيدٍ وآخَرونَ: مَعناه كالمِرآةِ، وحَكىٰ صاحِبُ «المَشارِقِ» هذا عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ أيضًا شَبَّهَها بالمِرآةِ في صَفائِها ونَظافَتِها، وقيلَ: كمَصانِعِ الماءِ، أي: إنَّ الماءَ يَستَنقِعُ فيها حَتَّىٰ تَصيرَ كالمَصنَعِ الذي يَجتَمِعُ فيه الماءُ، وقال أبو عُبيدٍ: مَعناه كالإجَّانةِ الخَضراءِ، وقيلَ: كالصَّحفةِ، وقيلَ: كالرَّوضةِ)(٢).

وعن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في حديث: «لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ فتذاكروا أمر الساعة...» وفيه: «...فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطؤون بلادهم لا يأتون علىٰ شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون علىٰ ماء إلا شربوه، قال: ثم يرجع الناس إليّ يشكونهم فأدعو الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتىٰ تجوىٰ الأرض من نتن ريحهم وينزل الله المطر فيجترف أجسادهم حتىٰ يقذفها في البحر، ففيما عهد إليّ ربي أن ذلك إذا كان

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، أبو العباس القرطبي، تحقيق: محيي الدين مستو وآخرين، ط. دار ابن كثير، دمشق، ودار الكلم الطيب، دمشق، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٧، (٧/ ٢٨٥).

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢، (١٨/ ٦٩).

كذلك أن الساعة كالحامل المتمّ لا يدري أهلها متىٰ تفجؤهم بولادها ليلًا أو نهارًا». والحديث رواه أحمد وابن أبي شيبة وابن ماجه، و(والأحاديث في ذلك كثيرة جدًّا والآثار عن السلف كذلك) كما قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وعَن النَّواسِ بن سَمعانَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «سيُوقِدُ المسلمونَ منْ قِسِيِّ يأجوجَ ومأجوجَ ونشَّابِهِمْ وأَتْرِسَتِهِمْ سبعَ سنينَ»، رواه ابن ماجه، وصحَّحه العلامة الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه»، وهذا يدلّ علىٰ كثرة ما يكون معهم من السلاح لكثرة عددهم.

٧- الحج والعمرة:

روىٰ البخاري في «صحيحه» من حديث أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَيُحَجَّنّ هذا البيت ولَيُعتَمَرَنَّ بعد خروج يأجوج ومأجوج».

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «والذي نفسي بيده ليهلن ابنُ مريم بِفَجّ الروحاء حاجًّا أو معتمرًا أو ليثنّيهما». وفي رواية أحمد: «...فينزل الروحاء فيحج أو يعتمر أو يجمعهما»، وفجّ الروحاء مكان بين المدينة وبدر.

والحجّ إلىٰ بيت الله من هدي الأنبياء، فعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صلىٰ في مسجد الخَيف سبعون نبيًّا، منهم موسىٰ، كأني أنظر إليه وعليه عباءتان قَطوانيتان وهو مُحْرِمٌ علىٰ بعيرٍ من إبلِ شَنوءة مخطومٍ بخطام ليف، له ضفيرتان». رواه الطبراني في «معجمه الكبير» وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»، وعن أبي موسىٰ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لقد مَرَّ بالروحاء سبعون نبيًّا فيهم نبي الله موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حُفَاة

عليهم العَباء، يَؤُمُّون بيتَ الله العتيق». رواه الطبراني وأبو يعلىٰ وقال المنذري: ولا بأس بإسناده في المتابعات.

وحجُّ المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ سيكون بعد نزوله من السماء وقتله الدجال، قال النووي رَحِمَهُٱللَّهُ في شرح حديث مسلم: (وهذا يكون بعد نزول عيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ من السماء في آخر الزمان).

وحديث: «والذي نفسي بيده ليهلن ابنُ مريم بِفَجّ الروحاء حاجًّا أو معتمرًا أو ليثنّيهما» الذي رواه مسلم، رواه أيضًا ابنُ حبان في «صحيحه» وبوب له بقوله: (ذكر الإخبار بأن عيسىٰ ابن مريم يحج البيت العتيق بعد قتله الدجال)، فحج عيسىٰ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يكون بعد نزوله كما مرَّ، ومما يؤيّد ذلك ما رُوِيَ من زيارته لقبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وسلامه عليه.

وأما حجُّ بقية الأنبياء ففي حياتهم لكنه مُثِّلَ للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، كما في «صحيح مسلم» من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مَرَّ بوادي الأزرق فقال: أي وادٍ هذا؟ فقالوا: هذا وادي الأزرق، قال: «كأني أنظر إلىٰ موسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ هابطًا من الثنيّة، وله جؤار إلىٰ الله بالتلبية، ثم أتىٰ علىٰ ثنية هَرْشَىٰ فقال: أي ثنية هذه؟ قالوا: ثنية هرشىٰ، فقال: كأني أنظر إلىٰ يونس بن متىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ علىٰ ناقة حمراء جعدة عليه جبة من صوف خِطام ناقته خُلبة، وهو يلبي».

قال القاضي عياض رَحِمَهُٱللَّهُ: (فإن قيل: كيف يتوجه ما ذُكر من حجّهم وتلبيتهم وهم أموات، وفي الأخرىٰ، وليست دار عَمَلٍ، فاعْلَمْ -وفَقَكَ الله- أن للمشايخ وفيما ظهر لنا عن هذا أجوبة:

أحدها: أنا إذا قلنا: إنهم كالشهداء، بل هُم أفضلُ من الشهداء أحياء عند ربهم، فلا يبْعُدُ أن يحجُوا ويُصلوا كما ورد في الحديث الآخر(١)، وأن يتقربوا إلىٰ الله بما استطاعوا وكُتب لهم؛ لأنهم بعدُ وإن كانوا في الأخرىٰ فهم في هذه الدنيا التي هي دارُ العَمَل(٢)، حتىٰ إذا فنيت مُدَّتُها وأعقبتها الأخرىٰ التي هي دار الجزاء انقطع العمل.

والوجه الثاني: أن عمل الآخرة ذكر ودعاءٌ، قال الله تعالىٰ: «دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ»(٣).

الوجه الثالث: أن تكون هذه رؤية منام في غير ليلة الإسراء، أو في بعض ليلة الإسراء كما قال في رواية عبد الله بن عُمَر: «بينا أنا نائم رأيتني أطوف بالكعبة...» وذكر الحديث في قصَّة عيسىٰ.

الوجه الرابع: أنه صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أُرِىٰ حالهم قبل هذا ومُثِّلوا له في حال حياتهم وكيف تلبيتهم حينئذ وحجّهم كما قال في الحديث: «كأني أنظر إلىٰ موسىٰ، وكأني أنظرُ إلىٰ يونس، وكأني أنظر إلىٰ عيسىٰ».

الوجه الخامس: أن يكون أُخبر بتحقيق حال ما أوحىٰ إليه من أمرهم وما كان منهم، وإن لم يرهم رؤية عين، ويدل عليه قوله: «كأني أنظر» فصار يقينه بذلك كالمشاهدة)(٤).

---

(١) يشير إلىٰ حديث: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»، وقد رواه أبو يعلىٰ والبزار والبيهقي في جزء (حياة الأنبياء في قبورهم) وصححه، وفي «صحيح مسلم» أنه صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مرّ بموسىٰ عَلَيْهِالسَّلَامُ قائمًا في قبره يصلي.

(٢) هذا الوجه فيه نظر، ولو صحّ لكان عامًّا لكل الموتىٰ.

(٣) يعني أن في الآخرة عملًا وهو الذكر والدعاء، ولا دليل علىٰ انقطاع العمل بالكلية، والله أعلم.

(٤) إكمَالُ المُعْلِمِ بفَوَائِدِ مُسْلِم، القاضي عياض، تحقيق: الدكتور يحْيَىٰ إِسْمَاعِيل، ط. دار الوفاء -المنصورة- مصر، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٩، (١/ ٥١٦-٥١٨).

هل يزور المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قبرَ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟

روي عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «ليهبطن ابن مريم حكمًا عدلًا وإمامًا مقسطًا وليسلكن فَجًّا حاجًّا أو معتمرًا، وليأتين قبري حتىٰ يسلم عليّ ولأَرُدَّنَّ عليه»، قال أبو هريرة: أي بني أخي إذا رأيتموه فقولوا: أبو هريرة يقرئك السلام.

والحديث بهذا التمام رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي، ولكنْ تعقبهما العلامة الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ بقوله عن الحديث بهذه الزيادة: منكر بهذا التمام، وذكر أن فيه عللًا ثلاثًا وهي جهالة عطاء مولىٰ أم صُبَيَّة، وعنعنة محمد بن إسحاق، والاختلاف عليه في إسناده(١).

---

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، الألباني، (٣/ ٦٤٧، ٦٤٨)، الحديث رقم: (١٤٥٠).

الفصل الثالث

وفاة المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

المسيح صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بشر من البشر، من ذرية آدم التي قال الله عنهم لما أهبط أباهم إلىٰ الأرض: ﴿۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥]، فبنو آدم خلقوا من الأرض ويدفنون فيها ويبعثون منها، وقد بقي من عمر المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ذلك القدر الذي قُدِّر له أن يعيشه علىٰ الأرض بعد نزوله، فينزل ليعيش علىٰ الأرض ما بقي له من عمره ثم يموت ويُدفَن في الأرض لِيبعَثَ منها يوم القيامة كغيره من البشر.

كم يمكث المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في الأرض؟

وردت عدة أحاديث تدل علىٰ مدة بقاء المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في الأرض بعد نزوله من السماء.

فعن عَبْدَ اللهِ بنَ عَمْرٍو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قالَ رَسولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «يَخْرُجُ الدَّجَّالُ في أُمَّتي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ -لا أَدْرِي أَرْبَعِينَ يَوْمًا، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا، أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا- فَيَبْعَثُ اللهُ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بنُ مَسْعُودٍ، فَيَطْلُبُهُ فيُهْلِكُهُ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ، ليسَ بيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ رِيحًا بَارِدَةً مِن قِبَلِ الشَّأْمِ، فلا يَبْقَىٰ علَىٰ وَجْهِ الأرْضِ أَحَدٌ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِن خَيْرٍ أَوْ إيمَانٍ إلَّا قَبَضَتْهُ»، رواه مسلم في «صحيحه».

والحديث ليس صريحًا في أن هذه مدة بقاء المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ في الأرض، فاللفظ محتمل لأن يراد به أن هذه السبع هي مدة مكث الناس في الأرض بعد موت

المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، كما ورد في رواية عند مسلم، وعند أحمد: «ثم يلبث الناس بعده سبعًا ليس بين اثنين عداوة»، ورجحه البيهقي والسيوطي، ويحتمل أن يراد بها مدة بقاء الناس علىٰ هذه الصفة: (ليس بين اثنين عداوة).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «الأنبياء كلهم إخوة لِعَلَّات، أمهاتهم شتىٰ ودينهم واحد، وأنا أولىٰ الناس بعيسىٰ ابن مريم، إنه ليس بيني وبينه نبي، وإنه نازل، إذا رأيتموه فاعرفوه رجل مربوع إلىٰ الحمرة والبياض بين ممصرتين، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيقاتل الناسَ علىٰ الإسلام، فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، ويُهلك الله في زمانه المِلل كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجال، وتقع الأَمنة في الأرض حتىٰ ترتع الأُسد مع الإبل والنمار مع البقر والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم، فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفىٰ فيصلي عليه المسلمون صلوات الله عليه»(١)، ورواه الطبراني بلفظ: «ينزل عيسىٰ ابن مريم فيمكث في الناس أربعين سنة»(٢).

والحديثان كلاهما صريح في مكث المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ أربعين سنة، وهذا يوهم تعارضًا مع حديث عبد الله بن عمرو السابق، ولذا فقد اجتهد أهل العلم في رفع هذا التعارض الظاهر، واختلفوا في ذلك علىٰ أقوال:

---

(١) حديث صحيح علىٰ شرط مسلم، رواه أحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الحافظ في الفتح وقواه ابن كثير في البداية والنهاية بقوله (وهذا إسناد جيد قوي)، وصححه الألباني علىٰ شرط مسلم، في السلسلة الصحيحة (٢١٨٢).

(٢) قال الألباني: رواه الطبراني بسند جيد وله إسناد آخر صحيح رواه أبو داود، وانظر الضعيفة (٧٨١)، والصحيحة (٢١٨٢).

القول الأول: أن مدة مكث المسيح بعد نزوله سبعُ سنين، وأن المراد بلبثه في الأرض أربعين سنة هو مجموع إقامته فيها قبل رفعه وبعد نزوله، وأنه رفع وله ثلاث وثلاثون سنة، ويبقىٰ بعد نزوله سبعَ سنين، فهذه أربعون.

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تاريخه»: (وقع في هذا الحديث أنه يمكث في الأرض أربعين سنة وثبت في «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يمكث في الأرض سبع سنين، فهذا مشكل، اللهم إلا أن تُحْمَل هذه السبع علىٰ مدة إقامته بعد نزوله ويكون ذلك محمولًا علىٰ مكثه فيها قبل رفعه مضافًا إليه، وكان عمره قبل رفعه ثلاثًا وثلاثين سنة علىٰ المشهور، وهذه السبع تكملة الأربعين فيكون هذا مدة مقامه في الأرض قبل رفعه وبعد نزوله)(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيره»: (وقد تقدم في حديث عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة أن عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يمكث في الأرض بعد نزوله أربعين سنة ثم يتوفىٰ ويصلي عليه المسلمون، وفي حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم أنه يمكث سبع سنين فيحتمل -والله أعلم- أن يكون المراد بلبثه في الأرض أربعين سنة: مجموع إقامته فيها قبل رفعه وبعد نزوله، فإنه رفع وله ثلاث وثلاثون سنة في الصحيح(٢)، وقد ورد ذلك في حديث في صفة أهل الجنة أنهم علىٰ صورة آدم وميلاد عيسىٰ ثلاث وثلاثون سنة)(٣).

ولكنّ هذا الجمع يَرِدُ عليه ما ثبت من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: دخل عليَّ رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا أبكي فقال: ما يبكيك؟ قالت: يا رسول الله،

---

(١) البداية والنهاية، ط. هجر، ابن كثير، (١٩/ ٢٣١).

(٢) يعني الصحيح من الأقوال عنده، وهو القول الذي رجحه.

(٣) تفسير القرآن العظيم، (٢/ ٤٦٦).

ذكرتُ الدجال، قال: «فلا تبكين، فإن يخرج وأنا حيٌّ أكفيكموه، وإن مُتُّ فإن ربكم ليس بأعور، وإنه يخرج معه اليهود فيسير حتىٰ ينزل بناحية المدينة وهي يومئذٍ لها سبعة أبواب، علىٰ كل باب مَلَكان، فيخرج إليه شرارُ أهلها، فينطلق حتىٰ يأتي لُدّ، فينزل عيسىٰ ابن مريم فيقتله، ثم يلبث عيسىٰ في الأرض أربعين سنة أو قريبًا من أربعين سنة إمامًا عدلًا وحكمًا مقسطًا»(١).

فإن قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ثم يلبث عيسىٰ في الأرض أربعين سنة أو قريبًا من أربعين سنةً إمامًا عدلًا وحكمًا مقسطًا» صريح في أن الأربعين هي مدة حياته الثانية علىٰ الأرض قبل موته، ولذلك قال العلامة السفاريني رَحِمَهُٱللَّهُ: وَجَمَعَ بعضهم أن سيدنا عيسىٰ حين رُفع كان عمره ثلاثًا وثلاثين سنة وينزلُ سبعًا، فهذه أربعون سنة، وهذا والله أعلم ليس بشيء، لما مر من حديث عائشة عند الإمام أحمد وغيره: «فيقتل الدجال ثم يمكث عيسىٰ في الأرض أربعين سنة»)(٢).

وهذا الجمع منتقدٌ أيضًا من وجه آخر وهو أنه لا ذكر لمدة عيسىٰ وحياته الأولىٰ، في شيء من روايات الحديث، ولا مناسبة لها في سياقاته، حتىٰ يحمل عليها ذلك.

القول الثاني: أن مدة مكث المسيح بعد نزوله هي أربعون سنة علىٰ ظاهر الأحاديث، لكن هذه الأربعون يمكث منها سبعَ سنين مع المهدي، وهي المقصودة بحديث مسلم، ثم يبقىٰ بعد المهديّ ثلاثًا وثلاثين سنة، ويؤيده أن مدة

---

(١) رواه ابن حبان بسندٍ قوي، ورواه أحمد بنحوه ورجاله رجال الصحيح غير الحضرمي بن لاحق وهو ثقة.

(٢) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، شمس الدين، السفاريني الحنبلي، ط. مؤسسة الخافقين ومكتبتها - دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٢، (٢/ ٩٨، ٩٩).

بقاء المهديّ سبع سنين، كما في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «المهدي مني؛ أجلىٰ الجبهة، أقنىٰ الأنف، يملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما ملئت جورًا وظلمًا، يملك سبع سنين»(١)، وبهذا جمع الشيخ أنور شاه الكشميري رَحِمَهُٱللَّهُ، ولكن هذا التفصيل يعوزه الدليل، والله أعلم.

قال الكشميري رَحِمَهُٱللَّهُ: (أمَّا مُكْثُهُ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بعد النزول، فالصوابُ عندي فيه أربعون سنةً، كما عند أبي داود: «فيَمْكُثُ في الأرض أربعين سنةً، ثم يتوفَّىٰ، فيصلِّي عليه المسلمون»، وأمَّا ما تُوهِمُهُ رواية مسلم: «أنه يَمْكُثُ في الأرض سبع سنين»، فهو مدَّة مُكْثِهِ مع الإمام المهدي، كما عند أبي داود، وبعد تمام سبع سنين يتوفّىٰ الإمام، ويَبْقَىٰ عيسىٰ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ بعد ذلك ثلاثًا وثلاثين سنةً)(٢).

وقال رَحِمَهُٱللَّهُ: (وأمَّا عمر عيسىٰ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، فتفصيلُه: أنه رُفِعَ وهو ابن ثمانين سنة، ويَمْكُثُ في الأرض بعد نزوله أربعين سنة، وأمَّا «سبع سنين» عند مسلم، فهي عمره مع المهدي عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، فتلك مئة وعشرون)(٣).

---

(١) رواه أبو داود وسكت عنه، ورواه الحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي والألباني في الصحيحة (٧١١)، وقال الذهبي في (تلخيص العلل المتناهية): إسناده صالح، وجوّد إسناده ابن القيم في (المنار المنيف)، وأشار الحافظ ابن حجر في (هداية الرواة) إلىٰ تحسينه، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) فيض الباري علىٰ صحيح البخاري، محمد أنور شاه الكشميري، تحقيق: محمد بدر عالم الميرتهي، ط. دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٦، (٣/ ٤٩٠).

(٣) فيض الباري علىٰ صحيح البخاري، محمد أنور شاه الكشميري، تحقيق: محمد بدر عالم الميرتهي، ط. دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٦، (٤/ ٤٥٦).

القول الثالث: أن مدة مكث المسيح بعد نزوله هي أربعون سنة، وأن السبع سنوات المذكورة في حديث مسلم، هي مدة مكث الناس في الأرض بعد موت عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وذلك لأن رواية عبد الله بن عَمرو عند مسلم والتي فيها قوله: «فَيَبْعَثُ اللهُ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ»، هذه الجملة جاءت في المسند هكذا: «ثُمَّ يَلْبَثُ النَّاسُ بَعْدَهُ سِنِينَ سَبْعًا، لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّامِ، فَلَا يَبْقَىٰ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ»(١).

قال الإمام البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ويُحتمل أَنْ يكونَ المرادُ بقوله: «يَلبث الناس بعده» أي بعد موت عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فلا يكون الحديثُ مُخالِفًا لِحديثِ أَبي هُريرة، ويحتمل غير ذلك، والله أعلم)(٢).

فقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثُمَّ يَلْبَثُ النَّاسُ بَعْدَهُ...» أي بعد موت عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويحتمل بعد قتل الدجال، والأول مال إليه البيهقي كما مرّ، وأيده السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال الحافظ السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: («فيمكث في الأرض أربعين سنة» قال الحافظ عماد الدين ابن كثير: يشكل عليه ما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن عمرو أنَّه يمكث في الأرض سبع سنين، قال: اللَّهم إلَّا أن تحمل هذه السَّبع علىٰ مدَّة إقامته بعد نزوله، ويكون ذلك مضافًا إلىٰ مكثه فيها قبل رفعه إلىٰ السَّماء، وكان عمره إذ ذاك ثلاثًا وثلاثين سنة علىٰ المشهور.

---

(١) مسند الإمام أحمد، ط. مؤسسة الرسالة، (١١/ ١١٣، ١١٤)، الحديث رقم: (٦٥٥٥)، والحديث إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم.

(٢) البعث والنشور، البيهقي، تحقيق: أبي عاصم الشوامي الأثري، ط. مكتبة دار الحجاز - الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٦، (ص١٨٢).

قلت: وقد أقمت سنين أجمع بذلك، ثمَّ رأيت البيهقي قال في كتاب «البعث والنشور»: هكذا في هذا الحديث أن عيسىٰ يمكث في الأرض أربعين سنة، وفي «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن عمرو في قصّة الدجّال: «فيبعث الله عيسىٰ ابن مريم فيطلبه فيهلكه، ثمّ يلبث النّاس بعده سبع سنين ليس بين اثنين عداوة»، قال البيهقي: ويحتمل أنّ قوله ثمَّ يلبث النَّاس بعده، أي: بعد موته فلا يكون مخالفًا للأوَّل. انتهىٰ.

فترجَّح هذا التأويل عندي من وجوه:

أحدها: أنّ حديث مسلم ليس نصًّا في الإخبار عن مدَّة لبث عيسىٰ، وذلك نصٌّ فيها.

والثاني: أنَّ «ثمَّ» تؤيِّد هذا التأويل لأنَّها للتَّراخي.

والثالث: قوله: «يلبث الناس بعده» فيتّجه أنَّ الضمير فيه لعيسىٰ لأنَّه أقرب مذكور.

والرَّابع: أنَّه لم يرِد في ذلك سوىٰ هذا الحديث المحتمل ولا ثاني له، وورد مكث عيسىٰ أربعين سنة في عدَّة أحاديث من طرق مختلفة، منها هذا الحديث الذي أخرجه أبو داود وهو صحيح.

ومنها ما أخرجه الطّبراني من حديث أبي هريرة أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «ينزل عيسىٰ ابن مريم فيمكث في الناس أربعين سنة»، ومنها ما أخرجه أحمد في الزهد عن أبي هريرة قال: «يلبث عيسىٰ ابن مريم في الأرض أربعين سنة، لو يقول للبطحاء: سيلي عسلًا؛ لسالت عسلًا»، ومنه ما أخرجه أحمد في «مسنده» عن عائشة مرفوعًا من حديث الدجّال: «فينزل عيسىٰ ابن مريم فيقتله، ثمَّ يمكث عيسىٰ في الأرض أربعين سنة إمامًا عادلًا وحكمًا مقسطًا»، وورد أيضًا من حديث ابن

مسعود عند الطّبراني، فهذه الأحاديث المتعدِّدة الصّريحة أولىٰ من ذلك الحديث الواحد المحتمل)(١).

القول الرابع: أن مدة مكث المسيح بعد نزوله هي أربعون سنة، وأن السبع سنوات المذكورة في حديث مسلم، هي مدة مكث الناس في الأرض بعد موت عيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، علىٰ الحال التي يتركهم عليها، كما قال ابن علان رَحِمَهُٱللَّهُ: («ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة» يحتمل أنها المدة الخالصة من الأكدار البتة في زمن عيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ)(٢).

ويتلخص مما سبق أن مدة بقاء المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ بعد نزوله من السماء فيها أقوال أربعة وهي:

الأول: أنها سبع سنين، ودليل هذا القول غير صريح.

والثاني: أنها أربعون منها سبعٌ مع المهديّ، ودليله محتمل غير صريح.

والثالث: أنها أربعون ويبقىٰ الناس بعدها سبع سنين ثم تقوم الساعة، وهو ظاهر كلام البيهقي والسيوطي، وهو بعيدٌ -في نظري- لأن الناس يبعد أن يرجعوا من الحال الكاملة التي يكونون عليها إلىٰ عبادة الأوثان في سبع سنين.

والقول الرابع: وهو أصرحها دليلًا، أن مدة بقاء المسيح أربعون سنة، ويبقىٰ الناس بعدها علىٰ الإسلام الكامل، ثم ينقص حالهم شيئًا فشيئًا حتىٰ يُقبَض المؤمنون ويبقىٰ شرار الخلق، وعليهم تقوم الساعة، والله أعلم.

---

(١) مرقاة الصعود إلىٰ سنن أبي داود، جلال الدين السيوطي، بعناية: محمد شايب شريف، ط. دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٣، (٣/ ١٠٢٩، ١٠٩٣).

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين ابن علان الصدّيقي الشافعي، بعناية: خليل مأمون شيحا، ط. دار المعرفة -بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥، (٨/ ٦٣١).

فالأحاديث صحيحة صريحة في أن عيسىٰ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يمكث في الأرض بعد قتله الدجال أربعين سنة، وأما حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم فليس فيه أن عيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ يبقىٰ سبع سنين، وليس فيه أيضًا أن بقاء الناس بعد موت عيسىٰ إنما هو سبع سنين، بل هو صريح في أن هذه السبع إنما هي التي يبقىٰ الناس فيها بعد موت المسيح علىٰ حالهم التي كانوا عليها من الإيمان والأمن والبركة، ثم يصيبهم ما أصاب مَنْ كان قبلهم حتىٰ تقوم الساعة علىٰ شرار الخلق، كما في حديث مسلم: «يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين لا أدري أربعين يومًا أو أربعين شهرًا أو أربعين عامًا، فيبعث الله عيسىٰ ابن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله ريحًا باردة من قِبل الشأم، فلا يبقىٰ علىٰ وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتىٰ لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتىٰ تقبضه».

أين يدفن المسيح عَلَيْهِٱلسَّلَامُ بعد موته؟

يموت المسيح صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بعد نزوله بأربعين سنة، ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه، كما في حديث أبي هريرة: «... فيمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفىٰ فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه» وهذا لفظ أحمد، فأين يدفن صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟

روي في ذلك آثار لا يصح منها شيء، فقد روىٰ الترمذي والطبراني والبخاري في «التاريخ» من طريق عثمان بن الضحاك عن محمد بن يوسف بن عبد الله بن سلام عن أبيه عن جده قال: «يُدْفَنُ عيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ مع رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصاحبيه فيكون قبره الرابع»، ولفظ الترمذي من طريق أبي مودود المدني عن عثمان: مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسىٰ، يدفن معه، قال أبو مودود: وقد بقي في البيت موضع قبر، قال الإمام البخاري رَحِمَهُٱللَّهُ: هذا لا يصح عندي ولا يتابَع عليه(١).

---

(١) انظر: التاريخ الكبير للبخاري، في ترجمة محمد بن يوسف بن عبد الله بن سلام.

وهذا الأثر مع وقفه وكونه من الإسرائيليات، فإنه ضعيف السند، لأن عثمان ابن الضحاك الحزامي ضعيف، ومحمد بن يوسف مقبول، ولم يوثقه غير ابن حبان وهو معروف بتوثيق المجاهيل، وقد أورد هذا الأثرَ العلامةُ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «السلسلة الضعيفة» (٦٩٦٢)، وقال: موقوف ضعيف، وأعله بما سبق ذكره(١).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَرُوِيَ عَنْهَا -يعني عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا- فِي حَدِيثٍ لَا يَثْبُتُ، أَنَّهَا اسْتَأْذَنَتِ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنْ عَاشَتْ بَعْدَهُ أَنْ تُدْفَنَ إِلَىٰ جَانِبِهِ فَقَالَ لَهَا: «وَأَنَّىٰ لَكِ بِذَلِكَ وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ إِلَّا قَبْرِي وَقَبْرُ أَبِي بكر وَعمر وَعِيسَىٰ ابن مَرْيَمَ»(٢)، وَفِي أَخْبَارِ الْمَدِينَةِ مِنْ وَجْهٍ ضَعِيفٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ: إِنَّ قُبُورَ الثَّلَاثَةِ فِي صُفَّةِ بَيْتِ عَائِشَةَ، وَهُنَاكَ مَوْضِعُ قَبْرٍ يُدْفَنُ فِيهِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ)(٣).

وهذا الأثر مع ضعفه، فهو ظاهر النكارة، ولو كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم أين يدفن وأخبر الصحابة ما اختلف الصحابة بعد موته في ذلك، ولو كان يعرف أين يُدفن عمر وأعلمهم بذلك ما استأذن عمر علىٰ عائشة، ولأخبرته بذلك عند استئذانه لها.

وقال الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجمته لعبد الرحمن بن زياد الإفريقي: (وأخرج ابن أبي الدنيا في بعض تواليفه عن أبي عبد الرحمن عن محمد بن يزيد عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي عن عبد الله بن يزيد الحُبُلي عن عبد الله ابن عمرو بن العاص مرفوعًا قال: «ينزل عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فيتزوج ويولد

---

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، الألباني، (١٤/ ١٠٦١، ١٠٦٢)، الحديث رقم: (٦٩٦٢).

(٢) انظر: تاريخ دمشق، أبو القاسم ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٤٧/ ٥٢٢، ٥٢٣).

(٣) فتح الباري، ابن حجر، (٧/ ٦٦).

له ويمكث خمسًا وأربعين سنة ثم يموت فيدفن معي في قبري فأقوم أنا وهو من قبر واحد بين أبي بكر وعمر، فهذه مناكير غير محتملة)(١)، والحديث أخرجه الحافظ ابن الجوزي في «العلل المتناهية» وقال: «هذا حديث لا يصح، والإفريقي، ضعيف بمرة»، وأورده العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «السلسلة الضعيفة»، وقال: منكر(٢).

فلا يثبت شيء يعتمد عليه في موضع دفن المسيح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد أحسن من انتهىٰ إلىٰ ما علم، والله أعلم.

هل يتزوج المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قبل موته؟

كما أنه لا يصح شيء في موضع دفن المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كما مرّ، كذلك لا يصحّ شيء في أمر زواجه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد ورد في المبحث السابق ما يدل علىٰ أنه يتزوج ولا يصح منه شيء كما مر، وقد روىٰ الديلمي في «الفردوس» من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «والذي نفس محمد بيده، ليهلن ابن مريم بفج الروحاء حاجًّا أو معتمرًا، ويتزوج امرأة من بني أسد ويولد له غلام» وهو خبر لا إسناد له، وتفرُّد الديلمي به مظنة الضعف الشديد.

والمسيح صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أمر الزواج أسوة غيره من إخوانه الذين قال الله فيهم: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨] ولكننا نقف عندما ينتهي بنا الدليل، ولا أعرف دليلًا ثابتًا دالًّا علىٰ نفي ولا إثبات في خصوص عيسىٰ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، غير عموم هذه الآية، وأما أنه يتزوج من قبيلة جذام أوْ أسد وأنه يولد له ولدان يسميهما محمدًا وموسىٰ فمما لا يثبت به خبر.

---

(١) ميزان الاعتدال في نقد الرجال، شمس الدين الذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط. دار المعرفة - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٣٨٢، (٢/ ٥٦٢، ٥٦٣).

(٢) سلسلة الأحاديث الضعيفة، (١٤/ ١٤١)، الحديث رقم: (٦٥٦٢).

الفصل الرابع

طوبى لعيش بعد المسيح

بعد نزول السيد المسيح صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلىٰ الأرض وقتله الدجال وقتاله لأتباعه اليهود وإطفاء فتنتهم، ثم دعاء المسيح علىٰ يأجوج ومأجوج وهلاكهم وانتهاء فتنتهم، ووضعه الجزية والحرب بعد أن لا يبقىٰ علىٰ الأرض أحد إلا الموحدون، ويبقىٰ المسيح صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أربعين سنة بعدها يتوفى، ويبقىٰ المسلمون علىٰ العهد، والحياة قد تغيرت فأخرجت الأرض بركتها وذهبت الأحقاد بين الناس يبقون سبع سنين علىٰ هذه الحالة التي غبط النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أهلها فقال: «طوبىٰ لعيش بعد المسيح»، ثم ينحدر الناس إلىٰ مستنقع لم يبلغوه من قبل حتىٰ لا يبقىٰ علىٰ الأرض من يقول: الله، ويبقىٰ شرار الخلق الذين تقوم عليهم الساعة.

فعن أبي هريرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «طوبىٰ لعيش بعد المسيح، طوبىٰ لعيش بعد المسيح، يُؤْذَنُ للسماء في القَطْر، ويؤذن للأرض في النبات، فلو بذرتَ حبك علىٰ الصفا لنبت، ولا تَشاحَّ ولا تحاسُد ولا تباغض، حتىٰ يمر الرجل علىٰ الأسد ولا يضرّه، ويطأ علىٰ الحية فلا تضرّه ولا تشاح ولا تحاسد ولا تباغض»، رواه الضياء المقدسي في «المنتقىٰ من مسموعاته بمرو» وأبو بكر الأنباري في «حديثه» ومن طريقه رواه الديلمي وابن المحب في «صفات رب العالمين» وقال: هذا علىٰ شرط البخاري، لكن السند فيه جعفر بن محمد بن شاكر لم يخرج له أحد من الستة فليس علىٰ شرط البخاري، ولكن السند صحيح كما قال العلامة الألباني رَحِمَهُاللَّهُ(١).

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، (٤/ ٥٥٩، ٥٦٠)، الحديث رقم: (١٩٢٦).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتىٰ لا يقبله أحد»، رواه مسلم.

قال الإمام النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: أما قوله: «ويَفيض المال» فهو بفتح الياء، ومعناه يكثر وتنزل البركات وتكثر الخيرات بسبب العدل وعدم التظالم، وتقيء الأرض أفلاذ كبدها كما جاء في الحديث الآخر، وتقلُّ أيضًا الرغبات لقصر الآمال وعلمهم بقرب الساعة، فإن عيسىٰ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَلَم من أعلام الساعة، والله أعلم)(١).

وفي حديث النواس بن سمعان عند مسلم والذي أوله: «ذكر رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ الدجال ذات غداة...» بعدما ذكر هلاك الدجال ويأجوج ومأجوج ونجاة المؤمنين قال: «... ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، ورُدِّي بركتك، فيومئذٍ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها، ويُبَارك في الرِّسْل حتىٰ إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذْ بعث الله ريحًا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقىٰ شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحُمُر فعليهم تقوم الساعة»، والرِّسل هو اللبن واللقحة هي القريبة العهد بالولادة.

وفي حديث عبد الله بن عمرو عند مسلم أيضًا: «يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين... ثم يمكث الناس سبع سنين <u>ليس بين اثنين عداوة</u> ثم يرسل الله ريحًا باردة من قِبَل الشأم فلا يبقىٰ علىٰ وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، محيي الدين يحيىٰ بن شرف النووي، ط. دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢، (٢/ ١٩٠، ١٩١).

إيمان إلا قبضته، حتىٰ لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتىٰ تقبضه، فيبقىٰ شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: بم تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها، وهم في ذلك دَارٌّ رزقهم حَسَنٌ عيشهم ثم يُنْفَخُ في الصور، فلا يسمع أحد إلا أصغىٰ لِيتًا ورفع ليتًا، وأول من يسمعه رجل يَلُوط حَوْضَ إبله فيُصعَق ويُصعق الناس، ثم يرسل الله مطرًا كأنه الطَّلّ، فينبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرىٰ فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها الناس، هَلُمَّ إلىٰ ربكم، وقفوهم إنهم مسئولون، ثم يقال: أخرجوا بعث النار فيقال: من كم؟ فيقال: من ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، فذلك يومَ يجعل الولدان شيبًا، وذلك يوم يكشف عن ساق». وهو في «صحيح مسلم» بطوله.

وفي «المسند» بسند صحيح من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «... يَنزِلُ ابنُ مَريمَ إمامًا عادِلًا، وحَكَمًا مُقسِطًا، فيَكسِرُ الصَّليبَ، ويَقتُلُ الخِنزيرَ، ويُرجِعُ السَّلمَ، ويتَّخِذُ السُّيوفَ مَناجِلَ، وتَذهَبُ حُمةُ كُلِّ ذاتِ حُمةٍ، وتُنزِلُ السَّماءُ رِزقَها، وتُخرِجُ الأرضُ برَكتَها، حتىٰ يَلعَبَ الصَّبيُّ بالثُّعبانِ، فلا يَضُرُّهُ، ويُراعي الغَنَمَ الذِّئبُ، فلا يَضُرُّها، ويُراعي الأسَدُ البَقَرَ، فلا يَضُرُّها»، وقد صححه العلامة شعيب الأرناؤوط رَحِمَهُٱللَّهُ، وقواه الحافظ ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ.

وفي حديث أبي أمامة الباهلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «يا أَيُّها الناسُ، إنها لم تكن فتنةٌ علىٰ وجهِ الأرضِ منذُ ذَرَأَ اللهُ ذُرِّيَّةَ آدمَ أَعْظَمَ من فتنةِ الدَّجَّالِ...»، وفيه: «فيكون عيسىٰ ابن مريمَ في أمتي حكمًا عدلًا وإمامًا مقسطًا يدق الصليب ويذبح الخنزير ويضع الجزية ويترك الصدقة، فلا يُسعىٰ علىٰ شاة ولا بعير، وترفع الشحناء والتباغض، وتُنْزَع حُمَة كل ذات حُمَة حتىٰ يُدخلَ الوليد يده في الحية فلا تضره، وتُفِرّ الوليدة الأسد فلا يضرها، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها، وتملأ الأرض من السلم كما

يملأ الإناء من الماء، وتكون الكلمة واحدة، فلا يعبد إلا الله، وتضع الحرب أوزارها، وتُسلب قريش مُلكها، وتكون الأرض كفاثور الفضة، تنبت نباتها بعهد آدم، حتىٰ يجتمع النفر علىٰ القِطف من العنب يشبعهم، ويجتمع النفر علىٰ الرمانة فتشبعهم، ويكون الثور بكذا وكذا من المال، وتكون الفرس بالدريهمات، قالوا: يا رسول الله، وما يُرْخِص الفرس؟ قال: لا تركَب لحرب أبدًا، قيل له: فما يُغْلي الثور؟ قال: تُحرث الأرض كلها...»، الحديث رواه أبو داود مختصرًا وابن ماجه بطوله بسند قوي، وقال: سمعت أبا الحسن الطنافسي يقول: سمعت المحاربي يقول: ينبغي أن يدفع هذا الحديث للمؤدب حتىٰ يعلمه الصبيان في الكُتّاب، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ.

والحُمَةُ السَّمُّ، والوليد هو الولد الصغير، والفاثورُ هو الخِوانُ والمائِدةُ، وقيلَ: هو طَستٌ أو إناءٌ من فِضَّةٍ، «تُنبِتُ نَباتَها بعَهدِ آدَمَ»، أي: يَعودُ الثَّمَرُ والنَّباتُ مِثلَ ما كان عليه من عَهدِ آدَمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ من الكَثْرةِ والكِبَرِ والبَركةِ، والقطف» هو عنقود العنب.

أين الحضارة الحديثة في آخر الزمان؟

في هذه الأحاديث الصحيحة التي تتكلم عن المسيح الدجال ويأجوج ومأجوج، ونزول المسيح عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، في كل هذه الأحاديث لا يبدو أثرٌ لما يسمونه بالحضارة الحديثة، أعني هذا التقدم (التقني) المغموس في التخلف الديني والأخلاقي والجهل بدين الله، بل تلمح هنا وهناك الحديث عن الفروس والثيران والحراب والسيوف، ولا يمكن تحريف هذه الألفاظ بدعوىٰ التأويل، وتأمَلْ قولَ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في حديث ابن مسعود عند مسلم في «صحيحه» في حديثه عن الملاحم: «إن الساعة لا تقوم حتىٰ لا يُقْسَم ميراث ولا يُفرح بغنيمة... عدوٌّ يجمعون لأهل الإسلام... فبينما هم كذلك إذْ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك، فجاءهم الصريخ: إن الدجال قد خلفهم في ذراريهم، فيرفضون ما في أيديهم

ويُقبلون فيبعثون عشرة فوارس طليعةً»، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم وألوان خيولهم»، وهو نصٌّ لا يحتمل أيّ تأويل سائغ، ومثله ما ورد في وصف المجاهدين في فتح القسطنطينية الثاني: «قَدْ عَلَّقُوا سُيُوفَهُم بِالزَّيتُون»، وما ورد أنه بعد هلاك يأجوج ومأجوج «يُوقِدُ المُسْلِمُونَ مِنْ قِسِيِّهِم، وَنُشَّابِهِم وَأَتْرِسَتِهِم سَبعَ سنينَ»، وغير ذلك.

فالظاهر -والله أعلم- أن هذه الحضارة ستبيد كما بادت حضارة الفراعنة وعاد وثمود وغيرهم ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾ [النجم: ٥٠- ٥١]، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦] وصدق الله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤].

أما كيف تندثر هذه الحضارة، وهل يكون ذلك بحرب نووية أو فناء الطاقة أو بغير ذلك؟ فَعِلْمُ ذلك عند ربي سبحانه وهو بكل شيء عليم.

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]: فبينما الناس في فتنة عظيمة من الملاحم والحروب، ثم الدجال وفتنته، ثم يأجوج ومأجوج، إذا هم في سلام تام وبركة سابغة وعيش هانئ وإيمانٍ لا يكدره كفر، ثم لا يدعهم الشيطان الرجيم عدوُّهم الأول حتىٰ يغرقهم في بحار الشرك والكفر حتىٰ يكون أكثر الناس كافرين كما كانوا من قبل، فيقبض الله أرواح المؤمنين، ويبقىٰ شرار الخلق لا يعبدون خالقهم ولا يشكرون رازقهم ولا يراعون حقًّا ولا خلقًا وعليهم تقوم الساعة وتحق الحاقة، وينتقل أهل الدنيا جميعًا إلىٰ الدار الباقية، **وهنالك تجزىٰ كل نفس بما عملت** وهم لا يظلمون. اللهم توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين وجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، كبارها وصغارها، بفضلك وجودك يا أكرم الأكرمين.

الفصل الخامس

ويوم القيامة يكون عليهم شهيدًا

قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾[النساء: ١٥٩].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَقوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩]، قَالَ قَتَادَةُ: يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَهُمُ الرِّسَالَةَ مِنَ اللهِ، وَأَقَرَّ بِالعُبُودِيَّةِ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ فِي آخِرِ سُورَةِ المَائِدَةِ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾[المائدة: ١١٦]...»)(١).

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾[المائدة: ١١٦ - ١٩٩].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (هَذَا أَيْضًا مِمَّا يُخَاطِبُ اللهُ تَعَالَىٰ بِهِ عبده ورسوله عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قَائِلا لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ بِحَضْرَةِ مَنِ اتَّخَذَهُ وَأُمَّهُ إِلَهَيْنِ مَنْ دُونِ اللهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾

---

(١) تفسير القرآن العظيم، (٢/ ٤٦٦).

[المائدة: ١١٦] وَهَذَا تَهْدِيدٌ لِلنَّصَارَىٰ وَتَوْبِيخٌ وَتَقْرِيعٌ عَلَىٰ رُؤُوسِ الأَشْهَادِ، هَكَذَا قَالَهُ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ، وَاسْتَدَلَّ قَتَادَةُ عَلَىٰ ذَلِكَ بِقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]، وَقَالَ السُّدِّي: هَذَا الخِطَابُ وَالجَوَابُ فِي الدُّنْيَا، قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: هَذَا هُوَ الصَّوَابُ، وَكَانَ ذَلِكَ حِينَ رَفَعَهُ اللهُ إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا.

وَاحْتَجَّ ابْنُ جَرِيرٍ عَلَىٰ ذَلِكَ بِمَعْنَيَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْكَلَامَ بلفْظُ المُضِيِّ، وَالثَّانِي: قَوْلُهُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ و﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾، وَهَذَانَ الدَّلِيلَانِ فِيهِمَا نَظَرٌ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْ أُمُورِ يَوْمِ القِيَامَةِ ذُكِرَ بِلَفْظِ المُضِيِّ، لِيَدُلَّ عَلَىٰ الوُقُوعِ وَالثُّبُوتِ، وَمَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الآيَةَ: التَّبَرِّي مِنْهُمْ وَرَدُّ المَشِيئَةِ فِيهِمْ إِلَىٰ اللهِ، وَتَعْلِيقُ ذَلِكَ عَلَىٰ الشَّرْطِ لَا يَقْتَضِي وُقُوعَهُ، كَمَا فِي نَظَائِرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ، وَالَّذِي قَالَهُ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ هُوَ الأَظْهَرُ، وَاللهُ أَعْلَمُ، أَنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، لِيَدُلَّ عَلَىٰ تَهْدِيدِ النَّصَارَىٰ وَتَقْرِيعِهِمْ وَتَوْبِيخِهِمْ عَلَىٰ رُؤُوسِ الأَشْهَادِ يَوْمَ القِيَامَةِ)(١).

خاتمة

في ذكر مواعظ وآداب وقِصَص منسوبة إلى السيد المسيح عَلَيْهِالسَّلَامُ

هذه خاتمة لسيرة المسيح ابن مريم عَلَيْهِالسَّلَامُ، ذكرتُ فيها مجموعة من المواعظ والآداب والقِصَص المنسوبة إلىٰ السيد المسيح صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، التي أوردها بعض الأئمة في كتبهم، وقد ذكرتُها اقتداءً بهؤلاء الأئمة، وهي من باب قول النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج».

أقسام الإسرائيليات وحكم روايتها:

ما يُروىٰ عن أهل الكتاب يسمىٰ بـ(الإسرائيليات) وهو علىٰ ثلاثة أقسام:

الأول: مقبول، وهو ما عُلم صحته بالنقل الصحيح عن رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، كقصة بغيّ بني إسرائيل التي سَقَتْ كلبًا فغفر الله لها وأدخلها الجنة، وحديثها في «الصحيحين»، وكذلك قصة الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة فتوسلوا بصالح أعمالهم، وهي في «الصحيحين» أيضًا، وهذا القسم ذكرتُ منه ما وقفت عليه مما يتعلق بالمسيح عَلَيْهِالسَّلَامُ في مواضعه من الكتاب، والحمد لله.

والثاني: مسكوت عنه: وهو ما لم يُعلَم صحته ولا كذبه، وهذا القسم تجوز حكايته للعظة والعبرة، وهو ما قال فيه رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون». رواه البخاري، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «حَدِّثُوا عَنْ بَنِىٰ إِسْرَائِيلَ وَلا حَرَجَ»، رواه البخاري ومسلم.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قال الإمام مالك رحمه الله تعالىٰ: المراد جواز التحدث عنهم بما كان من أمرٍ حسنٍ، أما ما عُلم كذبه فلا، وَقِيلَ: المَعْنَىٰ: حَدِّثُوا عَنْهُمْ بِمِثْلِ مَا وَرَدَ فِي القُرْآنِ وَالحَدِيثِ الصَّحِيحِ، وَقِيلَ: المُرَادُ جَوَازُ التَّحَدُّثِ عَنْهُمْ بِأَيِّ صُورَةٍ وَقَعَتْ مِنَ انْقِطَاعٍ أَوْ بَلَاغٍ لِتَعَذُّرِ الِاتِّصَالِ فِي التَّحَدُّثِ عَنْهُمْ بِخِلَافِ الأَحْكَامِ الإِسْلَامِيَّةِ فَإِنَّ الأَصْلَ فِي التَّحَدُّثِ بِهَا الِاتِّصَالُ وَلَا يَتَعَذَّرُ ذَلِكَ لِقُرْبِ العَهْدِ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ مِنَ المَعْلُومِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لَا يُجِيزُ التَّحَدُّثَ بِالكَذِبِ فَالمَعْنَىٰ: حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا لَا تَعْلَمُونَ كَذِبَهُ، وَأَمَّا مَا تُجَوِّزُونَهُ فَلَا حَرَجَ عَلَيْكُمْ فِي التَّحَدُّثِ بِهِ عَنْهُمْ، وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: «إِذَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ» وَلَمْ يُرِدْ الإِذْنَ وَلَا المَنْعَ مِنَ التَّحَدُّثِ بِمَا يُقْطَعُ بِصِدْقِهِ)(١).

والثالث: مردود، وهو ما عُلم أنه مخالفٌ لشريعتنا أو مخالفٌ للعقل، فهذا نرده ولا نصدقه ولا نذيعه بين الناس.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة «تفسيره» عند كلامه عن السُّدّيّ: (...وَلِهَذَا غَالِبُ مَا يَرْوِيهِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّدِّيُّ الكَبِيرُ فِي تَفْسِيرِهِ، عَنْ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ: عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَلَكِنْ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ يَنْقُلُ عَنْهُمْ مَا يَحْكُونَهُ مِنْ أَقَاوِيلِ أَهْلِ الكِتَابِ، الَّتِي أَبَاحَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حَيْثُ قَالَ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وحَدِّثوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجٍ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ عَنْ عَبْدِ اللهِ؛ وَلِهَذَا كَانَ عَبْدُ اللهِ ابْنُ عَمْرٍو يَوْمَ اليَرْمُوكِ قَدْ أَصَابَ زَامِلَتَيْنِ مِنْ كُتُبِ أَهْلِ الكِتَابِ، فَكَانَ يُحَدِّثُ

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، ط. دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، (٦/ ٤٩٨، ٤٩٩).

مِنْهُمَا بِمَا فَهِمَهُ مِنْ هَذَا الحَدِيثِ مِنَ الإِذْنِ فِي ذَلِكَ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الأَحَادِيثَ الإِسْرَائِيلِيَّةَ تُذْكَرُ لِلاسْتِشْهَادِ، لَا لِلاعْتِضَادِ، فَإِنَّهَا عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

أَحَدُهَا: مَا عَلِمْنَا صِحَّتَهُ مِمَّا بِأَيْدِينَا مِمَّا يَشْهَدُ لَهُ بِالصِّدْقِ، فَذَاكَ صَحِيحٌ.

وَالثَّانِي: مَا عَلِمْنَا كَذِبَهُ بِمَا عِنْدَنَا مِمَّا يُخَالِفُهُ.

وَالثَّالِثُ: مَا هُوَ مَسْكُوتٌ عَنْهُ لَا مِنْ هَذَا القَبِيلِ وَلَا مِنْ هَذَا القَبِيلِ، فَلَا نُؤْمِنُ بِهِ وَلَا نُكَذِّبُهُ، وَتَجُوزُ حِكَايَتُهُ لِمَا تَقَدَّمَ، وَغَالِبُ ذَلِكَ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِيهِ تَعُودُ إِلَىٰ أَمْرٍ دِينِيٍّ)(١)، (فَمَا وافقَ مِنْهَا الحَقَّ مِمَّا بِأَيْدِينَا عَنِ المَعْصُومِ قَبِلْناه، لِمُوَافَقَتِهِ الصَّحِيحَ، وما خالف منها شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ردَدْناه، وَمَا لَيْسَ فِيهِ موافقةٌ وَلَا مخالفةٌ، لَا نُصَدِّقُهُ وَلَا نُكَذِّبُهُ، بَلْ نَجْعَلُهُ وَقْفًا، وَمَا كَانَ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ منها فقد رخَّص كثيرٌ من السلف فِيْ روايته)(٢)، (وَإِنَّمَا أَبَاحَ الشارعُ الرواية عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ: «وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ» فِيمَا قَدْ يُجَوِّزُه العَقْلُ، فَأَمَّا فِيمَا تحِيلُه العُقُولُ، ويُحْكَم فيه بالبُطلان، ويَغْلِبُ عَلَىٰ الظُّنُونِ كذبُه، فَلَيْسَ مِنْ هذا القبيل، والله أعلم)(٣).

طريقتي في اختيار ما ذكرتُه في هذه الخاتمة:

لم أذكر كل ما وقفت عليه مما نُسب إلىٰ المسيح عَلَيْهِالسَّلَامُ من المواعظ والآداب والقِصَص، وإنما انتقيتُ منها ما رأيته يتفق مع المعاني العامة في الكتاب والسنة الصحيحة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط. دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤٢٠، (١/ ٨، ٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط. دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤٢٠، (٥/ ٣٤٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط. دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤٢٠، (٧/ ٣٩٤).

واستبعدت منها ما فيه معنًىٰ يخالف المعهود من هدي النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مثل ما رواه ابن أبي الدنيا عَنْ زُهَيْرِ بنِ سَعِيدٍ المَوْصِلِيِّ، قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ خَرِبَةً فَمَطَرَتِ السَّمَاءُ، فَنظَرَ إِلَىٰ ثَعْلَبٍ قَدْ أَقْبَلَ مُسْتَوْفِزًا بِذَنَبِهِ حَتَّىٰ دَخَلَ جُحْرَهُ، فَقَالَ: الحَمْدُ لِلَّهُ الَّذِي جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ مَأْوَىٰ، إِلَّا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ لَا مَأْوَىٰ لَهُ، فَإِذَا بِصَوْتٍ: يَا ابْنَ آدَمَ، ادْخُلِ الفَجَّ، فَدَخَلَ عِيسَىٰ الفَجَّ فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ يُصَلِّي، فَأَقَامَ عِنْدَهُ سِتَّةَ عَشَرَ يَوْمًا يَنْتَظِرُهُ لِيَنْفَتِلَ مِنْ صَلَاتِهِ فَيُكَلِّمَهُ، فَلَمَّا انْفَتَلَ قَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ، مَا الَّذِي أَذْنَبْتَ؟ فَأَقْبَلَ العَابِدُ عَلَىٰ البُكَاءِ وَقَالَ: يَا رُوحَ اللهِ، أَذْنَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: قُلْتُ يَوْمًا لِشَيْءٍ كَانَ يَا لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ(١).

فالمأوىٰ والإيواء نعمة كبيرة، فكيف يحمد الله علىٰ عدمها بما يُشعِر أنه يحب ذلك، ولا يحب أن يكون له مأوىٰ، والصلاة لم تكن عندهم إلا في أماكن مُعَدَّة لذلك، والصلاة في أي مكان طاهر من خصائص هذه الأمة، وترك النوم والطعام والراحة ستة عشر يومًا، وعدُّ ما ذكره ذنبًا عظيمًا وترْك المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لدعوته وعبادته وأمه ستةَ عشر يومًا انتظارًا لرجل مجهول، مما لا يليق بأولي العزم من الرسل، ففي القصة مبالغات تكاد تنطق بأنها من أكاذيب الصوفية، والله أعلم، وقد وردت القصة علىٰ نحوٍ آخر خالٍ من هذه الأمور(٢)، ولذا أوردتها في القِصَص علىٰ تردُّدٍ مني، والله المستعان.

---

(١) الأولياء، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ط. مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٣، (ص٤٥)، الأثر رقم: (١٠٧).

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص٦٤)، الأثر رقم: (١١١).

ومثله ما رواه ابن أبي الدنيا عن مَعْنِ بْنِ عِيسَىٰ رَحِمَهُٱللَّهُ، قَالَ: سَمِعْتُ بَعْضَ أَهْلِ العِلْمِ يَقُولُ: قَالَ عِيسَىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَا لَكُمْ تَأْتُونِي وَعَلَيْكُمْ ثِيَابُ الرُّهْبَانِ وَقُلُوبُكُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ الضَّوَارِي؟ البَسُوا ثِيَابَ المُلُوكِ وَأَلِينُوا قُلُوبَكُمْ بِالخَشْيَةِ(١)، والرهبانية إنما ابتدعها النصارىٰ بعد رفع عيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، كما قال الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٢٧﴾[الحديد: ٢٧]. والله أعلم.

وكذلك تركت منها ما ورد مرفوعًا إلىٰ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بلفظه أو لفظٍ قريبٍ منه اكتفاءً بما صحَّ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الباب، إذْ لا حاجة لهذه الإسرائيليات معه، إلا أن يكون في الأثر زيادة تفيد معنًىٰ ليس في المرفوع فإني أورده لأجلها، ومثال ذلك: ما رواه الإمام عبد الله بن المبارك، أنا مُجَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: «قَحَطَ المَطَرُ فِي زَمَنِ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ، فَمَرَّتْ سَحَابَةٌ، فَنَظَرَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ، فَإِذَا فِيهَا مَلَكٌ يَسُوقُهَا، فَنَادَاهُ، فَقَالَ: إِلَىٰ أَيْنَ؟ فَقَالَ: إِلَىٰ أَرْضِ فُلَانٍ، فَانْطَلَقَ عِيسَىٰ حَتَّىٰ أَتَاهُ، فَإِذَا هُوَ يُصْلِحُ بِالمِسْحَاةِ سَوَاقِيَهَا، فَقَالَ: أَرَدْتَهُ أَكْثَرَ مِنْهُ، يَعْنِي المَطَرَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَأَقَلَّ مِنْهُ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَمَا تَصْنَعُ فِي زَرْعِكَ العَامَ؟ قَالَ: وَأَيُّ زَرْعٍ؟ إِنَّهُ يَأْكُلُهُ اليَرَقَانُ وَكَذَا قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ عَامَ أَوَّلٍ؟ قَالَ: جَعَلْتُهُ ثَلَاثَةَ أَثْلَاثٍ: ثُلُثًا لِلْأَرْضِ وَالبَقَرِ وَالعِيَالِ، وَثُلُثًا لِلْفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَثُلُثًا لِأَجْلِي، فَقَالَ عِيسَىٰ: مَا أَدْرِي أَيُّ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا»(٢).

---

(١) التواضع والخمول، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، ط. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٩، (ص١٩٣)، الأثر رقم: (١٥٣).

(٢) الزهد والرقائق، عبد الله بن المبارك، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، (٢/ ٣٢).

فقد صح عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عن النبيّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قَالَ: بيْنَما رَجُلٌ يَمشِي بِفَلاةٍ مِن الأَرض، فَسَمِعَ صَوتًا في سَحَابَةٍ: اسقِ حَدِيقَةَ فُلانٍ، فَتَنَحَّىٰ ذلكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ في حَرَّةٍ، فإذا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّراجِ قَدِ اسْتَوعَبَتْ ذلِكَ الماءَ كُلَّهُ فَتتَبَّعَ الماءَ، فإذا رَجُلٌ قَائِمٌ في حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الماءَ بِمسحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ، ما اسْمُكَ؟ قال: فُلانٌ، للاسْمِ الَّذِي سَمِعَ في السَّحَابَةِ، فقال له: يَا عَبْدَ اللهِ، لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَال: إِنِّي سَمِعْتُ صَوتًا في السَّحَابِ الَّذِي هذَا مَاؤُهُ يقُولُ: اسقِ حَدِيقَةَ فُلانٍ لاسمك، فَمَا تَصْنَعُ فِيها؟ فَقَالَ: أما إِذْ قُلْتَ هَذَا، فَإني أَنْظُرُ إِلىٰ مَا يَخْرُجُ مِنها، فَأَتَصَدَّقُ بثُلُثِه، وآكُلُ أَنا وعِيالي ثُلُثًا، وأَردُّ فِيها ثُلُثَهُ». رواه مسلم.

وأما ما نُسِب إلىٰ المسيح عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ من قوله في هذه القصة: «مَا أَدْرِي أَيُّ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا» فإنه يغنينا عنه ما رواه مسلم أيضًا عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ في سبيلِ الله، وَدِينَارٌ أَنْفقتَهُ في رقَبَةٍ، ودِينَارٌ تصدَّقْتَ بِهِ عَلَىٰ مِسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفقْتَهُ علىٰ أَهْلِكَ، أَعْظمُهَا أَجرًا الَّذي أَنْفقْتَهُ علىٰ أَهْلِكَ»، وما رواه مسلم عن ثَوْبانَ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قَالَ: قَالَ رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنفِقُهُ الرَّجُلُ دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَىٰ عِيالِهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَىٰ دابَّتِهِ في سبيلِ الله، ودِينَارٌ يُنفِقُهُ علىٰ أَصْحابه في سبِيلِ اللهِ».

ومثله أيضًا: ما رواه ابن المبارك عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الجَعْدِ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: طُوبَىٰ لِمَنْ خَزَنَ لِسَانَهُ، وَوَسِعَهُ بَيْتُهُ، وَبَكَىٰ عَلَىٰ خَطِيئَتِهِ(١)، ورواه أيضًا ابن أبي الدنيا عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الجَعْدِ رَحِمَهُٱللَّهُ قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ:

---

(١) الزهد والرقائق، عبد الله بن المبارك، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، (١/ ٤٠)، الأثر رقم: (١٢٤).

طُوبَىٰ عَلَىٰ مَنْ بَكَىٰ عَلَىٰ خَطِيئَتِهِ، وَخَزَنَ لِسَانَهُ، وَوَسِعَهُ بَيْتُهُ(١)، فقد ثبت هذا مرفوعًا من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قلتُ يا رسولَ اللهِ ما النَّجاةُ؟ قال: «أمسِكْ عليكَ لسانَكَ، وليسعْكَ بيتُك، وابكِ علىٰ خطيئتِكَ»(٢).

ولم أُعْنَ بذكر أسانيد هذه الإسرائيليات لأن هذه الأسانيد كلها إنما تنتهي إلىٰ مَنْ بلغته الآثار وذكرها عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي بهذا لا تفيد صحةً ولا ضعفًا في نسبتها للمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فبين هؤلاء الذين بلغتهم وبين المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ مفاوزُ تنقطع فيها أعناقُ المَطيّ، فاكتفيتُ بذكر اسم مَن بلغته واسم الكتاب الذي وردت فيه.

وقد قسمت ما انتقيته إلىٰ أقسام في الآداب، والأخلاق، والمواعظ، والقِصَص، وجوامع الكَلِم والأدعية، وقد أُنازِعُ في وضع بعضها في موضعِ الآخر، لاسيما والمعاني قد تتداخل، والأثر الواحد قد تتجاذبه جهاتٌ عدة، والأمر يسيرٌ إن شاء الله.

فمن الآداب والأخلاق المنسوبة إلىٰ السيد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ:

١- عَنْ يَحْيَىٰ بْنِ سَعِيدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ لَقِيَ خِنْزِيرًا بِالطَّرِيقِ فَقَالَ لَهُ: انْفُذْ بِسَلَامٍ، فَقِيلَ لَهُ: تَقُولُ هَذَا لِخِنْزِيرٍ؟ فَقَالَ عِيسَىٰ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ أُعَوِّدَ لِسَانِي المَنْطِقَ بِالسُّوءِ(٣).

---

(١) الصمت وآداب اللسان، ابن أبي الدنيا، تحقيق: أبي إسحاق الحويني، ط. دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٠، (ص٥٢)، الأثر رقم: (١٥).

(٢) حديث حسنٌ لغيره، رواه أحمد والترمذي وأبو داود والبيهقي في الزهد والترمذي وحسنه، وحسنه كذلك السيوطي والألباني.

(٣) موطأ الإمام مالك، مالك بن أنس، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٦، (٢/ ١٨٥)، ومن طريقه ابن عساكر في: تاريخه، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٤٧/ ٤٣٧).

٢- قال الإمام مَالِكٌ رَحِمَهُٱللَّهُ: بَلَغني أَنَّ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ كَانَ يَقُولُ: «لَا تُكْثِرُوا الكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكُمْ، فَإِنَّ القَلْبَ القَاسِيَ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ، وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ، وَلَا تَنْظُرُوا فِي ذُنُوبِ النَّاسِ كَأَنَّكُمْ أَرْبَابٌ، وَانْظُرُوا فِي ذُنُوبِكُمْ كَأَنَّكُمْ عَبِيدٌ، فَإِنَّمَا النَّاسُ مُبْتَلًىٰ، وَمُعَافًىٰ، فَارْحَمُوا أَهْلَ البَلَاءِ، وَاحْمَدُوا اللهَ عَلَىٰ العافية»(١).

وهذا الأثر ورد أوَّلُه مرفوعًا إلىٰ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فعَن ابنِ عُمَر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لا تُكْثِرُوا الكَلامَ بغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ، فَإِنَّ كَثْرَة الكَلامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ الله تَعالَىٰ قَسْوةٌ لِلْقَلْبِ، وإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللهِ القَلْبُ القَاسي»، رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن عبد الله ابن الحارث(٢).

قال الباجي رَحِمَهُٱللَّهُ: (قَوْلُ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: لَا تُكْثِرُوا الكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَىٰ فَتَقْسُو قُلُوبُكُمْ يُرِيدُ - وَاللهُ أَعْلَمُ - أَنَّ كَثْرَةَ الكَلَامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ تَكُونُ لَغْوًا، وَإِنْ كَانَ مِنْهُ المُبَاحُ فَقَدْ يَكُونُ مِنْهُ المَحْظُورُ فَالْغَالِبُ عَلَيْهِ مَا تَقْسُو بِهِ القُلُوبُ وَقَوْلُهُ فَإِنَّ القَلْبَ القَاسِيَ بَعِيدٌ مِنْ اللهِ يُرِيدُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَقَوْلُهُ: لَا تَنْظُرُوا فِي عُيُوبِ النَّاسِ كَأَنَّكُمْ أَرْبَابٌ يُرِيدُ أَنَّ العَبْدَ لَا يَنْظُرُ فِي ذُنُوبِ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا

(١) موطأ الإمام مالك، مالك بن أنس، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٦، (٢/ ٩٨٦)، والزهد والرقائق، عبد الله بن المبارك، تحقيق: الأعظمي، (١/ ٤٤)، الأثر رقم: (١٣٥).

(٢) قلت: وإبراهيم هذا قد ذكره ابن حبان في الثقات، وروىٰ عنه جماعة، وأورده الحافظ الذهبي في الميزان، وذكر له هذا الحديث، وقال: ما علمت فيه جرحًا، وقال الحافظ ابن حجر في التقريب: صدوق. روىٰ مراسيل، والحديث صححه الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُٱللَّهُ، وضعفه الألباني بجهالة إبراهيم هذا، وفي كلامه رَحِمَهُٱللَّهُ نظر.

يُثِيبُ عَلَىٰ حَسَنِهَا وَلَا يُعَاقِبُ عَلَىٰ سَيِّئِهَا وَإِنَّمَا يَنْظُرُ فِيهَا رَبُّهُ الَّذِي أَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَيُثِيبُهُ عَلَىٰ حَسَنِهَا وَيُعَاقِبُهُ عَلَىٰ سَيِّئِهَا، وَأَمَّا العَبْدُ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ فِي عُيُوبِ نَفْسِهِ لِيُصْلِحَ مِنْهَا مَا فَسَدَ وَيَتُوبُ مِنْهَا عَمَّا فَرَّطَ.

(فَصْلٌ) وَقَوْلُهُ: فَإِنَّمَا النَّاسُ مُبْتَلَىٰ يُرِيدُ -وَاللهُ أَعْلَمُ- بِالذُّنُوبِ، وَقَوْلُهُ: وَمُعَافًىٰ، يُرِيدُ مِنْ الذُّنُوبِ وَقَوْلُهُ فَارْحَمُوا أَهْلَ الْبَلَاءِ يُرِيدُ مَنْ امْتُحِنَ بِالذُّنُوبِ وَقَوْلُهُ: وَاحْمَدُوا اللهَ عَلَىٰ العَافِيَةِ يُرِيدُ مِنْ الذُّنُوبِ فَإِنَّكُمْ بِفَضْلِ اللهِ عُصِمْتُمْ مِنْهَا، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ البَلَاءِ مِنْ الأَمْرَاضِ وَالحَاجَةِ وَغَيْرِهَا وَالْمُعَافَاةُ مِنْهَا بِالصِّحَّةِ وَالغِنَىٰ عَنْ النَّاسِ)(١).

٣- عَنْ هِلَالِ بْنِ يِسَافٍ رَحِمَهُٱللَّهُ قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ: إِذَا كَانَ صَوْمُ يَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلْيُدْهِنْ رَأْسَهُ وَلِحْيَتَهُ، وَيَمْسَحْ شَفَتَيْهِ، لِئَلَّا يَرَىٰ النَّاسُ أَنَّهُ صَائِمٌ، فَإِذَا أَعْطَىٰ بِيَمِينِهِ فَلْيُخْفِ مِنْ شِمَالِهِ، وَإِذَا صَلَّىٰ فَلْيُرْخِ سِتْرَ بَابِهِ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُقَسِّمُ الثَّنَاءَ كَمَا يُقَسِّمُ الرِّزْقَ(٢)، وقوله: (فإن الله يقسم الثناء...) أي فلا تتعنّ في طلب ثناء الناس عليك، فإن لك منه رزقًا سيأتيك، فأَخْفِ طاعتك، والله أعلم.

٤- عَنْ عِمْرَانَ الكُوفِيِّ رَحِمَهُٱللَّهُ قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ: لَا تَأْخُذُوا مِمَنْ تُعَلِّمُونَ مِنَ الأَجْرِ إِلَّا مِثْلَ الَّذِي أَعْطَيْتُمُونِي، وَيَا مِلْحَ الأَرْضِ، لَا تَفْسُدُوا، فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ إِذَا فَسَدَ فَإِنَّهُ يُدَاوَىٰ بِالمِلْحِ، وَإِنَّ المِلْحَ إِذَا فَسَدَ فَلَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ، وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ خَصْلَتَيْنِ مِنَ الجَهْلِ: الضَّحِكُ مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ، وَالصُّبْحَةُ

---

(١) المنتقىٰ شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي، ط. مطبعة السعادة - مصر، الطبعة الأولىٰ، ١٣٣٢، (٧/ ٣١١).

(٢) الزهد والرقائق، عبد الله بن المبارك، تحقيق: الأعظمي، (١/ ٤٨)، الأثر رقم: (١٥٠).

مِنْ غَيْرِ سَهَرٍ(١)، أي كما عُلِّمتم مجانًا فعلِّموا مجانًا، وإذا فسدَ المصلِحون فمن يصلحهم ويقوّمهم؟! والصُبحة هي نوم أول النهار.

٥- عَنْ سُفْيَانَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّمَا أُعَلِّمُكُمْ لِتَعْمَلُوا، لَيْسَ لِتُعْجَبُوا يَا مِلْحَ الْأَرْضِ، وَلَا تَفْسُدُوا فَإِنَّ الشَّيْءَ إِذَا فَسَدَ إِنَّمَا يُصْلَحُ بِالْمِلْحِ، وَإِنَّ الْمِلْحَ إِذَا فَسَدَ لَمْ يُصْلَحْ بِشَيْءٍ، وَلَا تَأْخُذُوا مِمَّنْ تُعَلِّمُونَ مِنَ الْأَجْرِ إِلَّا مِثْلَ الَّذِي أَخَذْتُ مِنْكُمْ(٢).

٦- عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ: اعْمَلُوا لِلَّهِ، وَلَا تَعْمَلُوا لِبُطُونِكُمْ، انْظُرُوا إِلَىٰ هَٰذَا الطَّيْرِ، تَغْدُو وَتَرُوحُ، لَا تَحْصُدُ وَلَا تَحْرُثُ، وَاللهُ يَرْزُقُهَا، فَإِنْ قُلْتُمْ: نَحْنُ أَعْظَمُ بُطُونًا مِنْ هَٰذَا الطَّيْرِ، فَانْظُرُوا إِلَىٰ هَٰذِهِ الْأَبَاقِرِ مِنَ الْوَحْشِ، وَالْحُمُرِ، فَإِنَّهَا تَغْدُو وَتَرُوحُ، لَا تَحْرُثُ، وَلَا تَحْصُدُ، وَاللهُ يَرْزُقُهَا، اتَّقُوا فُضُولَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ فُضُولَ الدُّنْيَا عِنْدَ اللهِ رِجْزٌ(٣).

٧- عَنْ عِكْرِمَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لِلْحَوَارِيِّينَ: يَا مَعْشَرَ الْحَوَارِيِّينَ، لَا تُلْقُوا اللُّؤْلُؤَ لِلْخِنْزِيرِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَصْنَعُ بِهِ شَيْئًا، وَلَا تُعْطُوا الْحِكْمَةَ مَنْ لَا يُرِيدُهَا؛ فَإِنَّ الْحِكْمَةَ أَحْسَنُ مِنَ اللُّؤْلُؤِ، وَمَنْ لَا يُرِيدُهَا أَشَرُّ مِنَ الْخِنْزِيرِ(٤).

---

(١) الزهد والرقائق، عبد الله بن المبارك، تحقيق: الأعظمي، (١/ ٩٦)، الأثر رقم: (٢٨٣).

(٢) كتاب الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل، ١٤٢٠، (ص٧٨)، الأثر رقم: (٤٨٥)، (ص٨٠)، الأثر رقم: (٤٩٣).

(٣) الزهد والرقائق، عبد الله بن المبارك، تحقيق: الأعظمي، (١/ ٢٩١)، الأثر رقم: (٨٤٨)، والقناعة والتعفف، ابن أبي الدنيا، تحقيق: مصطفىٰ عبد القادر عطا، ط. مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٣، (ص٧١)، الأثر رقم: (١٧٢).

(٤) كتاب الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل، ١٤٢٠، (ص٧٨)، الأثر رقم: (٤٧٩).

٨- عَنْ مَيْسَرَةَ رَحِمَهُٱللَّهُ قَالَ: قَالَ المَسِيحُ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: إِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ تَكُونُوا أَصْفِيَاءَ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَنُورَ بَنِي آدَمَ مِنْ خَلْقِهِ، فَاعْفُوا عَمَّنْ ظَلَمَكُمْ، وَعُودُوا مَنْ لَا يَعُودُكُمْ، وَأَحْسِنُوا إِلَىٰ مَنْ لَا يُحْسِنُ إِلَيْكُمْ، وَأَقْرِضُوا مَنْ لَا يُجْزِيكُمْ(١).

٩- عن سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّهُ مَا مِنْ كَلِمَةٍ كَانَتْ تُقَالُ لِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُقَالَ: كَانَ هَذَا المِسْكِينُ(٢)، يعني من تواضعه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

١٠- عن يزيد بن ميسرة قال: قال عيسىٰ بن مريم بحقٍّ أقول لكم: كما تَواضَعون كذلك تُرفعون، كما تَرحمون كذلك تُرحمون، وكما تقضون من حوائج الناس كذلك يقضي الله من حوائجكم(٣).

١١- عن خيثمة رَحِمَهُٱللَّهُ قال: كان عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ يصنع الطعام لأصحابه فيطعمهم ويقوم عليهم ويقول: هكذا فاصنعوا بِالقُرَّاءِ(٤)، ويعني بالقراء أهلَ العلم، والله أعلم.

---

(١) كتاب الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل، ١٤٢٠، (ص٧٨)، الأثر رقم: (٤٨٢).

(٢) كتاب الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل، ١٤٢٠، (ص٧٩)، الأثر رقم: (٤٨٧).

(٣) تاريخ دمشق، الحافظ ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٤٧/ ٤٣١، ٤٣٢).

(٤) قِرَىٰ الضيف، ابن أبي الدنيا، تحقيق: عبد الله بن حمد المنصور، ط. أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨، (ص٤٧)، الأثر رقم: (٦٧)، وتاريخ دمشق، الحافظ ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٤٧/ ٤٣٢).

١٢- عَنِ الشَّعْبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: «قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَيْسَ الإِحْسَانُ أَنْ تُحْسِنَ إِلَىٰ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ، تِلْكَ مُكَافَأَةٌ بِالمَعْرُوفِ، وَلَكِنَّ الإِحْسَانَ أَنْ تُحْسِنَ إِلَىٰ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ»(١).

١٣- عن ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ قال: بلغني أن عيسىٰ بن مريم مرَّ بقومٍ فشتموه فقال خيرًا ومرَّ بآخرين فشتموه وزادوا فزادهم خيرًا، فقال رجل من الحواريين: كلما زادوك شرًا زِدْتَهم خيرًا، كأنك تُغريهم بنفسك! فقال عيسىٰ: كلُّ إنسان يعطي ما عنده(٢).

١٤- عن مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: مَرَّ عيسىٰ ابنُ مريم والحواريون علىٰ جيفةِ كلب، فقال الحواريون: ما أنتنَ ريحَ هذا! فقال عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ما أشدَّ بياضَ أسنانه، يعظهم، وينهاهم عن الغِيبة(٣).

١٥- عَنْ مَكْحُولٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: الْتَقَىٰ يَحْيَىٰ بْنُ زَكَرِيَّا وعيسىٰ ابن مريم - صل اللهُ عَلَيْهِمَا- فَضَحِكَ عِيسَىٰ فِي وَجْهِ يَحْيَىٰ وَصَافَحَهُ، فَقَالَ لَهُ يَحْيَىٰ: يَا ابْنَ خَالَتِي، مَا لِي أَرَاكَ ضَاحِكًا كَأَنَّكَ قَدْ أَمِنْتَ! فَقَالَ لَهُ عِيسَىٰ: يَا ابْنَ خَالَتِي، مَا لِي

---

(١) كتاب الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل، ط. دار الكتب العلمية، بيروت - الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص٧٦)، الأثر رقم: (٤٧١)، وتاريخ دمشق، الحافظ ابن عساكر، تحقيق: عمرو ابن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٤٧/ ٤٣٦).

(٢) تاريخ دمشق، الحافظ ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٤٧/ ٤٣٧).

(٣) ذم الغيبة والنميمة، ابن أبي الدنيا، تحقيق: بشير محمد عيون، ط. مكتبة دار البيان، دمشق، ومكتبة المؤيد، الرياض، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٣، (ص٤٧)، الأثر رقم: (١٥٩)، وتاريخ دمشق، ط. دار الفكر، (٤٧/ ٤٣٧، ٤٣٨).

أَرَاكَ عَابِسًا كَأَنَّكَ قَدْ يَئِسْتَ! فَأَوْحَىٰ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَيْهِمَا أَنَّ أَحَبَّكُمَا إليّ أَبَشُّكُما لصاحبه(١).

١٦- عن ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ النَّحْوِيِّ رَحِمَهُٱللَّهُ، قَالَ: لَقِيَ يَحْيَىٰ بْنُ زَكَرِيَّا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ وَيَحْيَىٰ مُتَبَسِّمٌ مُتَهَلِّلُ الوَجْهِ، وَعِيسَىٰ قَاطِبٌ مُتَعَبِّسٌ، فَقَالَ عِيسَىٰ لِيَحْيَىٰ: أَتَضْحَكُ كَأَنَّكَ آمَنٌ؟ فَقَالَ يَحْيَىٰ لِعِيسَىٰ: كَأَنَّكَ آيِسٌ! فَأَوْحَىٰ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَنَّ مَا فَعَلَ يَحْيَىٰ أَحَبُّ إِلَيْنَا. رُوَايَةٌ إِسْرَائِيلِيةٌ إِسْنَادُهَا جَيْدٌ(٢).

١٧- عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي حُرَّةَ قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: جَوْدَةُ الثِّيَابِ خُيَلَاءُ الْقَلْبِ(٣).

١٨- عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ العُمَرِيِّ رَحِمَهُٱللَّهُ، قال: قَالَ رَجُلٌ لِعِيسَىٰ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: أَوْصِنِي، قَالَ: انْظُرْ خُبْزَكَ مِنْ أَيْنَ هُوَ(٤)، يعني تحرَّ أكلَ الحلال.

١٩- عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ رَحِمَهُٱللَّهُ، أَنَّ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قَالَ: إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ أَنْ يَقُولَ العَبْدُ: إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ لِمَا لَا يَعْلَمُ(٥)، أي

---

(١) اصطناع المعروف، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، ط. دار ابن حزم، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢، (ص٤٠)، الأثر رقم: (٣١)، ومداراة الناس، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، ط. دار ابن حزم - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨، (ص٦٣)، الأثر رقم: (٦٤).

(٢) الإخوان، ابن أبي الدنيا، تحقيق: مصطفىٰ عبد القادر عطا، ط. دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠، (ص١٩٠)، الأثر رقم: (١٣٦).

(٣) التواضع والخمول، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، ط. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٩، (ص١٨٥)، الأثر رقم: (١٤٥).

(٤) الجوع، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، ط. دار ابن حزم، بيروت لبنان الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٧، (ص١٥٠)، الأثر رقم: (٢٤٥).

(٥) الصمت وآداب اللسان، ابن أبي الدنيا، تحقيق: أبي إسحاق الحويني، ط. دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٠، (ص٣٠٥)، الأثر رقم: (٧٢٢).

يكذب ويقول: يعلم الله أني فعلت كذا، أو ما ظننت كذا، وهو كاذب مفترٍ على الله، والله أعلم.

٢٠- عن وُهَيْب بن الورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ: أَرْبَعٌ لَا تَجْتَمِعُ فِي أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا يُعْجَبُ -أَوْ إِلَّا يُعْجِبُهُ-: الصَّمْتُ، وَهُوَ أَوَّلُ العِبَادَةِ، وَالتَّوَاضُعُ لِلَّهِ، وَالزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا، وَقِلَّةُ الشَّيْءِ(١)، ورواه ابن أبي الدنيا عنه بلفظه غير أنه قال: (أَرْبَعٌ لَا يَجْتَمِعْنَ فِي أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا بعجب: الصَّمْتُ وَهُوَ أَوَّلُ العِبَادَةِ، وَالتَّوَاضُعُ لِلَّهِ، وَالزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا، وَقِلَّةُ الشَّيْءِ) (٢)، قلت: لعله يعني أن هذه الأربع لا تكاد تجتمع في أحد إلا مع العجب من اجتماعها لعزة ذلك وندرته، والله أعلم.

٢١- عَنْ مُوسَىٰ بْنِ أَبِي عِمْرَانَ -وَكَانَ مَنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ- رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ لِيَحْيَىٰ بْنِ زَكَرِيَّا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِمَا: إِذَا قِيلَ لَكَ مَا فِيكَ فَأَحْدِثْ لِلَّهِ شُكْرًا، وَإِذَا قِيلَ لَكَ مَا لَيْسَ فِيكَ فَأَحْدِثْ لِلَّهِ شُكْرًا أَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ الشُّكْرِ، إِذْ يَسَّرَ لَكَ حَسَنَةً لَمْ يَكُنْ لَكَ فِيهَا عَمَلٌ(٣).

٢٢- عن مُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الكُمَيْتِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قَالَ: مَكْتُوبٌ فِي حِكْمَةِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: مِنْ عَلَامَةِ المُرِيدِينَ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا تَرْكُهُمْ كُلَّ خَلِيطٍ لَا يُرِيدُ مَا يُرِيدُونَ. والمقصود: ترك مخالطة أهل الدنيا، والله أعلم(٤).

---

(١) الزهد والرقائق، عبد الله بن المبارك، تحقيق: الأعظمي، (١/ ٢٢٢)، الأثر رقم: (٦٢٩).

(٢) الصمت وآداب اللسان، ابن أبي الدنيا، تحقيق: أبي إسحاق الحويني، ط. دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٠، (ص١٠٢)، الأثر رقم: (١٣٣)، وهو أيضًا في: الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص٨٩)، الأثر رقم: (١٨٦)، (ص١٤٤)، الأثر رقم: (٣٠٥). بلفظ: (إلا تعجّب).

(٣) مداراة الناس، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، ط. دار ابن حزم - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨، (ص٥٤)، الأثر رقم: (٥٢).

(٤) الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص١٤٤)، الأثر رقم: (٣٠٥)، وكرره (ص١٦٤)، الأثر رقم: (٣٥٤)، عن محمد بن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: =

٢٣- عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الجَعْدِ رَحِمَهُٱللَّهُ، قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: اتَّقُوا فُضُولَ الدُّنْيَا، فَإِنَّهَا رِجْسٌ عِنْدَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ(١).

ومن المواعظ المنسوبة إلىٰ السيد المسيح عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ:

١- عن وُهَيْبَ بنِ الورد رَحِمَهُٱللَّهُ قَالَ: كَانَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ يَقُولُ: حُبُّ الفِرْدَوْسِ، وَخَشْيَةُ جَهَنَّمَ يُورِثَانِ الصَّبْرَ عَلَىٰ المَشَقَّةِ، وَيُبَاعِدَانِ العَبْدَ مِنْ رَاحَةِ الدُّنْيَا(٢).

٢- عن مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ رَحِمَهُٱللَّهُ، قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: خَشْيَةُ اللهِ، وَحُبُّ الفِرْدَوْسِ يُبَاعِدَانِ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا، وَيُوَرِّثَانِ الصَّبْرَ عَلَىٰ المَشَقَّةِ(٣).

٣- عَنِ الشَّعْبِيِّ رَحِمَهُٱللَّهُ قَالَ: «كَانَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ إِذَا ذُكِرَ عِنْدَهُ السَّاعَةُ صَاحَ وَيَقُولُ: لَا يَنْبَغِي لِابْنِ مَرْيَمَ أَنْ تُذْكَرَ عِنْدَهُ السَّاعَةُ فَيَسْكُتَ»(٤).

=

قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ: مِنْ عَلَامَةِ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا تَرْكُهُمْ كُلَّ خَلِيطٍ لَا يُرِيدُ مَا يُرِيدُونَ.

(١) الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص١٢٨)، الأثر رقم: (٢٦٥).

(٢) الزهد والرقائق، عبد الله بن المبارك، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، ط. دار الكتب العلمية - بيروت، (٢/ ٤٦).

(٣) الصبر والثواب عليه، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، ط. دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨، (ص٤١)، الأثر رقم: (٤٢).

(٤) الزهد والرقائق، عبد الله بن المبارك، تحقيق: الأعظمي، (١/ ٧٧)، الأثر رقم: (٢٢٩)، والأهوال، ابن أبي الدنيا، تحقيق: مجدي فتحي السيد، ط. دار النشر: مكتبة آل ياسر - مصر، ١٤١٣، (ص١٤)، الأثر رقم: (١٨)، بلفظ: (وَيَقُولُ: مَا يَنْبَغِي لِابْنِ مَرْيَمَ أَنْ تُذْكَرَ عِنْدَهُ السَّاعَةُ إِلَّا صَاحَ).

٤- قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بَلَغَنَا عَنْ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ أَنَّهُ قَالَ: يُوشِكُ أَنْ يُفْضِيَ بِالصَّابِرِ البَلَاءُ إِلَىٰ الرَّخَاءِ، وَبِالفَاجِرِ الرَّخَاءُ إِلَىٰ البَلَاءِ(١).

٥- عَنْ خَلَفِ بْنِ حَوْشَبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ: كَمَا تَرَكَ لَكُمُ المُلُوكُ الحِكْمَةَ، فَكَذَلِكَ فَدَعُوا لَهُمُ الدُّنْيَا(٢).

٦- عَنِ المَقْبُرِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ كَانَ يَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، إِذَا عَمِلْتَ الحَسَنَةَ فَالْهُ عَنْهَا، فَإِنَّهَا عِنْدَ مَنْ لَا يُضَيِّعُهَا، ثُمَّ تَلَا (٣) هَذِهِ الآيَةَ: «إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا»، وَإِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَاجْعَلْهَا نُصْبَ عَيْنَيْكَ(٤).

٧- وعن مَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: بَلَغَنَا أَنَّ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الحَوَارِيِّينَ، تَحَبَّبُوا إِلَىٰ اللهِ بِبُغْضِكُمْ أَهْلَ المَعَاصِي، وَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِمَا يُبَاعِدُكُمْ مِنْهُمْ، وَالْتَمِسُوا رِضَاهُ بِسَخَطِهِمْ- قَالَ: لَا أَدْرِي بِأَيَّتِهِنَّ بَدَأَ- قَالُوا: يَا رُوحَ اللهِ، فَمَنْ نُجَالِسُ؟ قَالَ: جَالِسُوا مَنْ يُذَكِّرُكُمْ بِاللهِ رُؤْيَتُهُ، وَمَنْ يَزِيدُ فِي عِلْمِكُمْ مَنْطِقُهُ، وَمَنْ يُرَغِّبُ فِي الآخِرَةِ عَمَلُهُ(٥).

---

(١) الزهد والرقائق، عبد الله بن المبارك، تحقيق: الأعظمي، (١/ ٢٢٢)، الأثر رقم: (٦٢٧)، والصبر والثواب عليه، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، ط. دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨، (ص٥٨)، الأثر رقم: (٧٤).

(٢) الزهد والرقائق، عبد الله بن المبارك، تحقيق: الأعظمي، (١/ ٩٦)، الأثر رقم: (٢٨٤)، وكتاب الزهد، للإمام أحمد بن حنبل، ١٤٢٠، (ص٧٧)، الأثر رقم: (٤٧٧)، وتصحف فيه الاسم إلىٰ (خالد بن حوشب)، وصوابه: (خلف).

(٣) أي سعيد بن أبي سعيد المقبري.

(٤) الزهد والرقائق، عبد الله بن المبارك، تحقيق: الأعظمي، (١/ ١٠١)، الأثر رقم: (٣٠١).

(٥) الزهد والرقائق، عبد الله بن المبارك، تحقيق: الأعظمي، (١/ ١٢١)، الأثر رقم: (٣٥٥).

٨-عن هِشَامٍ الدَّسْتُوَائِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: قَرَأْتُ فِي كِتَابٍ بَلَغَنِي أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: تَعْمَلُونَ لِلدُّنْيَا وَأَنْتُمْ تُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ العَمَلِ، وَلَا تَعْمَلُونَ لِلآخِرَةِ وَأَنْتُمْ لَا تُرْزَقُونَ فِيهَا إِلَّا بِالعَمَلِ، وَيْلَكُمْ عُلَمَاءَ السُّوءِ الأَجْرَ تَأْخُذُونَ، وَالعَمَلَ تُضَيِّعُونَ، يُوشِكُ رَبُّ العَمَلِ أَنْ يَطْلُبَ عَمَلَهُ، وَتُوشِكُونَ أَنْ تَخْرُجُوا مِنَ الدُّنْيَا العَرِيضَةِ إِلَىٰ ظُلْمَةِ القَبْرِ وَضِيقِهِ، اللهُ نَهَاكُمْ عَنِ الخَطَايَا كَمَا أَمَرَكُمْ بِالصِّيَامِ وَالصَّلَاةَ، كَيْفَ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ مَنْ سَخِطَ رِزْقَهُ، وَاحْتَقَرَ مَنْزِلَهُ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ؟! كَيْفَ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ مَنِ اتَّهَمَ اللهَ فِيمَا قَضَىٰ لَهُ، فَلَيْسَ يَرْضَىٰ شَيْئًا أَصَابَهُ؟! كَيْفَ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ مَنْ دُنْيَاهُ آثَرُ عِنْدَهُ مِنْ آخِرَتِهِ، وَهُوَ مُقْبِلٌ فِي دُنْيَاهُ أَفْضَلَ رَغْبَةً؟ كَيْفَ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ مَنْ مَسِيرُهُ إِلَىٰ آخِرَتِهِ وَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَىٰ دُنْيَاهُ، وَمَا يَضُرُّهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِمَّا يَنْفَعُهُ؟ كَيْفَ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ مَنْ يَطْلُبُ الكَلَامَ لِيُخْبِرَ بِهِ النَّاسَ، وَلَا يَطْلُبُ الكَلَامَ لِيَعْمَلَ بِهِ؟!(١).

٩- عن مُحَمَّدِ بْنِ سُوقَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ: دَعِ النَّاسَ، فَلْيَكُونُوا مِنْكَ فِي رَاحَةٍ، وَلْتَكُنْ نَفْسُكَ مِنْكَ فِي شُغُلٍ؛ دَعْهُمْ فَلَا تَلْتَمِسْ مَحَامِدَهُمْ، وَلَا تَكْسِبْ مَذَامَّهُمْ، وَعَلَيْكَ بِمَا وُكِّلْتَ بِهِ(٢).

(١) كتاب الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص٦٤)، الأثر رقم: (٣٩٢)، والزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص٢٠٦)، الأثر رقم: (٤٨٥)، ولفظ أحمد: (إِنَّ فِي حِكْمَةِ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ)، و(كَيْفَ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ مَنْ طَلَبَ الكَلَامَ لِيُحَدِّثَ بِهِ، وَلَمْ يَطْلُبْهُ لِيَعْمَلَ بِهِ)، وليس عنده: (يُوشِكُ رَبُّ العَمَلِ أَنْ يَطْلُبَ عَمَلَهُ) وبقية الأثر سواء عندهما.

(٢) كتاب الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل، ط. دار الكتب العلمية، بيروت - الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص٧٦)، الأثر رقم: (٤٦٩)، وتاريخ دمشق، الحافظ ابن عساكر، تحقيق: عمرو ابن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٤٧/٤٣٨)، والصمت وآداب اللسان، ابن أبي الدنيا، تحقيق: أبي إسحاق الحويني، ط. دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٠، (ص٣٠٩)، الأثر رقم: (٧٣٨).

١٠- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: أَوْحَىٰ اللهُ تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ إِلَىٰ عِيسَىٰ: اجْعَلْنِي مِنْ نَفْسِكَ كَهَمِّكَ، اجْعَلْنِي ذُخْرًا لِمَعَادِكَ، وَتَوَكَّلْ عَلَيَّ أَكْفِكَ، وَلَا تَوَلَّ غَيْرِي فَأَخْذُلَكَ(١)، ورواه ابن أبي الدنيا عَنْ صَالِحِ بْنِ شُعَيْبٍ رَحِمَهُٱللَّهُ، قَالَ: أَوْحَىٰ اللهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَىٰ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: أَنْزِلْنِي مِنْ نَفْسِكَ كَهَمِّكَ، وَاجْعَلْنِي ذُخْرًا لَكَ فِي مَعَادِكَ، وَتَقَرَّبْ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ أُدْنِكَ، وَتَوَكَّلْ عَلَيَّ أَكْفِكَ، وَلَا تَولَّ غَيْرِي فَأَخْذُلَكَ(٢).

١١- عَنِ الحَسَنِ البصري رَحِمَهُٱللَّهُ قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: إِنِّي أَكْبَبْتُ الدُّنْيَا عَلَىٰ وَجْهِهَا، وَقَعَدْتُ عَلَىٰ ظَهْرِهَا، وَلَيْسَ لِي وَلَدٌ يَمُوتُ، وَلَا بَيْتٌ فَيَخْرَبُ فَقَالُوا لَهُ: أَفَلَا تَتَّخِذُ لَكَ بَيْتًا؟ قَالَ: ابْنُوا لِي عَلَىٰ طَرِيقِ السَّيْلِ بَيْتًا، قَالُوا: لَا يَثْبُتُ، قَالُوا: أَفَلَا تَتَّخِذُ لَكَ زَوْجَةً؟ قَالَ: مَا أَصْنَعُ بِزَوْجَةٍ تَمُوتُ؟(٣).

١٢- عن جَعْفَرَ بْنِ جِرْفَاسَ التيميّ رَحِمَهُٱللَّهُ أَنَّ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ قَالَ: رَأْسُ الْخَطِيئَةِ حُبُّ الدُّنْيَا، وَالنِّسَاءُ حِبَالَةُ الشَّيْطَانِ، وَالخَمْرُ مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ(٤).

١٣- عَنْ سُفْيَانَ الثوريّ رَحِمَهُٱللَّهُ قَالَ: كَانَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ يَقُولُ: حُبُّ الدُّنْيَا أَصْلُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَالمَالُ فِيهِ دَاءٌ كَثِيرٌ، قَالُوا: وَمَا دَاؤُهُ؟ قَالَ: لَا يَسْلَمُ

---

(١) كتاب الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل، ط. دار الكتب العلمية، بيروت - الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص٧٦)، الأثر رقم: (٤٧٠).

(٢) كتاب التوكل علىٰ الله، ابن أبي الدنيا، تحقيق: مصطفىٰ عبد القادر عطا، ط. مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٣، (ص٥٩)، الأثر رقم: (٢٦).

(٣) كتاب الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل ١٤٢٠، (ص٧٧)، الأثر رقم: (٤٧٣).

(٤) كتاب الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل، ١٤٢٠، (ص٧٧)، الأثر رقم: (٤٧٤).

صَاحِبُهُ مِنَ الفَخْرِ وَالخُيَلَاءِ قَالُوا: فَإِنْ سَلِمَ؟ قَالَ: يَشْغَلُهُ إِصْلَاحُهُ عَنْ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَىٰ(١).

١٤-عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ رَحِمَهُٱللَّهُ، أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ قَالَ: بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ أَكْنَافَ السَّمَاءِ لَخَالِيَةٌ مِنَ الأَغْنِيَاءِ، وَلَدُخُولُ جَمَلٍ فِي سَمِّ الخِيَاطِ أَيْسَرُ مِنْ دُخُولِ غَنِيٍّ الجَنَّةَ(٢).

١٥-عن سُفْيَانَ (٣) رَحِمَهُٱللَّهُ، أنه قال: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لِلْقُرَّاءِ: يَا مِلْحَ الْأَرْضِ، لَا تَفْسُدُوا؛ فَإِنَّ الشَّيْءَ إِذَا فَسَدَ إِنَّمَا يُصْلِحُهُ المِلْحُ، وَإِنَّ المِلْحَ إِذَا فَسَدَ لَمْ يُصْلِحْهُ شَيْءٍ(٤).

١٦- عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: كَانَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ يَقُولُ: لَحَقٌّ أَقُولُ لَكُمْ: كَمَا لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَبْنِيَ عَلَىٰ مَوْجِ البَحْرِ دَارًا؛ كَذَلِكُمُ الدُّنْيَا لَا تَتَّخِذُوهَا قَرَارًا(٥).

---

(١) كتاب الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل، ١٤٢٠، (ص٧٧)، الأثر رقم: (٤٧٥)، والزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص٤٣)، الأثر رقم: (٥١)، وعند أحمد: سفيان مهمَل، ولكن صرح ابن أبي الدنيا بأنه سفيان بن سعيد، فهو الثوري.

(٢) كتاب الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل، ١٤٢٠، (ص٧٧)، الأثر رقم: (٤٧٦).

(٣) الراوي عن سفيان هو الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُٱللَّهُ، وهو يروي عن السفيانين الثوري وابن عيينة.

(٤) كتاب الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل، ١٤٢٠، (ص٧٨)، الأثر رقم: (٤٨٠).

(٥) كتاب الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل، ١٤٢٠، (ص٧٨)، الأثر رقم: (٤٨١)، وهو في الزهد وفي ذم الدنيا وكلاهما لابن أبي الدنيا عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ رَحِمَهُٱللَّهُ، أَنَّ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، عَلَيْهِٱلسَّلَامُ قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَبْنِي عَلَىٰ مَوْجِ البَحْرِ دَارًا، تِلْكُمُ الدُّنْيَا فَلَا تَتَّخِذُوهَا قَرَارًا. (الزهد) لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص١٥٩)، الأثر رقم: (٣٤٧)، ذم الدنيا، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، ط. مؤسسة الكتب الثقافية الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤، (ص٣٧٠)، الأثر رقم: (١٥٦).

١٧- عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ دِينَارٍ البَهْرَانِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْحَوَارِيِّينَ: عَلَيْكُمْ بِخُبْزِ الشَّعِيرِ، وَاخْرُجُوا مِنَ الدُّنْيَا سَالِمِينَ آمِنِينَ؛ بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ حَلَاوَةَ الدُّنْيَا مَرَارَةُ الآخِرَةِ، وَإِنَّ مَرَارَةً فِي الدُّنْيَا حَلَاوَةٌ فِي الآخِرَةِ، وَإِنَّ عِبَادَ اللهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ شَرَّكُمْ عَمَلًا عَالِمٌ يُحِبُّ الدُّنْيَا، فَيُؤْثِرُهَا عَلَىٰ عَمَلِهِ إِنَّهُ لَوْ يَسْتَطِيعُ جَعَلَ النَّاسَ كُلَّهُمْ فِي عَمَلِهِ مِثْلَهُ(١).

١٨- عَنِ المُهَاجِرِ بْنِ حَبِيبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّ المَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: يَا مَعْشَرَ الحَوَارِيِّينَ، لَا تَطْلُبُوا الدُّنْيَا بِهَلَكَةِ أَنْفُسِكُمْ، وَاطْلُبُوا أَنْفُسَكُمْ بِتَرْكِ مَا فِيهَا، عُرَاةً جِئْتُمْ، وَعُرَاةً تَذْهَبُونَ، وَلَا تَطْلُبُوا رِزْقَ مَا فِي غَدٍ، كَفَىٰ اليَوْمِ بِمَا فِيهِ، وَغَدًا يَدْخُلُ بِشُغْلِهِ، وَاسْأَلُوا اللهَ أَنْ يَجْعَلَ رِزْقَكُمْ يَوْمًا بِيَوْمٍ(٢)، ورواه ابن أبي الدنيا عَنْ أَشْعَثَ بْنِ إِسْحَاقَ القُمِّيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَا تَطْلُبُوا الدُّنْيَا بِهَلَكَةِ أَنْفُسِكُمْ، وَاطْلُبُوا الدُّنْيَا بِتَرْكِ مَا فِيهَا، عُرَاةً دَخَلْتُمُوهَا، وَعُرَاةً تَخْرُجُونَ مِنْهَا، كَفَىٰ اليَوْمَ هَمُّهُ، وَغَدًا إِذَا دَخَلَ بِشُغْلِهِ (٣).

١٩- عن مالكِ بْنِ دِينَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: كَانَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: إِنَّ هَذَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِزَانَتَانِ، فَانْظُرُوا مَا تَضَعُونَ فِيهِمَا، وَكَانَ يَقُولُ: اعْمَلُوا اللَّيْلَ لِمَا خُلِقَ لَهُ، وَاعْمَلُوا النَّهَارَ لِمَا خُلِقَ لَهُ(٤).

---

(١) كتاب الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل، ١٤٢٠، (ص٧٨)، الأثر رقم: (٤٨٤).

(٢) كتاب الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل، ١٤٢٠، (ص٧٩)، الأثر رقم: (٤٩٠).

(٣) الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، الأثر رقم: (٧٣)، ولعلها: (وغدًا إذا دخل، دخل بشغله)، والله أعلم.

(٤) الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص١٨٦)، الأثر رقم: (٤٢٣)، وتاريخ دمشق، الحافظ ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٤٧/ ٤٣٥).

٢٠- عن سعيد بن أبي سعيد المقبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: جاء رجلٌ إلىٰ عيسىٰ فقال: يا معلم الخير، علّمني شيئًا ينفعني الله به ولا يضرك ذلك، فقال: تدعو الله يُيَسِّرْ عليك من الأمر ما لا يجب مع الله غير الله (١)، وترحم بني جنسك رحمتَك، وما لا تحب أن يُؤتَىٰ إليك لا تأتيه إلىٰ غيرك وأنت تقيٌّ لله حقًّا(٢).

٢١- عن سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: قالوا لعيسىٰ ابن مريم: دُلَّنا علىٰ عملٍ ندخل به الجنة، قال: لا تنطقوا أبدًا، قالوا: لا نستطيع ذلك، قال: فلا تنطقوا إلا بخير (٣).

٢٢- عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قَالَ: قَالَ الحَوَارِيُّونَ لِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ: مَنْ أَوْلِيَاءُ اللهِ الَّذِينَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ؟ قَالَ عِيسَىٰ: الَّذِينَ نَظَرُوا إِلَىٰ بَاطِنِ الدُّنْيَا حِينَ نَظَرَ النَّاسُ إِلَىٰ ظَاهِرِهَا، وَالَّذِينَ نَظَرُوا إِلَىٰ آجِلِ الدُّنْيَا حِينَ نَظَرَ النَّاسُ إِلَىٰ عَاجِلِهَا، فَأَمَاتُوا مِنْهَا مَا خَشُوا أَنْ يُمِيتَهُمْ، وَتَرَكُوا مِنْهَا مَا عَلِمُوا أَنْ سَيَتْرُكُهُمْ، فَصَارَ اسْتِكْثَارُهُمْ مِنْهَا اسْتِقْلَالًا، وَذِكْرُهُمْ إِيَّاهَا فَوَاتًا، وَفَرَحُهُمْ بِمَا أَصَابُوا مِنْهَا حُزْنًا، فَمَا عَارَضَهُمْ مِنْ نَائِلِهَا رَفَضُوهُ، وَمَا عَارَضَهُمْ مِنْ رَفْعَتِهَا بِغَيْرِ الحَقِّ وَضَعُوهُ، خَلَقَتِ الدُّنْيَا عِنْدَهُمْ فَلَيْسُوا يُجَدِّدُونَهَا، وَخَرِبَتْ بَيْنَهُمْ فَلَيْسُوا يَعْمُرُونَهَا، وَمَاتَتْ فِي صُدُورِهِمْ فَلَيْسُوا يُحْيُونَهَا، يَهْدِمُونَهَا وَيَبْنُونَ بِهَا آخِرَتَهُمْ، وَيَبِيعُونَهَا فَيَشْتَرُونَ بِهَا مَا يَبْقَىٰ لَهُمْ، رَفَضُوهَا فَكَانُوا بِرَفْضِهَا فَرِحِينَ، وَبَاعُوهَا فَكَانُوا بِبَيْعِهَا رَابِحِينَ، وَنَظَرُوا إِلَىٰ أَهْلِهَا صَرْعَىٰ قَدْ حَلَّتْ فِيهِمُ المَثُلَاتُ، فَأَحْيَوْا

---

(١) لم أفهم للعبارة وجهًا، وأظن أن بها تصحيفًا، ولعل المعنىٰ المراد: (ما لا يقدر عليه غير الله)، والله أعلم.

(٢) تاريخ دمشق، الحافظ ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٤٧/ ٤٣٥).

(٣) تاريخ دمشق، الحافظ ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٤٧/ ٤٣٨).

ذِكْرَ المَوْتِ، وَأَمَاتُوا ذِكْرَ الحَيَاةِ، يُحِبُّونَ اللهَ، وَيُحِبُّونَ ذِكْرَهُ، وَيَسْتَضِيئُونَ بِنُورِهِ، لَهُمْ خَبَرٌ عَجَبٌ، وَعِنْدَهُمُ الخَبَرُ الْعَجَبُ، بِهِمْ قَامَ الكِتَابُ، وَبِهِمْ نَطَقَ الكِتَابُ، وَبِهِ نَطَقُوا، وَبِهِمْ عُلِمَ الكِتَابُ، وَبِهِ عَلِمُوا، لَيْسُوا يَرَوْنَ نَائِلًا مَعَ مَا نَالُوا، وَلَا أَمَانًا دُونَ مَا يَرْجُونَ، وَلَا خَوْفًا دُونَ مَا يَحْذَرُونَ(١).

٢٣- عَنْ أَبِي الجَلْدِ رَحِمَهُٱللَّهُ، قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: فَكَّرْتُ فِي الخَلْقِ فَوَجَدْتُ مَنْ لَمْ يُخْلَقْ أَغْبَطَ عِنْدِي مِمَّنْ خُلِقَ(٢).

٢٤- عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ رَحِمَهُٱللَّهُ، قَالَ: بَيْنَمَا عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ جَالِسٌ مَعَ الحَوَارِيِّينَ إِذْ جَاءَ طَائِرٌ مَنْظُومُ الجَنَاحَيْنِ بِاللُّؤْلُؤِ وَاليَاقُوتِ كَأَحْسَنِ مَا يَكُونُ مِنَ الطَّيْرِ، فَجَعَلَ يَدْرُجُ مِنْ أَيْدِيهِمْ، فَقَالَ عِيسَىٰ: دَعُوهُ لَا تُنَفِّرُوهُ، فَإِنَّ هَذَا بُعِثَ لَكُمْ آيَةً، فَخَلَعَ مِسْلَاخَهُ فَخَرَجَ أَقْرَعَ أَحْمَرَ، كَأَقْبَحِ مَا يَكُونُ مِنَ الطَّيْرِ فَأَتَىٰ بِرْكَةً فَتَلَوَّثَ فِي حَمْأَتِهَا، فَخَرَجَ أَسْوَدَ فَجَاءَ فَاسْتَقْبَلَ جِرْيَةَ المَاءِ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ عَادَ إِلَىٰ مِسْلَاخِهِ فَلَبِسَهُ فَعَادَ إِلَيْهِ حُسْنُهُ وَجَمَالُهُ، فَقَالَ عِيسَىٰ: إِنَّمَا بُعِثَ لَكُمْ أَنَّهُ، إِنَّ مَثَلَ هَذَا: المُؤْمِنُ إِذَا تَلَوَّثَ فِي الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا نُزِعَ مِنْهُ حُسْنُهُ وَجَمَالُهُ، فَإِذَا تَابَ إِلَىٰ اللهِ عَادَ إِلَيْهِ حُسْنُهُ وَجَمَالُهُ(٣).

---

(١) الأولياء، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ط. مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٣، (ص١٥)، الأثر رقم: (١٨).

(٢) الإشراف في منازل الأشراف، ابن أبي الدنيا، تحقيق: د. نجم عبد الرحمن خلف، ط. مكتبة الرشد- الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤١١، (ص٢٨٧)، الأثر رقم: (٣٩٠).

(٣) كتاب التوبة، ابن أبي الدنيا، تحقيق: مجدي السيد إبراهيم، ط. مكتبة القرآن، القاهرة، (ص١٠٩)، الأثر رقم: (١٣٢).

٢٥- عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ الحَوَارِيُّونَ لِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ: مَا نَأْكُلُ؟ قَالَ: خُبْزُ الشَّعِيرِ، قَالُوا: فَمَا نَشْرَبُ؟ قَالَ: المَاءُ القَرَاحِ، قَالُوا: فَمَا نَتَوَسَّدُ؟ قَالَ: تَوَسَّدُوا الأَرْضَ، قَالُوا: مَا تَأْمُرُنَا مِنَ العَيْشِ إِلَّا بِكُلِّ شَدِيدٍ، قَالَ: وَبِذَلِكَ لَا يَخْلُو مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَحَدُكُمْ مَا يَأْتِي مِنْ ذَلِكَ عَلَىٰ شَهْوَةٍ، قَالُوا: كَيْفَ ذَاكَ؟! قَالَ: أَلَمْ تَرَوا إِلَىٰ الرَّجُلِ إِذَا جَاعَ فَمَا أَحَبَّ إِلَيْهِ الكِسْرَةُ وَإِنْ كَانَتْ شَعِيرًا، وَإِذَا عَطِشَ فَمَا أَحَبَّ إِلَيْهِ المَاءُ وَإِنْ كَانَ قَرَاحًا، وَإِذَا أَطَالَ القِيَامَ فَمَا أَحَبَّ إِلَيْهِ أَنْ يَتَوَسَّدَ الأَرْضَ! (١).

٢٦- عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ دِينَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْحَوَارِيِّينَ: عَلَيْكُمْ بِخُبْزِ الشَّعِيرِ، كُلُوهُ بِمِلْحٍ جَرِيشٍ، وَلَا تَأْكُلُوهُ إِلَّا عَلَىٰ شَهْوَةٍ، وَالْبَسُوا مُسُوحَ الشَّعْرِ، وَاخْرُجُوا مِنَ الدُّنْيَا سَالِمِينَ، بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ حَلَاوَةَ الدُّنْيَا مَرَارَةُ الآخِرَةِ، وَإِنَّ مَرَارَةَ الدُّنْيَا حَلَاوَةُ الآخِرَةِ، وَإِنَّ عِبَادَ اللهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ، بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ شَرَّكُمْ عَمَلًا عَالِمٌ يُحِبُّ الدُّنْيَا فَيُؤْثِرُهَا عَلَىٰ عِلْمِهِ، لَوْ يَسْتَطِيعُ جَعَلَ النَّاسَ كُلَّهُمْ مِثْلَهُ فِي عَمَلِهِ، مَا أَحَبَّ إِلَىٰ عَبِيدِ الدُّنْيَا أَنْ يَجِدُوا مَعْذِرَةً، وَأَبْعَدَهُمْ مِنْهَا لَوْ يَعْلَمُونَ. يعني أن عبيد الدنيا يحتجون بمثل حال هذا العالِم المؤثر للدنيا ولا عذر لهم في ذلك لو كانوا يعلمون(٢).

٢٧- عَنْ خَالِدٍ الرَّبَعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: نُبِّئْتُ أَنَّ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ مَرَرْتُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ نَائِمٍ وَقَدْ كَشَفَتِ الرِّيحُ عَنْهُ ثَوْبَهُ قَالُوا: كُنَّا نَرُدُّهُ عَلَيْهِ،

---

(١) الجوع، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، ط. دار ابن حزم، بيروت لبنان الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٧، (ص٦٥)، الأثر رقم: (٦٨).

(٢) الجوع، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، ط. دار ابن حزم، بيروت لبنان الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٧، (ص١٢٤)، الأثر رقم: (١٩١).

قَالَ: بَلْ تَكْشِفُونَ مَا بَقِيَ مَثَلُ ضَرَبَهُ لِلْقَوْمِ يَسْمَعُونَ عَنِ الرَّجُلِ بِالسَّيِّئَةِ فَيَزِيدُونَ عَلَيْهَا، وَيَذْكُرُونَ أَكْثَرَ مِنْهَا(١)، يعني أن حال الناس غير ما ذكرتم بل يسمعون بالسيئة عن الرجل فيزيدون عليها ولا يسترونها، والله أعلم.

٢٨- عَنْ لَيْثِ بن أبي سُليم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أَنَّ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رَأَىٰ الدُّنْيَا فِي صُورَةِ عَجُوزٍ هَتْمَاءَ، عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ زِينَةٍ، فَقَالَ لَهَا: كَمْ تَزَوَّجْتِ؟ قَالَتْ: لَا أُحْصِيهِمْ، قَالَ: فَكُلُّهُمْ مَاتَ عَنْكِ أَوْ كُلُّهُمْ طَلَّقَكِ؟ قَالَتْ: بَلْ كُلُّهُمْ قَتَلْتُ، قَالَ: فَقَالَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: بُؤْسًا لِأَزْوَاجِكِ البَاقِينَ كَيْفَ لَا يَعْتَبِرُونَ بِأَزْوَاجِكِ المَاضِينَ؟! كَيْفَ تُهْلِكِينَهُمْ وَاحِدًا وَاحِدًا وَلَا يَكُونُونَ مِنْكِ عَلَىٰ حَذَرٍ؟!(٢).

٢٩- عن مَالِك بْنِ دِينَارٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قَالَ: كَانَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إِذَا مَرَّ بِدَارٍ قَدْ مَاتَ أَهْلُهَا، وَقَفَ عَلَيْهَا فَنَادَىٰ: وَيْحٌ لِأَرْبَابِكِ الَّذِينَ يَتَوَارَثُونَكِ كَيْفَ لَمْ يَعْتَبِرُوا فِعْلَكَ بِإِخْوَانِهِمُ المَاضِينَ(٣).

٣٠- عن سفيان بْنِ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: قَالَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: كَانَتِ الدُّنْيَا وَلَمْ أَكُنْ فِيهَا، وَتَكُونُ وَلَا أَكُونُ فِيهَا، وَإِنَّمَا لِي فِيهَا أَيَامِي الَّتِي أَنَا فِيهَا، فَإِنْ شَقِيتُ فِيهَا

---

(١) الصمت وآداب اللسان، ابن أبي الدنيا، تحقيق: أبي إسحاق الحويني، ط. دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٠، (ص٢٨٥، ٢٨٦)، الأثر رقم: (٦٤١).

(٢) ذم الدنيا، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، ط. مؤسسة الكتب الثقافية الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤، (ص٢٤)، الأثر رقم: (٢٧)، والزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص٣٢)، الأثر رقم: (٢٧).

(٣) قصر الأمل، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، ط. دار ابن حزم - لبنان، الطبعة الثانية، ، ١٤١٧، (ص١٩٩)، الأثر رقم: (٣٢١).

فَأَنَا شَقِيٌّ(١)، والمعنىٰ -والله أعلم- أن الدنيا كانت قبلي وستكون بعدي، وإنما يهمني منها حياتي فهي التي أحاسَبُ عليها.

٣١- عن مُعْتَمِرِ بْنِ سُلَيْمَانَ رَحِمَهُٱللَّهُ، قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: كَانَتِ الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ أَكُونَ فِيهَا، وَهِيَ كَائِنَةٌ بَعْدِي، وَإِنَّمَا لِي فِيهَا أَيَّامٌ مَعْدُودَةٌ، فَإِذَا لَمْ أَسْعَدْ فِي أَيَامِي هَذِهِ فَمَتَىٰ أَسْعَدُ؟!(٢).

٣٢- قال ابن أبي الدنيا رَحِمَهُٱللَّهُ: وقرأت في كتاب داود بن رشيد، حدثني أبو عبد الله(٣) قال: وقال عيسىٰ بن مريم: يا معشر الحواريين، ازهدوا في الدنيا تمشوا فيها بلا هَمٍّ(٤).

٣٣- عن أبي عَبْدِ اللهِ الدِّمَشْقِيِّ رَحِمَهُٱللَّهُ، قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: الدَّهْرُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ: أَمْسِ لَكَ خَلَتْ عِظَتُهُ، وَالْيَوْمُ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ لَكَ، وَغَدٌ لَا تَدْرِي مَا يَكُونُ(٥).

---

(١) الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص١٢٨)، الأثر رقم: (٢٦٦).

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص٦٤)، الأثر رقم: (١١٣).

(٣) هو أبو عبد الله الصوري رَحِمَهُٱللَّهُ، كما في الزهد لابن أبي الدنيا، (ص١٥٠)، الأثر رقم: (٣٢٠): (قَرَأْتُ فِي كِتَابِ دَاوُدَ بْنِ رُشَيْدٍ بِخَطِّهِ، حَدَّثَنِي أَبُو عَبْدِ اللهِ الصُّورِيُّ)، وهذا إسناد يكرره كثيرًا في كتبه.

(٤) ذم الدنيا، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، ط. مؤسسة الكتب الثقافية الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤، (ص١٤٦)، الأثر رقم: (٣٤٤)، وهو أيضًا في الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص١٥١)، الأثر رقم: (٣٢٤).

(٥) الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص١٨٣)، الأثر رقم: (٤١٢).

٣٤- عن سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ رَحِمَهُٱللَّهُ، أَنَّ عِيسَىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ نَظَرَ إِلَىٰ إِبْلِيسَ فَقَالَ: هَذَا أُرْكُونُ الدُّنْيَا، إِلَيْهَا خَرَجَ، وَإِيَّاهَا سَأَلَ، لَا أَشْرَكُهُ فِي شَيْءٍ مِنْهَا، وَلَا حَجَرًا أَضَعُهُ تَحْتَ رَأْسِي، وَلَا أُكْثِرُ فِيهَا ضَاحِكًا حَتَّىٰ أَخْرُجَ مِنْهَا(١)، والأُركون هو الرئيس، والمعنىٰ أنه كبيرُ أهلِ الدنيا ومقدَّمُهم.

٣٥- عن أبي سليمان الداراني رَحِمَهُٱللَّهُ، قال: جَلَسَ عِيسَىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ فِي ظِلِّ خَيْمَةِ عَجُوزٍ، فَقَالَتْ لَهُ الْعَجُوزُ: يَا عَبْدَ اللهِ، قُمْ مِنْ ظِلِّنَا، فَقَامَ فَجَلَسَ فِي الشَّمْسِ، وَقَالَ: لَسْتِ أَنْتِ الَّذِي أَقَمْتَنِي، إِنَّمَا أَقَامَنِي الَّذِي لَمْ يُرِدْ أَنْ أُصِيبَ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا(٢).

٣٦- عَنْ دَاوُدَ بْنِ هِلَالٍ النَّصِيبِيِّ رَحِمَهُٱللَّهُ، قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: وَيْلَكُمْ عُلَمَاءَ السُّوءِ، مِنْ أَجْلِ دُنْيَا دَنِيَّةٍ، وَشَهْوَةٍ رَدِيَّةٍ، تُفَرِّطُونَ فِي مُلْكِ جَنَّةٍ عَلِيَّةٍ، وَتَنْسَوْنَ هَوْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ(٣).

٣٧- عَنْ دُوَيْدِ بْنِ نَافِعٍ رَحِمَهُٱللَّهُ، قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: تَعْمَلونَ لِدُنْيَا صَغِيرَةٍ، وَتَتْرُكُونَ الآخِرَةَ الكَبِيرَةَ، وَعَلَىٰ كُلِّكُمْ يَمُرُّ المَوْتُ(٤).

---

(١) الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص٢٠٩)، الأثر رقم: (٤٩٠).

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص٦٥)، الأثر رقم: (١١٤).

(٣) الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص٢٠٠)، الأثر رقم: (٤٦٦)، وذم الدنيا، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، ط. مؤسسة الكتب الثقافية الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤، (ص١٥٨)، الأثر رقم: (٣٧٧).

(٤) الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص٢٠٠)، الأثر رقم: (٤٦٧)، وكرره (ص١٣٤)، الأثر رقم: (٢٧٥)، وذم الدنيا، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، ط. مؤسسة الكتب الثقافية الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤، (ص١٥٨)، الأثر رقم: (٣٧٨).

٣٨- عن الفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ، وَسفيانِ بْنِ عُيَيْنَةَ رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، قالا: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: بُطِحَتْ لَكُمُ الدُّنْيَا وَجَلَسْتُمْ عَلَىٰ ظَهْرِهَا، فَلَا يُنَازِعُكُمْ فِيهَا إِلَّا المُلُوكُ وَالنِّسَاءُ، فَأَمَّا المُلُوكُ فَلَا تُنَازِعُوهُمُ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَعْرِضُوا لَكُمْ مَا تَرَكْتُمُوهُمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَأَمَّا النِّسَاءُ فَاتَّقُوهُنَّ بِالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ(١).

٣٩- عن عُبَيْدِ اللهِ بْنِ مُسْلِمٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قَالَ: وَيْلٌ لِصَاحِبِ الدُّنْيَا كَيْفَ يَمُوتُ وَيَتْرُكُهَا، وَتَغُرُّهُ وَيَأْمَنُهَا، وَتَخْذُلُهُ وَيَثِقُ بِهَا؟ وَيْلٌ لِلْمُغْتَرِّينَ كَيْفَ أَرَتْهُمْ مَا يَكْرَهُونَ، وَفَارَقَهُمْ مَا يُحِبُّونَ، جَاءَهُمْ مَا يُوعَدُونَ؟ وَيْلٌ لِمَنِ الدُّنْيَا هَمُّهُ، وَالْخَطَايَا عَمَلُهُ كَيْفَ يَفْتَضِحُ غَدًا بِذَنْبِهِ(٢).

٤٠- عن شُعَيْبِ بْنِ صَالِحٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: مَا سَكَنَتِ الدُّنْيَا فِي قَلْبِ عَبْدٍ إِلَّا الْتَاطَ قَلْبُهُ بِثَلَاثٍ: شُغْلٍ لَا يَنْفَكُّ عَنَاؤُهُ، وَفَقْرٍ لَا يُدْرِكُ غِنَاهُ، وَأَمَلٍ لَا يُدْرِكُ مُنْتَهَاهُ، الدُّنْيَا طَالِبَةٌ وَمَطْلُوبَةٌ، فَطَالِبُ الآخِرَةِ تَطْلُبُهُ الدُّنْيَا حَتَّىٰ يَسْتَكْمِلَ فِيهَا رِزْقَهُ، وَطَالِبُ الدُّنْيَا تَطْلُبُهُ الآخِرَةُ حَتَّىٰ يَجِيءَ المَوْتُ فَيَأْخُذَ بِعُنُقِهِ(٣)، و(الْتَاطَ به) أي الْتصقَ به.

(١) الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص٣٥)، الأثر رقم: (٣٤)، وذم الدنيا، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، ط. مؤسسة الكتب الثقافية الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤، (ص٢٦)، الأثر رقم: (٣٤).

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص٨٧)، الأثر رقم: (١٨٠).

(٣) الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص٣٥)، الأثر رقم: (٣٥)، والقناعة والتعفف، ابن أبي الدنيا، تحقيق: مصطفىٰ عبد القادر عطا، ط. مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٣، (ص٦٨)، الأثر رقم: (١٤٩)، وذم الدنيا، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، ط. مؤسسة الكتب الثقافية الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤، (ص٢٧)، الأثر رقم: (٣٥).

٤١ - عَنْ فُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ رَحِمَهُٱللَّهُ، قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: إِنَّكُمْ لَنْ تُدْرِكُوا مَا تُرِيدُونَ إِلَّا بِتَرْكِكُمْ مَا تَشْتَهُونَ، وَلَا تَنَالُونَ مَا تَأْمَلُونَ إِلَّا بِصَبْرِكُمْ عَلَىٰ مَا تَكْرَهُونَ، وَيْلٌ لِصَاحِبِ الدُّنْيَا كَيْفَ يَمُوتُ وَيَتْرُكُهَا، وَيَأْمَنُهَا وَتَخُونُهُ، وَيَثِقُ بِهَا وَتَخْدَعُهُ، وَيْلٌ لِلْمُغْتَرِّينَ بِالدُّنْيَا كَيْفَ أَزِفَهُمْ فِيهَا مَا يَكْرَهُونَ، وَفَارَقَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ، وَجَاءَهُمْ مَا يُوعَدُونَ، وَيْلٌ لِمَنِ الدُّنْيَا هَمُّهُ، وَالخَطَايَا عَمَلُهُ، كَيْفَ يَفْتَضِحُ غَدًا(١).

٤٢ - عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ رَحِمَهُٱللَّهُ، قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: كَمَا يَنْظُرُ المَرِيضُ إِلَىٰ طَيِّبِ الطَّعَامِ فَلَا يَلْتَذُّ بِهِ مِنْ شِدَّةِ الوَجَعِ، كَذَلِكَ صَاحِبُ الدُّنْيَا لَا يَلْتَذُّ العِبَادَةَ، وَلَا يَجِدُ حَلَاوَتَهَا مَعَ مَا يَجِدُ مِنْ حُبِّ الدُّنْيَا، بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ الدَّابَّةَ إِذَا لَمْ تُرْكَبْ وَتُمْتَهَنْ تَصَعَّبَتْ وَتَغَيَّرَ خُلُقُهَا، كَذَلِكَ القُلُوبُ إِذَا لَمْ تُرَقَّقْ بِذِكْرِ المَوْتِ وَيَنْصَبْهَا دَأْبُ العِبَادَةِ تَقْسُو وَتَغْلُظُ، بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ الزِّقَّ إِذَا لَمْ يَتَخَرَّقْ أَوْ يَقْحَلْ، فَسَوْفَ يَكُونُ وِعَاءً لِلعَسَلِ، وَكَذَلِكَ القُلُوبُ مَا لَمْ تَخْرِقْهَا الشَّهَوَاتُ، أَوْ يُدَنِّسُهَا الطَّمَعُ، أَوْ يُقَسِّيهَا النَّعِيمُ، فَسَوْفَ تَكُونُ أَوْعِيَةً لِلحِكْمَةِ(٢).

٤٣ - عن عَبْدِ العَزِيزِ القُرَشِيِّ رَحِمَهُٱللَّهُ، قَالَ: قَالَ سُفْيَانُ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ: كَمَا لَا يَسْتَقِيمُ النَّارُ وَالمَاءُ فِي إِنَاءٍ، كَذَلِكَ لَا يَسْتَقِيمُ حُبُّ الآخِرَةِ وَالدُّنْيَا فِي قَلْبِ المُؤْمِنِ(٣).

---

(١) الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص١٢٧)، الأثر رقم: (١٧٨).

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص٨٦)، الأثر رقم: (١٧٥).

(٣) الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص٢٢٤)، الأثر رقم: (٥٢٢).

٤٤- عَنْ زَكَرِيَّا بْنِ عَدِيٍّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ: يَا مَعْشَرَ الحَوَارِيِّينَ، ارْضَوْا بِدَنِيءِ الدُّنْيَا مَعَ سَلَامَةِ الدِّينِ، كَمَا رَضِيَ أَهْلُ الدُّنْيَا بِدَنِيءِ الدِّينِ مَعَ سَلَامَةِ الدُّنْيَا(١) قَالَ زَكَرِيَّا: وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الشَّاعِرُ:

أَرَىٰ رِجَالًا بِأَدْنَىٰ الدِّين قَدْ قَنعُوا ... وَلَا أَرَاهُمْ رَضُوا فِي العَيْش بالدُّونِ
فَاسْتَغْنِ بالدِّين عَنْ دُنْيَا المُلُوكِ كَمَا اسْـ ... ـتَغْنَىٰ المُلُوكُ بِدُنْيَاهُمْ عَن الدِّين

ورويَ أيضًا عَنِ الحَسَنِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قَالَ: أَوْحَىٰ اللهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَىٰ عِيسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: أَنْ قُلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ يَحْفَظُوا عَنِّي حَرْفَيْنِ: أَنْ يَرْضَوْا بِدَنِيءِ الدُّنْيَا مَعَ سَلَامَةِ دِينِهِمْ كَمَا أَنَّ أَهْلَ الدُّنْيَا رَضُوا بِدَنِيءِ الدِّينِ لِسَلَامَةِ دُنْيَاهُمْ(٢).

٤٥- عَنْ صَالِحِ بْنِ أَبِي شُعَيْبٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قَالَ: أَوْحَىٰ اللهُ إِلَىٰ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ: اصْبِرْ عَلَىٰ البَلَاءِ وَارْضَ بِالقَضَاءِ وَكُنْ كَمَسَرَّتِي فِيكَ، فَإِنَّ مَسَرَّتِي أَنْ أُطَاعَ فَلَا أُعْصَىٰ(٣).

٤٦- عَنْ أَبِي الجَلْدِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أَنَّ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مَرَّ بِمَشْيَخَةٍ فَقَالَ: مَعَاشِرَ الشُّيُوخِ، أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ الزَّرْعَ إِذَا ابْيَضَّ وَيَبِسَ وَاشْتَدَّ فَقَدْ دَنَا حَصَادُهُ؟ قَالُوا: بَلَىٰ قَالَ: فَاسْتَعِدُّوا فَقَدْ دَنَا حَصَادُكُمْ، ثُمَّ مَرَّ بِشَبَابٍ فَقَالَ: مَعَاشِرَ الشَّبَابِ، أَمَا

---

(١) الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص١٥١)، الأثر رقم: (٣٢٢).

(٢) الرضا عن الله بقضائه، ابن أبي الدنيا، تحقيق: ضياء الحسن السلفي، ط. الدار السلفية، بومباي-الهند، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٠، (ص٩٥)، الأثر رقم: (٧٤).

(٣) الرضا عن الله بقضائه، ابن أبي الدنيا، تحقيق: ضياء الحسن السلفي، ط. الدار السلفية، بومباي-الهند، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٠، (ص١٠٩)، الأثر رقم: (٩٢).

تَعْلَمُونَ أَنَّ رَبَّ الزَّرْعِ رُبَّمَا حَصَدَهُ قَصِيلًا؟ قَالُوا: بَلَىٰ، قَالَ: فَاسْتَعِدُّوا؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَتَىٰ تُحْصَدُونَ(١).

٤٧- عن وهبِ بنِ منبِّه رَحِمَهُٱللَّهُ، قال كان عيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ واقفًا علىٰ قبرٍ ومعه الحواريون وصاحبُه يُدلىٰ فيه فذكروا القبر ووحشته وظلمته وضيقه فقال عيسىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: كنتم في أضيقَ منه، في أرحام أمهاتكم، فإذا أحبَّ الله أن يوسّع وسَّع(٢).

٤٨- قال ابن أبي الدنيا رَحِمَهُٱللَّهُ: وَقَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: يَا مَعْشَرَ الحَوَارِيِّينَ، إِنَّ ابْنَ آدَمَ خُلِقَ فِي الدُّنْيَا فِي أَرْبَعِ مَنَازِلَ، هُوَ فِي ثَلاثٍ مِنْهُنَّ بِاللهِ وَاثِقٌ، حَسَنٌ ظَنُّهُ فِيهِنَّ بِرَبِّهِ، وَهُوَ فِي الرَّابِعِ سَيِّئٌ ظَنُّهُ بِرَبِّهِ، يَخَافُ خِذْلانَ اللهِ تَعَالَىٰ إِيَّاهُ، فَأَمَّا المَنْزِلَةُ الأُولَىٰ، فَإِنَّهُ خُلِقَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ: ظُلْمَةِ البَطْنِ، وَظُلْمَةِ الرَّحِمِ، وَظُلْمَةِ الْمَشِيمَةِ، يُنَزِّلُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فِي جَوْفِ ظُلْمَةِ البَطْنِ، فَإِذَا خَرَجَ مِنَ البَطْنِ وَقَعَ فِي اللَّبَنِ لا يَخْطُو إِلَيْهِ بِقَدَمٍ، وَلا يَتَنَاوَلُهُ بِفَمٍ، وَلا يَنْهَضُ إِلَيْهِ بِقُوَّةٍ، وَلا يَأْخُذُهُ بِحِرْفَةٍ، يُكْرَهُ عَلَيْهِ إِكْرَاهًا، وَيُوجَرُهُ إِيجَارًا، حَتَّىٰ يَنْبُتَ عَلَيْهِ عَظْمُهُ، وَلَحْمُهُ، وَدَمُهُ، فَإِذَا ارْتَفَعَ عَنِ اللَّبَنِ، وَقَعَ فِي المَنْزِلَةِ الثَّالِثَةِ، فِي الطَّعَامِ بَيْنَ أَبَوَيْهِ يَكْتَسِبَانِ عَلَيْهِ مِنْ حَلالٍ وَحَرَامٍ، فَإِنْ مَاتَ أَبَوَاهُ عَنْ غَيْرِ شَيْءٍ تَرَكَاهُ، عَطَفَ عَلَيْهِ النَّاسُ، هَذَا يُطْعِمُهُ وَهَذَا يَسْقِيهِ، وَهَذَا يُؤْوِيهِ، فَإِذَا وَقَعَ فِي المَنْزِلَةِ الرَّابِعَةِ، فَاشْتَدَّ وَاسْتَوَىٰ، وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ، وَكَانَ رَجُلًا خَشِيَ أَنْ لا يَرْزُقَهُ اللهُ تَعَالَىٰ فَوَثَبَ عَلَىٰ النَّاسِ يَخُونُ أَمَانَاتِهِمْ، وَيَسْرِقُ أَمْتِعَتَهُمْ، وَيَخُونُهُمْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ

---

(١) العمر والشيب، ابن أبي الدنيا، تحقيق: د. نجم عبد الله خلف، ط. مكتبة الرشد- الرياض، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٢، (ص٥٥)، الأثر رقم: (٢١).

(٢) القبور، ابن أبي الدنيا، تحقيق: طارق محمد سكلوع العمود، ط. مكتبة الغرباء الأثرية، الطبعة الأولىٰ (١٤٢٠، (ص١٣١)، الأثر رقم: (١٤٤).

مَخَافَةَ خِذْلانِ اللهِ تَعَالَىٰ إِيَّاهُ(١)، وقوله: (وَيُوْجَرُهُ إِيجَارًا) أي يُصَبُّ في حلقه، والوجور هو ما يصب في الحلق.

٤٩- عن عبيدِ الله بنِ مسلمٍ رَحِمَهُٱللَّهُ، قال: بلغني أن عيسىٰ بن مريم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ، قال: ويلٌ لصاحب الدنيا كيف يموت ويتركها، ويأمنها وتغره، ويثق بها وتخذله، ويل للمغترين كيف أرتهم ما يكرهون، وفارقهم ما يحبون، وجاءهم ما يوعدون، وويل لمن الدنيا همه، والخطايا عمله، كيف يفتضح غدًا بذنبه(٢).

ومن القِصَص المنسوبة إلىٰ السيد المسيح عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ:

١- عَنْ ثَابِتٍ البُنَاني رَحِمَهُٱللَّهُ قَالَ: «انْطَلَقَ عِيسَىٰ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ يَزُورُ أَخًا لَهُ، فَاسْتَقْبَلَهُ إِنْسَانٌ، فَقَالَ: إِنَّ أَخَاكَ قَدْ مَاتَ فَرَجَعَ، فَسَمِعَ بَنَاتُ أَخِيهِ بِرُجُوعِهِ عَنْهُنَّ، فَأَتَيْنَهُ، فَقُلْنَ: يَا رَسُولَ اللهِ، رُجُوعُكَ عَنَّا أَشَدُّ عَلَيْنَا مِنْ مَوْتِ أَبِينَا قَالَ: فَانْطَلِقْنَ، فَأَرِينَنِي قَبْرَهُ، فَانْطَلَقْنَ، حَتَّىٰ أَرَيْنَهُ قَبْرَهُ قَالَ: وَصَوَّتَ بِهِ، فَخَرَجَ، وَهُوَ أَشْيَبُ، فَقَالَ: أَلَسْتَ فُلَانًا؟ قَالَ: بَلَىٰ، قَالَ: فَمَاذَا الَّذِي أَرَىٰ بِكَ؟ قَالَ: سَمِعْتُ صَوْتَكَ، فَحَسِبْتُهُ الصَّيْحَةَ قَالَ: وَامْرَأَتُهُ تَرَىٰ مَا صَنَعَ، وَتَسْمَعُ قَالَتْ: طُوبَىٰ لِبَطْنٍ لَبِثْتَ فِيهِ، وَثَدْيَيْنِ رَضِعْتَهُمَا، قَالَ عِيسَىٰ: طُوبَىٰ لِمَنْ عَلَّمَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ كِتَابَهُ، ثُمَّ لَمْ يَمُتْ جَبَّارًا(٣).

٢- عن مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ رَحِمَهُٱللَّهُ، قَالَ: سَأَلَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ قَالُوا: يَا رَوْحَ اللهِ وَكَلِمَتَهُ، إِنَّ سَامَ بْنَ نُوحٍ دُفِنَ هَاهُنَا قَرِيبًا، فَادْعُ اللهَ أَنْ

---

(١) القناعة والتعفف، ابن أبي الدنيا، تحقيق: مصطفىٰ عبد القادر عطا، ط. مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٣، (ص٥٧، ٥٨)، الأثر رقم: (١٢٥).

(٢) ذم الدنيا، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، ط. مؤسسة الكتب الثقافية الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤، (ص٥٢)، الأثر رقم: (٩٢).

(٣) كتاب الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل، ١٤٢٠، (ص٧٧)، الأثر رقم: (٤٧٢).

يَبْعَثَهُ لَنَا، قَالَ: فَهَتَفَ نَبِيُّ اللهِ بِهِ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا وَهَتَفَ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، فَقَالُوا: لَقَدْ دُفِنَ هَاهُنَا قَرِيبًا فَهَتَفَ نَبِيُّ اللهِ فَخَرَجَ أَشْمَطُ، قَالُوا: يَا رَوْحَ اللهِ وَكَلِمَتَهُ، نُبِّئْنَا أَنَّهُ مَاتَ وَهُوَ شَابٌّ فَمَا هَذَا البَيَاضُ؟ فَقَالَ لَهُ عِيسَىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: مَا هَذَا البَيَاضُ؟ قَالَ: ظَنَنْتُ أَنَّهَا مِنَ الصَّيْحَةِ فَفَزِعْتُ(١).

٣- عن طاوس بن كيسان رَحِمَهُٱللَّهُ، قال: لقي الشيطان عيسىٰ بن مريم فقال: يا ابن مَرْيَم، إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَارْقَ عَلَىٰ هَذِهِ الشَّاهِقَةِ، فَأَلْقِ نَفْسَكَ مِنْهَا، فَقَالَ: وَيْلَكَ! أَلَمْ يقل الله: يا ابن آدَمَ، لا تَخْتَبِرْنِي بِهَلاكِكَ، فَإِنِّي أَفْعَلُ مَا أشاء! (٢).

وعَنْ أَبِي عُثْمَانَ النهدي رَحِمَهُٱللَّهُ، قَالَ: كَانَ عِيسَىٰ عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يُصَلِّي عَلَىٰ رَأْسِ جَبَلٍ فَأَتَاهُ إِبْلِيسُ فَقَالَ: أَنْتَ الَّذِي تَزْعُمُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَلْقِ نَفْسَكَ مِنَ الجبل وقل: قُدِّرَ عليَّ، قال: يالعين! اللهُ يَخْتَبِرُ العِبَادَ، وَلَيْسَ لِلْعِبَادِ أَنْ يَخْتَبِرُوا الله عَزَّوَجَلَّ(٣).

٤- عن مَالِكُ بْنُ مِغْوَلٍ رَحِمَهُٱللَّهُ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ- مَرَّ بِخَرِبَةٍ فَقَالَ: يَا خَرِبَةُ الخَرِبِينَ، أَوْ قَالَ: يَا خَرِبَةُ خَرِبَتْ، أَيْنَ أَهْلُكِ؟ فَأَجَابَهُ مِنْهَا شَيْءٌ، فَقَالَ: يَا رُوحَ اللهِ، بَادُوا، فَاجْتَهِدْ - أَوْ قَالَ: فَإِنَّ أَمْرَ اللهِ جِدٌّ، فَجِدَّ(٤)، ورواه ابن أبي الدنيا عن مَالِكِ بْنُ أَنَسٍ رَحِمَهُٱللَّهُ أَنَّهُ بَلَغَهُ: أَنَّ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ قَدْ خَرِبَتْ بُيُوتُهَا، وَتَقَطَّعَتْ أَنْهَارُهَا، فَقَالَ عِيسَىٰ: يَا خَرِبُ، أَيْنَ

(١) كتاب من عاش بعد الموت، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد حسام بيضون، ط. مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٣، (ص٥٣)، الأثر رقم: (٥٩).

(٢) مكائد الشيطان، ابن أبي الدنيا، (ص٧٦)، الأثر رقم: (٥٥).

(٣) مكائد الشيطان، ابن أبي الدنيا، (ص٧٧)، الأثر رقم: (٥٦).

(٤) الزهد والرقائق، عبد الله بن المبارك، تحقيق: الأعظمي، (١/ ٢٢٥)، الأثر رقم: (٦٤١).

أَهْلُكُ؟ فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ، حَتَّىٰ قَالَ ثَلَاثًا، فَأُجِيبَ قِيلَ لَهُ: بَادُوا، وَتَضَمَّنَتْهُمُ الْأَرْضُ، وَصَارَتْ أَعْمَالُهُمْ قَلَائِدَ فِي أَعْنَاقِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ. فَالجِدَّ الجِدَّ يَا عِيسَىٰ(١).

قلت: هكذا ورد عند أبي الدنيا: (مالك بن أنس)، وأخشىٰ أن يكون في الأصل: (مالك)، وزاد الناسخ أوْ المحقق: (ابن أنس) اجتهادًا منه، والله أعلم.

٥- عَنْ لَيْث بن أبي سُليم رَحِمَهُ‌ٱللَّهُ، قَالَ: صَحِبَ رَجُلٌ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ‌ٱلسَّلَامُ، فَقَالَ: أَكُونُ مَعَكَ وَأَصْحَبُكَ قَالَ: فَانْطَلَقَا فَانْتَهَيَا إِلَىٰ شَطِّ نَهرٍ، فَجَلَسَا يَتَغَدَّيَانِ وَمَعَهُمَا ثَلَاثَةُ أَرْغِفَةٍ، فَأَكَلَا رَغِيفَيْنِ، وَبَقِيَ رَغِيفٌ، فَقَامَ عِيسَىٰ إِلَىٰ النَّهرِ فَشَرِبَ، ثُمَّ رَجَعَ فَلَمْ يَجِدِ الرَّغِيفَ، فَقَالَ لِلرَّجُلِ: مَنْ أَخَذَ الرَّغِيفَ؟ قَالَ: لَا أَدْرِي، قَالَ: فَانْطَلَقَ مَعَهُ صَاحِبُهُ، فَرَأَىٰ ظَبْيَةَ مَعَهَا خِشْفَانِ لَهَا قَالَ: فَدَعَا أَحَدَهُمَا فَأَتَاهُ فَذَبَحَهُ، وَاشْتَوَىٰ مِنْهُ فَأَكَلَ هُوَ وَذَاكَ، ثُمَّ قَالَ لِلْخِشْفِ: قُمْ بِإِذْنِ اللهِ، فَقَامَ فَذَهَبَ، فَقَالَ لِلرَّجُلِ: أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَرَاكَ هَذِهِ الآيَةَ: مَنْ أَخَذَ الرَّغِيفَ؟ قَالَ: مَا أَدْرِي، قَالَ: ثُمَّ انْتَهَيَا إِلَىٰ وَادِي مَاءٍ، فَأَخَذَ عِيسَىٰ بِيَدِ الرَّجُلِ فَمَشَيَا عَلَىٰ المَاءِ، فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ: أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَرَاكَ هَذِهِ الآيَةَ، مَنْ أَخَذَ الرَّغِيفَ؟ قَالَ: لَا أَدْرِي، قَالَ: فَانْتَهَيَا إِلَىٰ مَفَازَةٍ فَجَلَسَا، فَأَخَذَ عِيسَىٰ فَجَمَعَ تُرَابًا، أَوْ كَثِيبًا، ثُمَّ قَالَ: كُنْ ذَهَبًا بِإِذْنِ اللهِ، فَصَارَ ذَهَبًا، فَقَسَّمَهُ ثَلَاثَةَ أَثْلَاثٍ، فَقَالَ: ثُلُثٌ لِي، وَثُلُثٌ لَكَ، وَثُلُثٌ لِمَنْ أَخَذَ الرَّغِيفَ فَقَالَ: أَنَا أَخَذْتُ الرَّغِيفَ قَالَ: فَكُلُّهُ لَكَ، قَالَ: وَفَارَقَهُ عِيسَىٰ، فَانْتَهَىٰ إِلَيْهِ رَجُلَانِ فِي المَفَازَةِ وَمَعَهُ المَالُ، فَأَرَادَا أَنْ يَأْخُذَاهُ مِنْهُ، وَيَقْتُلَاهُ، فَقَالَ: هُوَ بَيْنَنَا أَثْلَاثًا، قَالَ: فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ إِلَىٰ القَرْيَةِ حَتَّىٰ يَشْتَرِيَ طَعَامًا قَالَ: فَبَعَثُوا أَحَدَهُمْ، قَالَ: فَقَالَ الَّذِي بُعِثَ: لِأَيِّ شَيْءٍ أُقَاسِمُهُمَا هَذَا المَالَ؟! وَلَكِنِّي أَصْنَعُ فِي هَذَا الطَّعَامِ سُمًّا فَأَقْتُلُهُمَا،

(١) قصر الأمل، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، ط. دار ابن حزم - ... الطبعة الثانية، ، ١٤١٧، (ص١٨٥)، الأثر رقم: (٢٨٩).

قَالَ: فَفَعَلَ، وَقَالَ ذَانِكَ: لِأَيِّ شَيْءٍ نَجْعَلُ لِهَذَا ثُلُثَ المَالِ؟ وَلَكِنْ إِذَا رَجَعَ إِلَيْنَا قَتَلْنَاهُ، وَاقْتَسَمْنَاهُ بَيْنَنَا قَالَ: فَلَمَّا رَجَعَ إِلَيْهِمَا قَتَلَاهُ، وَأَكَلَا الطَّعَامَ، فَمَاتَا، قَالَ: فَبَقِيَ ذَلِكَ المَالُ فِي المَفَازَةِ، وَأُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ قَتْلَىٰ عِنْدَهُ، وَفِي غَيْرِ حَدِيثِ إِسْحَاقَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ قَالَ: فَمَرَّ بِهِمْ عِيسَىٰ عَلَىٰ تِلْكَ الحَالِ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: هَذِهِ الدُّنْيَا فَاحْذَرُوهَا(١).

٦- عن مُحَمَّدِ بْنِ سِبَاعٍ النُّمَيْرِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قَالَ: بَيْنَمَا عِيسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يَسِيحُ فِي بَعْضِ بِلَادِ الشَّامِ إِذِ اشْتَدَّ بِهِ الْمَطَرُ وَالرَّعْدُ وَالبَرْقُ قَالَ: فَجَعَلَ يَطْلُبُ شَيْئًا يَلْجَأُ إِلَيْهِ، فَرُفِعَتْ لَهُ خَيْمَةٌ مِنْ بَعِيدٍ فَأَتَاهَا، فَإِذَا فِيهَا امْرَأَةٌ فَحَادَ عَنْهَا، فَإِذَا هُوَ بِكَهْفٍ فِي جَبَلٍ، فَأَتَاهُ فَإِذَا فِي الكَهْفِ أَسَدٌ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِلَهِي جَعَلْتَ لِكُلِّ شَيْءٍ مَأْوَىٰ وَلَمْ تَجْعَلْ لِي مَأْوَىٰ، فَأَجَابَهُ الجَلِيلُ تَعَالَىٰ: مَأْوَاكَ عِنْدِي فِي مُسْتَقَرٍّ مِنْ رَحْمَتِي، لَأُزَوِّجَنَّكَ يَوْمَ القِيَامَةِ مِائَةَ حَوْرَاءَ خَلَقْتُهَا بِيَدِي، وَلَأُطْعِمَنَّ فِي عُرْسِكَ أَرْبَعَةَ آلَافِ عَامٍ، يَوْمٌ مِنْهَا كَعُمْرِ الدُّنْيَا، وَلَآمُرَنَّ مُنَادِيًا يُنَادِي: أَيْنَ الزُّهَّادُ فِي دَارِ الدُّنْيَا؟ زُورُوا عُرْسَ الزَّاهِدِ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ(٢).

ومن جوامع الكلم والأدعية المنسوبة إلىٰ السيد المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

١- عن سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ قَالَ: «قَالَ المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: لَيْسَ كَمَا أُرِيدُ، وَلَكِنْ كَمَا تُرِيدُ، وَلَيْسَ كَمَا أَشَاءُ، وَلَكِنْ كَمَا تَشَاءُ(٣).

---

(١) الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص٨٣)، الأثر رقم: (١٧٥).

(٢) الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص٦٤)، الأثر رقم: (١١١).

(٣) كتاب الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل، ١٤٢٠، (ص٧٩)، الأثر رقم: (٤٨٦).

٢- عَنْ يَزِيدَ بْنِ مَيْسَرَةَ بْنِ حَلْبَسٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: «قَالَ الحَوَارِيُّونَ: يَا مَسِيحَ اللهِ، انْظُرْ إِلَىٰ بَيْتِ اللهِ، مَا أَحْسَنَهُ قَالَ: آمِينَ آمِينَ بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: لَا يَتْرُكُ اللهُ مِنْ هَذَا المَسْجِدِ حَجَرًا قَائِمًا عَلَىٰ حَجَرٍ إِلَّا أَهْلَكَهُ بِذُنُوبِ أَهْلِهِ؛ إِنَّ اللهَ لَا يَصْنَعُ بِالذَّهَبِ وَلَا بِالفِضَةِ وَلَا بِهَذِهِ الحِجَارَةِ شَيْئًا، إِنَّ أَحَبَّ إِلَىٰ اللهِ مِنْهَا القُلُوبُ الصَّالِحَةُ، بِهَا يَعْمُرُ اللهُ الأَرْضَ، وَبِهَا يُخْرِبُ الأَرْضَ إِذَا كَانَتْ عَلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ(١).

٣- عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ، عَنِ ابْنِ حَلْبَسٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قَالَ: حُدِّثْنَا عَنْ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: إِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الدُّنْيَا، وَمَكْرُهُ مَعَ المَالِ، وَتَزْيِينُهُ عِنْدَ الهَوَىٰ، وَاسْتِكْمَالُهُ عِنْدَ الشَّهَوَاتِ(٢).

٤-عَنْ جَعْفَرِ بْنِ بُرْقَانَ قَالَ: كَانَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ لَا أَمْلِكُ مَا أَرْجُو، وَلَا أَسْتَطِيعُ دَفْعَ مَا أُحَاذِرُ، وَأَصْبَحَ الأَمْرُ بِيَدِ غَيْرِي، وَأَصْبَحْتُ مُرْتَهَنًا بِعَمَلِي، وَلَا فَقِيرَ أَفْقَرُ مِنِّي(٣).

٥- عَنْ جَعْفَرٍ الخُورِيِّ أَنَّ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَصْبَحْتُ لَا أَسْتَطِيعُ دَفْعَ مَا أَكْرَهُ، وَلَا أَمْلِكُ نَفْعَ مَا أَرْجُو، وَأَصْبَحَ الأَمْرُ بِيَدِ غَيْرِي، وَأَصْبَحْتُ مُرْتَهَنًا بِعَمَلِي، فَلَا فَقِيرَ أَفْقَرُ مِنِّي، لَا تُشْمِتْ بِي عَدُوِّي، وَلَا تَسُؤْ بِي صَدِيقِي، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتِي فِي دِينِي، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ مَنْ لَا يَرْحَمُنِي(٤).

---

(١) كتاب الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل، ١٤٢٠، (ص٧٩)، الأثر رقم: (٤٨٨).

(٢) كتاب الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل، (ص٧٩)، الأثر رقم: (٤٨٩)، وتاريخ دمشق، الحافظ ابن عساكر، تحقيق: عمرو العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٤٧/ ٤٣١)، ومكائد الشيطان، ابن أبي الدنيا، (ص٧٨)، الأثر رقم: (٥٨)، وعنده بلفظ: (واستمكانه عند الشهوات).

(٣) كتاب الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل، (ص٧٩)، الأثر رقم: (٤٩١).

(٤) كتاب الزهد، أحمد بن محمد بن حنبل، (ص٧٩)، الأثر رقم: (٤٩٢).

٦- عن بِشْرِ بْنِ الحَارِثِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ حُبُّ الدُّنْيَا(١).

٧- عَنْ عِيسَىٰ المُرَادِيِّ قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إِنْ كُنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانِي فَوَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَىٰ العَدَاوَةِ وَالبَغْضَاءِ مِنَ النَّاسِ فَإِنَّكُمْ إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَلَسْتُمْ لِيَ بِإِخْوَانٍ، إِنِّي إِنَّمَا أُعَلِّمُكُمْ لِتَعْمَلُوا لَا لِتَعْجَبُوا إِنَّكُمْ لَا تَبْلُغُونَ مَا تَأْمُلُونَ إِلَّا بِصَبْرِكُمْ عَلَىٰ مَا تَكْرَهُونَ، وَلَا تَنَالُونَ مَا تُرِيدُونَ إِلَّا بِتَرْكِكُمْ مَا تَشْتَهُونَ، إِيَّاكُمْ وَالنَّظْرَةَ؛ فَإِنَّهَا تَزْرَعُ فِي القُلُوبِ شَهْوَةً، وَكَفَىٰ بِهَا لِصَاحِبِهَا فِتْنَةً، طُوبَىٰ لِمَنْ كَانَ بَصَرُهُ فِي قَلْبِهِ وَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ فِي بَصَرِ عَيْنَيْهِ مَا أَبْعَدَ مَا فَاتَ وَمَا أَدْنَىٰ مَا هُوَ آتٍ، وَيْلٌ لِصَاحِبِ الدُّنْيَا كَيْفَ يَمُوتُ وَتَتْرُكُهُ، وَيَثِقُ بِهَا وَتَغُرُّهُ، وَيَأْمَنُهَا وَتَمْكُرُ بِهِ، وَيْلٌ لِلْمُغْتَرِّينَ قَدْ آزَفَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ وَجَاءَهُمْ مَا يُوعَدُونَ وَفَارَقُوا مَا يُحِبُّونَ فِي طُولِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ، وَالخَطَايَا عَمَلَهُ كَيْفَ يَفْتَضِحُ غَدًا بِرَبِّهِ، وَلَا تُكْثِرُوا الكَلَامَ بِغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ كَانَتْ لَيِّنَةً؛ فَإِنَّ القَلْبَ الْقَاسِيَ بَعِيدٌ عَنِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ، لَا تَنْظُرُوا فِي ذُنُوبِ النَّاسِ كَهَيْئَةِ الْأَرْبَابِ، فَانْظُرُوا فِي ذُنُوبِكُمْ كَهَيْئَةِ العَبِيدِ، إِنَّمَا النَّاسُ رَجُلَانِ: مُعَافًىٰ وَمُبْتَلًىٰ، فَاحْمِدُوا اللهَ عَلَىٰ العَافِيَةِ، وَارْحَمُوا أَهْلَ البَلَاءِ، مَتَىٰ نَزَلَ المَاءُ عَلَىٰ جَبَلٍ إِلَّا يَلِينُ لَهُ؟ وَمُذْ مَتَىٰ تَدْرِسُونَ الحِكْمَةَ وَلَا تَلِينُ لَهَا قُلُوبُكُمْ؟ بِقَدْرِ مَا تَوَاضَعُونَ، وَبِقَدْرِ مَا تَحْرُثُونَ كَذَلِكَ تَحْصُدُونَ، عُلَمَاءُ السُّوءِ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الشَّجَرَةِ الدِّفْلَىٰ تُعْجِبُ مَنْ نَظَرَ إِلَيْهَا وَتَقْتُلُ مَنْ يَأْكُلُهَا، كَلَامُكُمْ شِفَاءٌ يُبْرِئُ الدَّاءَ وَأَعْمَالُكُمْ دَاءٌ لَا يُبْرِئُهُ شِفَاءٌ، جَعَلْتُمُ المُعَلَّمَ تَحْتَ أَقْدَامِكُمْ مِثْلَ عَبِيدِ السُّوءِ، بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ وَكَيْفَ أَرْجُو أَنْ تَنْتَفِعُوا بِمَا

---

(١) كتاب الزهد الكبير، الإمام البيهقي، تحقيق: عامر أحمد حيدر، ط. مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦، (ص١٣٤)، الأثر رقم: (٢٤٧).

أَقُولُ وَأَنْتُمُ الحِكْمَةُ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِكُمْ وَلَا تَدْخُلُ آذَانكُمْ، وَإِنَّمَا بَيْنَهُمَا أَرْبَعُ أَصَابِعَ، وَلَا تَعِيهَا قُلُوبُكُمْ، فَلَا أَحْرَارَ كِرَامَ وَلَا عَبِيدَ أَتْقِيَاءَ(١).

٨- عن ابنِ شَوْذَب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال مرَّ عيسىٰ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقومٍ يبكون علىٰ ذنوبهم فقال لهم: اتركوها يُغفَرْ لكم(٢).

٩- عن أبي عَبْدِ اللهِ الصوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: طَالِبُ الدُّنْيَا مِثْلُ شَارِبِ مَاءِ البَحْرِ، كُلَّمَا ازْدَادَ شُرْبًا ازْدَادَ عَطَشًا حَتَّىٰ يَقْتُلَهُ(٣).

١٠- عن سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: قال المسيح: كن وسطًا وامش جانبًا(٤).

١١- عن ابن شابور رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: قال عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: طوبىٰ لمن ترك شهوةً حاضرةً لموعودٍ لم يره(٥).

١٢- عن بشر بن صالح رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: قال عيسىٰ ابن مريم: طوبىٰ لعينٍ نامت ولم تحدِّثْ نفسَها بالمعصية وانتبهت إلىٰ غيرِ إثم(٦).

---

(١) كتاب الزهد الكبير، الإمام البيهقي، (ص١٦٧)، الأثر رقم: (٣٨٤).

(٢) تاريخ دمشق، الحافظ ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٤٧/ ٤٣١).

(٣) الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص١٥١)، الأثر رقم: (٣٢٢)، وفي: تاريخ دمشق، الحافظ ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٤٧/ ٤٣١)، وقد تصحف فيه (الصوري) إلىٰ (الصوفي).

(٤) تاريخ دمشق، الحافظ ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٤٧/ ٤٣١).

(٥) تاريخ دمشق، الحافظ ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٤٧/ ٤٣٣).

(٦) تاريخ دمشق، الحافظ ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٤٧/ ٤٣٥).

١٣- عن مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: قال عيسىٰ ابن مريم لأصحابه: النجاة في ثلاثِ خصال تبكي علىٰ خطيئتك وتخرس لسانك وتلزم بيتك والأيام ثلاثةٌ أيام فيومٌ مضىٰ وُعِظْتَ به، ويومك الذي أنت فيه لك منه زادُك، وغدًا لا تدري ما لك فيه(١).

١٤- عن إبراهيم النخعي قال: قال عيسىٰ ابن مريم: خذوا الحقَّ من أهلِ الباطل ولا تأخذوا الباطلَ من أهل الحق، كونوا منتقدي الكلام كيلا يكون فيكم الزيوف وقال الخرائطي: منتقدين لكيما لا يجوز عليكم الزيوف(٢).

١٥- عن مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: أَوْحَىٰ اللهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَىٰ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: يَا عِيسَىٰ، عِظْ نَفْسَكَ، فَإِنِ اتَّعَظْتَ فَعِظِ النَّاسَ، وَإِلَّا فَاسْتَحْيِ مِنِّي(٣).

١٦- عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ ثَابِتِ بْنِ ثَوْبَانَ مَوْلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ جَدِّي قَالَ: شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَوْمًا مَجْلِسًا فَقَالَ: «طُوبَىٰ لِلْمُخْلِصِينَ، أُولَئِكَ مَصَابِيحُ الدُّجَىٰ، تَتَجَلَّىٰ عَنْهُمْ كُلُّ فِتْنَةٍ ظَلْمَاءَ» قَالَ الحَوَارِيُّونَ لِعِيسَىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: مَا الإِخْلَاصُ لِلَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي يَعْمَلُ العَمَلَ لَا يُحِبُّ أَنْ يَحْمَدَهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ قَالُوا: فَمَنِ المُنَاصِحُ لِلَّهِ؟ قَالَ: الَّذِي يَبْدَأُ بِحَقِّ اللهِ

---

(١) تاريخ دمشق، الحافظ ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٤٧/ ٤٣٨).

(٢) تاريخ دمشق، الحافظ ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ط. دار الفكر، ١٤١٥، (٤٧/ ٤٤٠).

(٣) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ابن أبي الدنيا، تحقيق: صلاح بن عايض الشلاحي، ط. مكتبة الغرباء الأثرية، السعودية، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨، (ص١٢٤)، الأثر رقم: (٩٧).

قَبْلَ حَقِّ النَّاسِ إِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ أَمْرَانِ أَحَدُهُمَا لِلدُّنْيَا وَالْآخَرُ لِلْآخِرَةِ بَدَأَ بِأَمْرِ اللهِ قَبْلَ أَمْرِ الدُّنْيَا(١).

١٧- عن سُلَيْمَانَ بْنِ الْمُغِيرَةِ رَحِمَهُٱللَّهُ أنه قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: طُوبَىٰ لِمَنْ عَلَّمَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ كِتَابَهُ، ثُمَّ لَمْ يَمُتْ جَبَّارًا(٢).

١٨- عن عَبْدِ العَزِيزِ بْنِ حُصَيْنٍ رَحِمَهُٱللَّهُ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، قَالَ: مَنْ كَثُرَ كَذِبُهُ ذَهَبَ جَمَالُهُ، وَمَنْ لَاحَىٰ الرِّجَالَ سَقَطَتْ مُرُوءَتُهُ، وَمَنْ كَثُرَ هَمُّهُ سَقَمَ جِسْمُهُ، وَمَنْ سَاءَ خُلُقُهُ عَذَّبَ نَفْسَهُ(٣).

١٩- عَنْ أَبِي سُلَيْمَانَ النَّصِيبِيِّ رَحِمَهُٱللَّهُ، قَالَ: قَالَ الْحَوَارِيُّونَ لِعِيسَىٰ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: يَا رُوحَ اللهِ، كَيْفَ لَنَا أَنْ نُدْرِكَ جِمَاعَ الصَّبْرِ وَمَعْرِفَتَهُ؟ قَالَ: اجْعَلُوا عَزْمَكُمْ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا بَيْنَ يَدَيْ هَوَاكُمْ، ثُمَّ اتَّخِذُوا كِتَابَ اللهِ إِمَامًا لَكُمْ فِي دِينِكُمْ(٤).

---

(١) الإخلاص والنية، ابن أبي الدنيا، تحقيق: إياد خالد الطباع، ط. دار البشائر الطبعة الأولىٰ، ١٤١٣، (ص٣١)، الأثر الأول.

(٢) التواضع والخمول، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، ط. دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٩، (ص٢٥٦)، الأثر رقم: (٢٠٨).

(٣) الصمت وآداب اللسان، ابن أبي الدنيا، تحقيق: أبي إسحاق الحويني، ط. دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٠، (ص١٠٢)، الأثر رقم: (١٣٣)، ومداراة الناس، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، ط. دار ابن حزم -بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨، (ص٨٦)، الأثر رقم: (٩٦).

(٤) الصبر والثواب عليه، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، ط. دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨، (ص٤٥)، الأثر رقم: (٤٢).

٢٠- عَنْ وُهَيْبٍ المَكِّيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ: يَا مَعْشَرَ الحَوَارِيِّينَ، إِنِّي قَدْ كَبَبْتُ لَكُمُ الدُّنْيَا فَلَا تُنْعِشُوهَا بَعْدِي؛ فَإِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي دَارٍ عُصِيَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِيهَا، وَلَا خَيْرَ فِي دَارٍ لَا تُدْرَكُ الآخِرَةُ إِلَّا بِتَرْكِهَا، فَاعْبُرُوهَا وَلَا تَعْمُرُوهَا، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَصْلَ كُلِّ خَطِيئَةٍ حُبُّ الدُّنْيَا، وَرُبَّ شَهْوَةٍ أَوْرَثَتْ أَهْلَهَا حُزْنًا طَوِيلا(١).

وإلىٰ هنا انتهىٰ بي القول في شأن سيدنا عيسىٰ ابن مريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يرزقني الإخلاص، وأن ينفعني والمسلمين بما كتبتُ، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وكتب

أبو عبد الله المتطبب

عزت بن عبد الرحمن السُّلَميّ

مساء يوم الجمعة التاسع عشر من شهر صفر

عام أربعٍ وأربعين بعد الأربعمائة والألف

بمدينة تبوك حفظها الله وسائر بلاد المسلمين

---

(١) الزهد لابن أبي الدنيا، ط. دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠، (ص٣٤)، الأثر رقم: (٣٣)، والأثر الذي قبله رقم: (٣٢)، عن يَحْيَىٰ بْنِ أَبِي بُكَيْرٍ العَبْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ: أَخْبَرَنِي بَعْضُ العُلَمَاءِ، قَالَ: قَالَ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بنحوه مختصرًا، ورواه أيضًا عن يحيىٰ في: ذم الدنيا، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا، ط. مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤، (ص٢٦)، الأثر رقم: (٣٢)، وآخره: (ألا فاعبروا الدنيا ولا تعمروها).

الفهرس

تبصير

لتقريب التراث والدراسات
العلمية والترجمة